دكتور ثروت عكاشة

إعصار من الشرق

"جنكيزخان"

دار الشروق

مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشة ومن حولة حاشيته .
دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

الطبعة الأولى	١٩٥١	دار الفكر العربى
الطبعة الثانية	١٩٥٧	الكتاب الذهبى
الطبعة الثالثة	١٩٦٢	الناشر الحديث
الطبعة الرابعة	١٩٧٥	دار المعارف
الطبعة الخامسة	١٩٩٢	دار الشروق

الإخراج الفنى

الفنان حلمى التونى

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

إهــداء

إلى الأديب الفنان رجاء النقاش

كلمة أولى

للمغول تاريخ حافل بالأحداث ، اعتمد حقبةً من الزمن على الأساطير ، واعتمد حقبةً أخرى على الأخبار المرويّة على ألسنة رواة تختلف ميولهم واتجاهاتهم فتأثروا بما عُرف عن المغول من بطش وعنف ؛ كما اعتمد على ما جاء على ألسنة قوم لاعلم لهم بحديث المغول فاكتفوا بقليل لايفيد . ثم اعتمد أخيراً على أخبار قوم يطلقون لأخيلتهم تصوير الوقائع فى صورة عجيبة أخّاذة .

وقد شجّع هؤلاء وهؤلاء أن المغول أنفسهم كانوا غير مَعْنيينّ بأن يكون لهم تاريخ مدوّن ، يجمع مالهم على حقيقته ، ويقطَع على المسرفين فى القول الطريق ، ويزوّد من لاعلم عندهم بما ليس لديهم ، ويردّ على المغالين شَططهم ومغالاتهم ، ذلك لأن المغول كانوا قد شُغلوا في أعوامهم الأولى الصاخبة بالغزو والفتح عن أن يتفرغوا لشيء من هذا التدوين أو أن يشجّعوا عليه ، كما أنهم كانوا قد تردّوا خلال أعوامهم الأخيرة فى هوّة من الجهل نسوا معه مجدهم الأول وصلتهم بأسلافهم حتى باتوا لايعون منه شيئاً ، وإذا أُنسى التاريخ

أهله فلا أهل لـه . ولقد بدا ذلـك جليًّا عنـدما ذاب هـؤلاء المغول في غيرهـم مـن الأمـم ، وطـواهـم المغلـوبـون بمعتقـداتهم وعـاداتهم ، وأصبحت تلك الفتـوحات المـغوليّة الجبّارة غير معروفـة لدى شعوب الشرق أو شعوب الغـرب على وجهها الصحيح ، ولم تكـن غير أخبار جافـة فيها كثير من الغموض وكثير مـن التنافر يمليها البغـض وتمليها الكراهية ، وجاءت فى جملتها سلسلة ناقصة ، ثم هى على نقصها كانت غير صادقة .

وهكذا عاشت منسيّـة أو شبه منسيّة تلك الفتوحات التـى لاتدانيها فتوح الإسكنـدر ولا فتوح الـرومان ، وتلـك الانتصارات التـى تشبه المستحيلات ، وتلـك الأعمال التى جمعت بين النقيضين ، مـن وحشية تُثير الهَلع والفزع ، وبُطولة تحرّك الإكبار والإجلال .

وهكذا كاد التاريخ ينسى ذلك الزعيم القَبَلى الذي خرج من أقصى الشرق ، من إقليم ضيـق محدود يرمى بنفسه وبجيوشـه ، التى لم تكن قد لقنت فنون الحرب ولا خداع الحصار ، إلى أمم كانت لها الكثرة من الجيـوش وكانـت لها الخبرة الحربية والعتـاد الضخـم ، لينقضّ عليهـا كـالصاعقـة يتَخطَّفها دولـة بعـد دولة ، ويثـلُّ عـروشها عـرشاً بعـد عرش ، تـَذلُّ بين يديه أمنع المدن وتتَداعى لهجومه أقـوى الحصـون ولا توقفـه الأسوار الراسخـة . وإذا آسيـا كلها تقريبـا تحت إمرتهم ، وإذا جزء من القـارة الأوربية يديـن لهؤلاء الفاتحين بالسيـادة ، وإذا أوربـا كلها فـزعةً وجلـة تجتمع لـوقف هـذا الزحـف وصدّ هـذا العدوان ،

فتـقيم فـى سبيـله السـُدود والـحواجز .

وكما كاد التاريخ ينسى لهؤلاء المغول هذا الجانب الحربي ، كاد ينسى لهم جـانبهم الحضـارى ، وإنَّا لنعـرف أنـه ما كـاد يتم لهؤلاء الفـاتحين الاختـلاط بالشعـوب المهـزومة حتـى تحلّلوا شيئـاً فشيئـاً من عنفهـم الموروث ووحشيتهم التـي طُبعوا عليها وراحـوا يسايـرون الحضارات بخُطى وئيدة ، وما كان ذلك باليسير على هـؤلاء الذين لمّا يَطَّرحوا عن أنفسهـم غبار البيئـة ولمّا يطّـرحوا عـن أنفسهم عـاداتها وتقـاليدهـا ، ولكنهم على الرغم من هذا أعطوا وأفادوا .

لقـد شرّع جنكيزخـان قوانين تنظّـم للناس حيـاتهم ، ومضى ابنُـه «أوجتاى» على نهجه ، وعاش مدته القصيرة يجمع بين شجاعة الجندى وعدل الملـك ، وجمع الناس حوله بتسـامح وسخاء غير مألـوفين لمثله ممن يخرج من صحارى « مغولستان » . كما استطاع « قوبلاى خان » بما عُرف عنـه من صفات فريـدة ومعرفة واسعـة وحكمة بالغة وحكـومة رشيدة ، أن يفـوز بإعجـاب الصينيين أنفسهم . مـن أجل هـذا كله ، كان مثل هذا التاريخ بحلوه ومُرّه جـديراً بأن يعنى به المغول أنفسهم ، وأن يعنى به مع المغول العالم أجمع .

ولعلّ هـذا هو ما حـدا « غازان خان » (٦٩٤هـ ـ ١٢٩٥) إلى أن يكل إلى وزيره فضل الله رشيد الديـن الهمَذانى (٦٤٥ هـ ـ ٧١٨هـ) (١٢٤٧م ـ ١٣١٨م) أن يضع للمغـول تاريخًا يكون لهم سجلاً حـافلا بالحقائق مجرّداً مـن الترّهات هو « جامـع التواريخ » الذى تنتظـم هذه

الطبعة الخامسة ستاً من منمنمات نسخة له أُعدّت بهراة عام ١٤٢٥م محفوظة بدار الكتب القومية بباريس ، فضلا عن منمنمتين أخرتين من شاهنشاهنامة شيراز التى أُعدّت عام ١٣٩٧م المحفوظة بالمتحف البريطانى .

ولقد حاول نفر من المؤرخين شيئاً من هذا التأريخ ، فكان يعوز بعضَهم حديثٌ لا يعرفونه ، ويُملى على بعضهم بغضٌ يحملونه ، فأصابوا فى شىء وأخطأوا فى أشياء .

وقد أورد ابن الأثير (٥٥٥هـ - ٦٣٠هـ) فى كتابه المسمى بـ «الكامل» عرضًا مختصراً لفتوح المغول ، ومنعه التحفظ والحذر من أن يتورّط فيها لا يعرف ، فإذا هو لايذكر شيئاً عن فتوح «جنكيزخان» ، وإذا هو يقنَع بسرد أخبار أشبه بالحكايات عن تلك الحرب التى شنّها هذا الفاتح الجبّار على ولايات سلطات «خوارزم» . ويحذو ابن الفرات (٧٣٥هـ - ٩٠٧هـ) حَذو ابن الأثير فلا يزيد شيئاً ولا يعقِّب . ويحاول محمد بن النسوى ، الذى كان كاتباً للسلطان جلال الدين منكبرتى أن يجمع أحداث السنين الأولى لحكم جنكيزخان فى تفصيل ، فإذا هو يكتب شيئاً يتفق بعضه والتاريخ ويختلف البعض الآخر مع التاريخ . وله عذره، فلقد رأى عرش مولاه يتداعى أمام هجمات المغول ، وكان على وشك أن يناله هو الآخر شىء من عسفهم. ولقد عاش فترته تلك تروعه المذابح ، وتصمّ آذانه قعقة السلاح ، وتهوله رؤية الخرائب ، وتحزّ فى نفسه

صيحات اليأس فيشغله ذلك كله عن أن يستمع للحقيقة ويكتب مستوحياً تلك الحقيقة . ثم جاء مؤرخ فارسى هو عبد الله البيضاوى فجمع قليلا من الأخبار التى تتصل بالمغول وضمّنها كتابه «نظام التواريخ» . ولكن عمله هذا جاء مقصوراً على الأحداث الرئيسة، مبتوراً ينقصه كثير من التفصيل .

وكان علاء الدين عطاء المُلك الجوينى قد شَغل بعض المناصب الهامة ، واستطاع بفضل رحلاته العديدة أن يجمع شيئاً من الروايات التى تمتاز على ما فيها من غرابة بشىء من الصدق عن مهد الإمبراطورية المغولية ، فحاول بما اجتمع له من ذلك أن يضع تاريخاً لفتوح «جنكيزخان» وخلفائه، إلا أنه كان يعوزه الكثير مما يتصل بالسنين الأولى لجنكيزخان ، فنراه قد أهمل ذكر الروايات المغولية المتصلة بأسلاف جنكيزخان ، والتى تبعد فى القدم إلى الأزمنة الأسطورية ، لذلك جاء تاريخه خِلْواً مما يعرّف بأصول القبائل المغولية وبأنساب الأمراء والرؤساء .

وبعد علاء الدين عاش مؤرخ معروف هو عبد الله بن فضل الله الذى وضع كتاباً فى تاريخ المغول أسماه « تاريخ وصاف » . وعلى الرغم مما اجتمع لهذا المؤلف من أحداث كاد يخفيها وراء أسلوبه المسجوع الملىء بالمحسّنات اللفظية ، فقد جاء كتابه أقربَ إلى الأدب منه إلى التاريخ .

* * *

وفي ظل هذه البحوث الشرقية نشأت محاولات غربية ، مانشكّ فى أن هذا التراث الشرقى كان مادتها . وكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كُتب فى العربية ، وبعضها تأليفاً استُعين فيه بتلك المادة العربية . ولقد قرأت شيئاً من هذا مما كتب فى العربية ، وقرأت شيئاً منه فى اللغات الأوربية لاسيما الإنجليزية والفرنسية ، فهالني هذا التاريخ ، ولاسيما تاريخ المؤسس الأول لدولتهم «جنكيزخان» . ورأيت فيه صورة من القسوة العارمة التى لا تأبه للشدائد ، والعنف الصاخب الذى يستهين بالمصاعب ، والإقدام الجرىء الذى يشقّ طريقه وسط العقبات ، ورأيت فيه صورة من الأمل تملأ النفس فلاترتدّ عن تحقيقه .

رأيت هذا كله فأعجبت به ، لم تَعْننى صورته التى وقع عليها ، وإنما عنَتنى الصورة التى حفَزت إليه . ثم رأيته تاريخاً بدأ على صورة وانتهى على صورة . بدأ قاسياً فكان وحشياً ، وانتهى بالمشاركة فى ألوان من الحضارات والمدنيات ، وكان من هؤلاء الغزاة الفاتحين علماء ومشرّعون . ثم لقد كان تاريخاً على كل حال ، شَغل من تاريخ العالم صفحات طويلة ، وكان شأنه شأن كل غزو ، إن اتصف بالشر لما فيه من عدوان وسلب ، فهو يتصف بالخير لما فيه من إيقاظ للشعور وإثارة للهمة . وما أردت أن أقف منه موقف المؤرخ ، وإنما أردت أن أجعل منه قصة أقصها ، لا أسرده سرد المؤرخين ، بل أدع تفصيل ذلك لهم ، وحسبى أن أستصفى منه دقيقه الحيّ .

* * *

وهذه سيرة « جنكيزخان » تكشف لنا عما حقّقته وحدة أمة المغول البربرية المتوحشة من معجزات مازالت حديث التاريخ ، يقف عندها المؤرخون حيارى . لقد اكتسحت جيوش المغول الوديان والسهول والجبال والبحار والغابات لأنها كانت متّحدة متآخية ، يجمع بينها شعور واحد بخطورة ماتحمل من تبعات ، وما تضطلع به من مسئوليات . وعلى الرغم من تخلّفها وتأخرها فإنها صرعت شعوباً ذوات حضارات قديمة ، وأذعن لبطشها أهل هذه الحضارات . وما استطاعت تلك القبائل المتخلّفة أن تنال من هذه الشعوب المتحضرة إلاّ بفضل وحدتها ، وانقسام هؤلاء انقساماً جرّهم إليه الترف الضال والشهوات العابثة والخلاف القاتل والنفاق البغيض .

ولقد تعرّض العرب لما تعرّض له غيرهم من غزوات هؤلاء المغول ، ودفعوا الثمن نفسه الذى دفعه أبناء الصين ، لم يغنهم كفاحهم ولم يردّ عنهم جهادهم ، إذ كانوا قد تنكرّوا لحياة الجهاد والكفاح ، وشغلوا بالفتن والمؤامرات ، وتفننّوا فى الاستمتاع بملاذ الحياة ، وأسرفوا فى ذلك على أنفسهم . ولولا بقية من خير عَمرت به النفوس ، وبقية من عزّة تحركت فى القلوب ، وبقية من إباء لمّا تزل تعيش عليها الأفئدة ، لذهبت ريحهم وأصبحوا أثراً بعد عين . وهكذا قُدِّر لهذه البقية الباقية من هذا كله أن تخرج بالعرب من وقعة عين جالوت صامدين أمام جيوش المغول الجرّارة ، لم تلحقهم هزيمة ولم يبوءوا بفشل .

* * *

وكان بى إكبار ، حين أخرجت هذا الكتاب في طبعته الأولى للناس عام ١٩٥١ ، لجنكيزخان قائداً ومحارباً ، تستهـوينى منذ أمد تلك المثل الجريئة المملـوءة شجاعـة وإقداماً ، ويستهـوينى أن أجمع النـاس معى عليها ، كما كان بى إشفاق على الشعـب العربى ، فأردت أن أدُلّهم على مواطن الضعف حين يختلفون ويتفرّقون ، وبواعث القُوة مع الوحدة ، وأن أذكرّهم بماض كادوا يخرّون فيه صرَعـى للجبين حين لانوا وهانوا أمام قوات بربرية متوحشـة لم تكن لها حضارتهم ولم يكن لها عزّهـم ولا جاههم .

واليـوم أشعر بـالرثـاء « لجنكيزخـان » والـدولة التـى أنشأهـا على الجماجم ، وأعتزُّ بشعوبنـا التى أرجو لها وحدة شاملة تقـوّى من شأنها وتجعلها صـامدة أمام الـزحف الصهيونـى الجديد الذى ظهـر فى الأفق وكاد أن يفعل بها مـا فعله جنكيز خان ، ولن ينفعها أمـام هذا العدوان الغاشم غير أن تكون على قلب رجل واحـد ، حكومات وشعوبا . ثم ما بـالنا نـدين أولئـك البدائيين بالـوحشية مـع جهالتهـم وبداوتهم ، ولازال بيننا ممن يدّعون انتماءهم إلى المدنية مـن يأتون ما هو أشد قسوة وبربرية . إن ما فعله همج الأمـس لايقاس شيئاً بما يفعله همج اليوم من تدمير للمدن وقتل للأبرياء وعدوان على النساء والأطفال .

وفى رأيى أن مثيرى الحروب جميعاً والسّفاحين الـذين يتعطشون إلى الدماء كلهم قادة عصـابات يـغيرون عـلى الـحضارات ويهـدمون المُثل الإنسانية ، مُصـدرين فى ذلك عن النوازع الشريرة الكـامنة فـى تلك

النفوس المريضة ، ولا إخال جنكيزخان إلا كان من تلك العُصبة

واليوم تصدر هذه الطبعة الخامسة ، والحال تكاد تكون هى الحال بالأمس ، من عدوان يشنّه القوى على الضعيف ، كما لازلنا طُعمة للغاصب بما نحن عليه من تفرّق وتشتّت . وإنى لأجدها فرصة لأضرع إلى الله أن يلمّ الشمل ويجمع الشتات لتكون لنا مكانتنا بين الشعوب .

ثروت عكاشة

القاهرة فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩١

مع المغول

إلى الشرق البعيد من تلك البادية القـاحلة ، بادية « الجوبى » حيث الجبالُ شـاهقة لا ترَقى السُّحـب إلى قممها ، وتمرُّ مُتطامنةً مـن بينها ، وحيـث الريـاح الهَوجـاء تَعصف بـرمـالها ، والشمـس المُتّقدة تُلهـب صخورها ، وأنّى مددت الطَّرف لا تقع إلاّ على فَيافى جَرداء ، لا شجر ولا حيوان ، ولا مُدن ولا إنسان، كَلأٌ هنـا وهناك حول مسارب المياه التي تنساب شحيحةً بطيئة ، تثور الرياح مرةً فيثور معها غُبار تَقْذَى به العيون وتضيق منه الأنفاس ، لا يملـك الإنسان معه إلا أنْ ينبطح على الأرض إلى أن تمُرّ العـاصفـة ويسكُـن الهواء وتصفـو السماء ، وتثـور الرياح أخرى بالبرق والرعد فتنْهمر السماء بالبرد وتقذف بالثلج .

فى تلك البقاع التى ينتهـى فيها المُناخ إلى طرفيه من قيـظ لافح وبرد قـارس، وبـالقـرب من بحيرة « بيقـول » ومـا حـولها مـن بُحيرات ، تكتنُفهُـا الحَرَجات وتحلّـق في سمائها جَـوارح الطير ، تمُعـن حينًا نحـو الشمَال وتُصوِّب حينًـا صوبَ الجنوب ، مُنذرةً بميلهـا نحو الشمال أو انحدارهـا إلى الجنوب بما سيَطْرأُ على المنـاخ مَن تَقَلُّب ، ومـا سيصيب الجوَّ من اختلاف .

هنـاك ـ منـذ أعـوام سبعمائة خَلَـتْ ـ عـاش قـوم لا رداء لهم يسترُ أبـدانهـم إلاّ جلـود الحيـوان ، ولا طعـام لهم يقـوتهُم إلاّ اللبـن الخاثـر واللحم المجفف ، ولا شـيء بين أيديهم يقُون به أجسـامهم لَفْح البرد ولسع الريح إلاّ الشحم يَطلونهَا به . أولئك هم قبائل المَغُول بما لهم من مـراس صَعْـب وشكيمـة قويـة، شرْعَـةُ الصحـراء شرْعَتُهُـم ، وعلى البَغضاء والعداوة نشَأتهم البيئةُ المُجدبَة ، وأغراهم حُبُّ البقاء .

وهم على ذلك شعب له ماض طـويل مُعن فى القدم ، امتاز بصفُرة الوجه، والأنف الأفطس ، والشَعر السَّبْط غير المُجَعَّد بسواده الحالك وبريقه وتألقـه، كما تَمَيَّز بالعيون المُنحرفة التي تشـوب سوادَها زُرقةَ ، تَغلب الصُفرة علي بَشرتهم ، غير أن منهـم من يبدو أسمَر أو بُـرنزيًا أو نحاسيًا .

ومن هذا الأصل المَغُولى يَنحدر الصينيّون واليابانيون والكوريون ، وبه يتّصل أهل منشوريا لا يَرَوْنَ لهم أصلاً غيره . والمغول ينتهون ـ كما يقول الدارسـون ـ إلى أصل « تنجوسى إيـرانى » نشأ من تـزاوج هذين العُنصرين، وكان يُطلـق عليه « الجنس الأورالتيكى » ، وكـان موطنه الأول مـرتفعات آسيـا الـوسطى ، ومنـه أهـل التبّت والشعـوب غير الآريـة، ثـم انتشر غربًا وشرقًـا . وعـاش المغـولى صاحـب الكلمـة وصاحـب السلطان تَنْزع به إلى ذلك طبيعتُـه الأولى التي خـرج بها من مَهده ، فكـان فى فارس الحاكـم الآمر ، وكـان فى الشرق الأوسط وفى آسيـا الصُغرى السيـد المُسيطر ، وحين اقتحـم على الأوربيين بلادهـم

حتى بلغ أسوار فيينا المنيعة ، أراد أن يفرض على أهلها سلطانه . وحَسْبُنا ما يحفظه التاريخ لنا عما كان لقبائل « الهون » و« الماجيار » و«البلغار» . . . وهم من هذا العنصر ـ من جرأة وإقدام . وما وقف بُعْدُ القارة الأمريكية حائلا دون طُموحهم ، فلقد تدفَّقت إليها جموعُهُم ؛ يحُدِّثنا بذلك الكاشفون حين يُنَبِّئُون بأن سكان تلك القارة الأُوَل ينتمون إلى الأصل المغولى .

وحول بحيرة « بويور » عاش التتار ، وكانت تجمعهم بالمغول عُمومة ، ولكن هذه القُربى لم تذهب بتلك العَدَاوة التي أَمْلَتْها البيئة ، فإذا هما خَصمان لا تهدأ بينهم ثائرة ، ولا يكُفُّ لهما استعدادٌ لحرب ، لا يخْلُصان من قتال إلا إلى قتال ، ولا ينفُضَان يدًا من غارة إلاّ ليشغلا بها غَارة أخرى ، يَعُدّ هؤلاء على هؤلاء حركاتهم وسكناتهم ، يحْفزهم إلى هذا التطاحُن والتناحر الغلبةُ على المرعى والاستئثار بمواقع المياه .

* * *

كان الموطن الأول للمغول هو تلك القفَار التى تقع إلى الجنوب من بحيرة «بيقول» حيث تَنْسَاب أنهارٌ ستة فَي أرض صَلْدة جبلية منها : الأنون وأنجودا وكيرولون التي هي المنابع الرئيسة لنهر الآمو العظيم الذي يصبّ فى البحر الصينى عند « أوخستك » ، ثم «التولا» و«أورهون » و«سلنجا» التى تصُبُّ فى بحيرة « بيقول » . وتنحدر تلك الأنهار كلّها من قمم جبال «كنتى خان » وأعلاها قمة جبل «برهان » .

ومـا عَرَفت تلك البُقْعة الفسيحة التى كان يغلب عليها الجَدب

مـن وسط آسيا الجنوبى غـير تلك الأنهار الستّة .

وفى هـذه البَـادية المُنبسطـة الأرجـاء بـدأ المغول حيـاتهَم ، وأَمْلَـوا تاريخهم الحافـل ، فكانوا أولَ ما كـانوا يتنقّلون فيها بماشيتهـم وخيلهم بـاحثين عـن المرعـى واقعين على مـواقـع الحيـاة . وهـم حين يُكتـب لماشيتهم وخيلهم أن تنمو فى كثرة يُكْتـب عليهم أن يجدُّوا فى إثر المرعى الغَنىّ الخَصيب . وعليهـم حمايةُ ما وقع فى أيديهم ليَحْيَـوْا ، والمكافحة دونه ليعيشوا ، هيّـأتهم الطبيعة القاسيةُ لهذه الحياة القاسيـة ، من صيد وقتـلٍ وسَلب ، يَنْهَبُـون ويُغيرون ، يقتُـل بعضهـم بعضًا لـلاستئثـار بالحيـاة ، وهـم على ذلك كانـوا أشدّ حَمّية وألهبَ غيرة وأعنـفَ قَسْوة ، وإن بَدَا للمـرأة ظلٌّ بينهـم فهم ينسَوْن القـوت ويذكـرونها ، وتُنْسيهم الثورةُ لها الثورةَ للقوت .

* * *

ولقـد آتخَّذ المغـول الطبيعـة هـاديًـا ومُعلّماً . يستلهمـون منهـا ويسترشدون بها ، ففـى الشتـاء حينَ يكسُـو الجَليـد الأرضَ ويغطـى المراعى المُعشبـة فَيَضْوَى النبـت ويَذوى العُشـب ، ولا تجد الماشية مـا تعيش عليـه فيذوب شحمُها ويضمـر لحمها ويعـرض لها الموت يحصُد منهـا الكثير ، عندهـا يكُفُّ القـوم عن ذبحهـا حتـى لا يكونـوا عونًـا للطبيعة على إفنـائها ، صابـرين على ما يعرِّضـون له أنفسهم مـن جُوع قاتل وحـرمان مميت ، قانعين بما قد ادخـروا من أُذرة يجدون فى طَبخها ما يسُدُّ رَمَقهم ، ويدفع الجوع عن صبيانهم .

وقـد ينفد مـا عند القـوم مـن زاد مُدَّخـر ، والجوع لا يقوى عليـه الصَّبر، ويسـوء معه الطبـع ، فينهضون للغـارة ، يقَتُلون ويقُتلـون ، ويَسلبون وينهبـون، غير مُلْقين بالاً لما يَـزرع هذا العُـدوان من عـداوة ويغرس من كراهية. ويضيق الصِّبيـان بهذا الضيقَ كلّه وما لهم باحتماله جَلَدُ الكبار ، فينطلقون وراء الجرذان بهرَّاواتهم ، فإن لم يجدوا جَرَوا في إثر الكلاب والذئاب بتلك السهام المتكسرّة التى نَزل لهم عنها آباؤهم.

فـإذا مـا أقبل الـربيـع بصَحـوه انقشع الغمام وظهـرت الشمـس في الأفق، فـأصابت الأرض من حـرارتها وانكشف عن وجههـا الثلج ، فاعشوشـب المرعى، واخضرّت الأرض ، ووجدت الماشية مـا تطعم فأكلـت حتى امتـلأت . عندهـا تعود الحيـاة إلى الناس كما عـادت إلى الأرض ، ويخرجـون إلى الصيـد وراء الـدِّببـة والـوُعـول والأيّـل ، ويعودون مع الأصيل بشيء منها تحمله ظهورهم، وشيء قد ربطوه إلى خيولهم ، فَـرحين بما أصابوا ، مُقبلين على هـذا الطعام الشهـيّ بعد أن سئمـوا لحوم الثعالـب والسمور والكـلاب . وإذا ما عـاد الرجـال إلى بيوتهم قَـذفوا بـالصيد إلى النـار ، وافترشوا الأرض مـن حولها، وقـد التفّ بهم أهلـوهم يستمعون إليهم ، وهـم يقصُّون عليهم مـا كان لهم من مغامـرات في الصيد ومُحاتلات يَستهوُون بـذلك النساء ويثيرون بها ضحـك الصبيان . فـإذا ما نَضـج الشِّواء امتـدت إليه أيـدى الرجـال فاستأثرت بـأطيبه ، وحاز الأطفالُ ما تقوى عليه أصـابعهم الرقيقة ، وتلمّست النساء ما يقع لهن ، والكلاب من حولهم جميعًا ترقُب فى لهَفة

تلك العظام التى يُلقى بها إليها تَعْرقها فى نَهَم وشراسة .

* * *

ولم تُنس هذه الحياةُ القاسية هؤلاء القومَ من أن يأخذوا نصيبَهم فيها من لهو واستمتاع . فهم إذا ما خَلَوا إلى أنفسهم وأخلدوا إلى السكون وأمنوا شر الحروب انكفئوا على الشراب يجرعون ويسرفون . وقد يجرُّهم هذا إلى صخب أو شغب يخرجون منه إلى أذى يُصيب به بعضهم بعضًا قولاً وفعلا . وإذا لم يأخذوا فى الشراب أخذوا فى ألوان من اللهو تمليها عليهم تلك الطبيعة ، فإذا هم قد عقدوا حَلَبات للسباق على ظهور الخيل ، وأخرى للمبارزة بالسيف ، وثالثة للمصارعة العنيفة القاسية ؛ فمن هذه الثلاثة حياتهم ، وعلى هذه الثلاثة مجدُهم وفخارهم .

ولا تَغيب المرأة عن هذا كُله إلاّ قليلا ، إذ عليها إعداد البيت ونظافته وطَهى الطعام ؛ هذا إلى أعباء أخرى ليس لها غيرها ، فكان عليها صُنع الثياب وحياكتها ، وإعداد اللبّاد لصُنع القِباب وحَلب الأبقار وتجفيف الألبان .

* * *

وهم يقيمون بيوتهم من اللبّاد السميك ، يجَعلونه قبابًا تستوى على جُذُر من القصب يُشَدُّ بعضه إلى بعض بشرَائح من لحاَء الأشجار قد جُدلت جَدلاً محكما . وفى الوسط من القُبة يهيئون مكانًا لنارهم التى تَظل أبدًا مُوقده ، ويجعلون تلقاءها فى سماء القُبة منفذًا ينفُذُ منه الدخان

ويجدِّد لهم الهواء . وكما حاطـوا تلك أُلجدر القصبية من الخارج بـاللباد فهم يحوطـونها من الداخـل بالجص ّ يجعلونـه لها ملاطًا ، يمـلأ ثغراتها ويستر عيوبها ويَقيها مـس ّ النار ، وما أسرعها إلى تَلـك الجدر إن ظلت عاريـة . ولقد هيَّأ لهم هذا الصقـل لجُدرانهم أن يرسُموا عليها رسـومًا ويصـوروا صـورًا وينقشـوا نقـوشًا ، ليسـت إلا مـن وحـى العقيـدة الدينية ، ومن وحى الخُرافات والأساطير التى ملأت عليهم أذهانهم .

وإلى جانب تلك الرسوم والصور والنّقوش يعلِّقون سلاحهم ، من دُروع مصنـوعة مـن الجلد المقـوَّى وأقواس ورمـاح ؛ هذا إلى سـلاح يكـونـون قد غنمـوه ، وآخـر يكـونون قـد اشتروه مـن تجار المسلمين الوافدين عليهم من الغرب .

وهذه القِبـاب مع ضخامتهـا من اليسير حَمْلهـا ، فإذا ما هـمَّ القوم بالـرحيل رفَعـوها على « اليرت » وهـى عربـة مستطيلة ، يُثبَّـت عليها البيت تثبيتًا قويًّا ، فلا الأعاصير الهوجـاء ولا الرياح العاصفة ، بقادرة على أن تُزعـزعه أو تطوِّح به مـن فوق ظهر « اليرت» ، تُقطَر العـربتان والثـلاث بعضهما إلى بعـض فتكـون أشبه بـالقطـار تجرّه عشرات مـن الثيران القـوية . ولا تـأخذ تلـك العـربات فى سيرهـا إلاّ بعد أن يتـم إعدادها كلهـا ، ومن ثَم يُعطى الآذنُ بالرحلة إذنه فى صوت جَهْورىّ ، فتمضى الثيران وئيدةً ومن خَلفها العربات مُتأرجحة . ويرتفع فى الجو خُـوار الثيران وصهيـل الخيـل ونُبـاح الكـلاب يخالـط ذلـك صريـر العجلات وزمر الـزامرين ، وإذا الجو امتلأ جلبةً صـاخبة يُملى بعضها

على بعض ويـردد بعضها بعضًـا ، والسماء قد أظلّتهـم بصفائهـا ورقة هوائهـا ، والأرض قد انبسطـت تحت أقدامهـم مُستويـةً ممتدة وكـأنها بساط أخضر .

ويَصوغ هذه الحياة «ألكسندر بورودين » موسيقَى ويصوّره ألحانًا ، يستوحـى فى هذا وذاك طبعا نصفُـه شرقىّ ونصفـه غربىّ ، فلقـد كان يعزى إلى أب ، أمير من أمراء الكرج : وكان « بورودين » طبيبًا نبغ فى الكيمياء فبلـغَ الذروة ، ونبـغ فى الموسيقى فـأبدع وفـاق ، عرفـت له دولته قدره فى الأولَى بعد موته فخلّـدت اسمه فى الخالدين ، وعرف له العالم تفـوقه فى الثانية فـوضعه بين كبار الموسيقيين . وكما كـان عالما فى الأولى كان موهوبًا فى الثانية ، فحلّـق بخياله فى سماء تلك المناطق التى كانت غريبة على غيره ، فكل ما فيه من إحساس وشعور وتصوّر مردُّه إلى مهده روسيـا الذى فيه دَرج ، حتى إذا مـا أخذ يصوّر بموسيقـاه ما يجرى فوق فيافى آسيا الوسطى مـن ضَجيج للقوافل فى عُبوره ، تخالطه أصـوات للعـربـات فى مسيرها ، معـه خُـوار الثيران ونُبـاح الكـلاب وصيـاح الرجـال وصراخ الصبيان ، ومـا تشهده أرضُهـا من معـارك يصطدم فيها السـلاح بالسلاح ، ويزأر فيهـا الرجال بالـرجال ، ومن بين ذلك أناشيد الحرب تَنطلق قوية كالـرعد من حناجر خشنة ، ثم ما تشهد من مجالس للحـب تنبعث منها أغان هادئة لينة حُلـوة . كل هذا صوّره «بـورودين » فى مقطوعته « فى فيافى آسيـا الوسطى » يخلط واقعه الروسى بخيـاله الشرقى ، تعبّر عنه مـوسيقى يغلب عليها لحن شرقى

أخّاذ يسيطر على ألحان رقيقـة أخرى ترمز إلى صنعة الغـرب ، فإذا هذا وذاك يبعث جوًا من الفتنة الآسرة ويُشيع جوًا من السحر الشائق .

* * *

ويبدو « اليرت » وكأنه بيتٌ متحرك قد انضم على ما للقوم من متاع أوْدعوه كنـوزَهم وثرواتهم وأسلابَهم ، منهـا ما هو في صناديـق : من حُلى فضية وثياب مطرزة مـوشاة بالحرير ، ومنها ما قد حُـزم حزمًا من سجـاجيد وطنـافـس ، ومنها مـا قد أخـذ مكـانه على الأرض وفـوق الجدران من سلاح وعتاد .

وتمضى القـافلة يحُيط بهاا الرجـال الأشداء في عُدَّتهم وسـلاحهم ، تتقدّمها كوكبات من الفُرسان يكـونون كالطليعة ، يُمعنون هنا وهناك ليؤمّنوا لها السبيل وليُؤذنونها بالشر إن وقع . يَلزمون ظهور الجياد أيامًا تبلُغ الثلاثة لا ينـزلون عنها ولا يحلُّون عنها سروجها ، مجُتـزئين بالزاد القليل لهم ولجيادهم يتبلَّغون به . وقد انتشر الصبيان هنا وهناك يلهون حينًا بصيد الأسماك من المستنقعـات والجداول التي يمُرون بها ، وحينًا بمُطاردة الذئاب ، هذا إلى ما عليهم مـن سَوْق الماشية ودفع الخيل وردّ ما شرد منها .

* * *

وعلى هذا فليـس تاريـخ المغول بـالتاريـخ الذى يُستقـى من منـابع صحيحة ، أو تؤيّده روايات سليمة ، بـل لقد كان ولا يزال تاريخًا غيرَ موصول الحلقات يحوطه كثير من الغموض ، تَطغى عليه الخرافات فلا

يُعرف مكان الخبر التاريخى من الخرافة، ولا مكان الخرافة من الخبر التاريخى ، وتُصوره معتقدات القوم فى الأرواح والشياطين فإذا هو شيء لم يُمله التأريخ ولكن أملاه ذلك التصوير . وإذا المؤرخون بعد هذا كله أمام قصص من المعجزات الخارقة عسير عليهم أن يَعرفوا الجانب التاريخى السليم منها .

غير أنه مما يكاد يكون مَقطوعًا به أن مغول « يكّا » كانوا أيام «كابول خان» يُسيطرون السيطرة كلها على شمال « الجوبى » . ثم كانت لهم الغَلَبة على تلك المراعى الممتدة من بحيرة « بيقول » إلى جبال « خنجان» على حدود منشوريا ، تلك المراعى التى كانت تزدحم بالأعشاب الكثيفة تُغطى وجهها كله وتزخر بالماشية التى كانت تُرْبى لحماً وشحما على غيرها فى البرارى الجنوبية . كما كانوا يسيطرون على الوديان التى حول نهرى « الأنون » و«الكيرلون » تلك الوديان الغنية بُمروجها الواسعة ، التى تكتنفها جبال نَبتت على مَدارجها وفى سُفوحها أشجارُ البتولا والتوت ، تهَيم خلالها صنوفٌ من الحيوان البرية .

وهكذا هيأت طَبيعة تلك الوديان عيشًا رغداً لأهلها ، فعلى نباتها يعيشون ، ومن قَنَصها يطعمون ، والمياه بين أيديهم جارية فلا يظمئون، والمروج بأعشابها الدائمة مَرتع فسيح لماشيتهم ، ولهم من لحومها وألبانها وأوبارها وجلودها ما يشتهون .

وكان « كابول خان » يفرض على القبائل التى تحت سلطانه فريضة سنوية يؤدونها إليه ، من خيل وماشية ، ثمنَ دفاعه عنهم وسهره على

مصـالحهـم . ويموت « كـابـول خـان » ويـرث الـزعامـة مـن بعـده «يسوجـاى » وكان داهية فَطِنًـا ، فدان له المغول بـالطاعة وأحسنـوا له الاستجابة . ولكن ما إن ولى «يسوجـاى » حتى خرجت عليه قبائل ، منها «التايدجوت» و«المركيت » وهـم ما هُم شدةً ودهاء ؛ يظنون أنهم خالعون عنهم نيرِ العُبودية الذى فرضه عليهم « كابول خان » ، يشنّون عليه الحرب مرة ويحيكون له الدسائس أخرى .

ويخرج « يسوجاى » يـومًا إلى شاطئ نهر « الأنـون » يتريّض ، وقد امتطى صهوة جـواده وحمل صقره على ذراعه ، فإذا هـو يقع بصره على زعيـم مـن زعماء « المركيت » هـو « يـك شـلاو » وإلى جنبه عـروسـه «هولون » . وأُخذ «يسوجاى » بجمال « هـولون » وهالَه حسنُها . فعاد أدراجَه يستنفر أخـوَين له خشيةَ أن يفلـت منه « يك شلاو » وعـروسه «هولون » . وعاد الإخوة الثلاثة يستحثُّون جيادهم إلى حيث قَبع « يك شلاو » وزوجُه ، يريدون بهما شرًا .

وما إن لمح « يك شـلاو » « يسوجاى » وأخويه يسرعـوْن إليه حتى عرف ما يبيِّتونـه له ، وما كان يملك أن يَصْمد لهم . عنـدها فكّر في أن ينجو بعـروسه مـن ذلك الشر المحيط ، فـالتَفت يبحـث عن مخبـأ فلم يجد ، وأعجله خصومه عن أن يدبّر أمره أو عن أن يحمل معه زوجه على فرسه ، ورأت هـى الشرّ يدنو من زوجها رويـدًا رويدًا ، ورأت فراره دونها فيه منجاة له وإبقاء على حياته ، فتضرّعت إليه أن يُسرِع فيهرب ، وناشدته أن يفعل ، ثم خلعـت عنها قميصها ودفعته إليه رمزًا لما بينهما

من رباط جامع ، ووعدته إن هـى نجت فهى لا شك لاحقة به ، وإن خانها الحظ فلـم تستطع به لحاقًا ، وكـان لابد له أن يتـزوج ، فعليه أن يُطْلق اسمها على تلك العروس التى سوف يختارها . وقَبعت «هولون» حيث هـى تستقبل ما سـوف يسوُقه لها القَـدر ، تُعول وتَندُب جَـدَّها العاشـر . ومضى « يك شـلاو » على جواده ينهب بـه الأرض والإخوة الثلاثة في إثره ، حتى إذا يئسوا من اللحاق به عادوا أدراجهم إلى حيث استقرَّت « هولون » .

* * *

وحمل الإخوة « هولـون » بعد وعد ووعيد ، وبعـد أن لم تجد مناصًا من أن تـذهب معهم ، وبعد أن رأت أن الحيلـة قد تُغنى حيـث لم تُغن المقاومة . ولكـنّ القَدر جرى بغير ما قـدَّرته « هولون » ، وإذا هـى بعد أيام زوج لـ «يسوجاى» ، وما كانت تملك من أمرها شيئا .

ولم يَفُتْ « يسوجاى » أن الزعيم المركيتى سوف لا يَنسى ما كان من اغتصاب لزوجتـه ، وما فاته كـذلك أنه سوف يحرِّك لهذا الأمـر قبيلته «المركيـت » التـى تنحـدر مـن سُلالـة « التنـدرا » المعـروفين بـالشـدة والبَطش ، وما فات دهـاءه أنّ معاجلة القوم قبل أن يعاجلـوه أقوى له وأسلـم ، ومن الخير أن ينهـض لهم قبـل أن يستعدوا ، ومـن الخير أن يأخذهم على غرَّة فيلقى عليهم درسًا بعد درس ، ليخافوه ويرهبوه .

من أجل ذلـك جهّز « يسوجاى » جيـوشه ، ومن أجل ذلـك فاجأ «يسوجـاى» قبائل « المركيت » . وكان لـه ما كان ، فعـاد غانمًا آسرًا ،

كان فيمن أسر من « المركيت » زعيمهم « تيموجن » . وكان يوم عودته من تلك الغزوة ظافرا هو يوم أنْ وضعت له « هولون» ولداً ذكراً ، فكان له مع قومه بذلك فرحتان : واحدة للظفر ، وأخرى لهذا الوليد .

تيموجن

وما شُغل «يسوجاى» حين عاد بـالنصر والظفر ، ولا شُغل بتأهيل قومـه وترحيلهـم ، ولكنه أُنسـى هذا كلـه وذكر شيئًـا واحدًا ، ذكـر «هولون» وما بلغه عنها مـن وضعها ولدًا ذكرًا ، فما إن أدرك أن مدينة «القبـاب» بالقـرب من جبـل «دليجون بـولداك» حتـى خَفَّ ليلقـى «هـولـون» ويتطلَّـع إلى وليـده . وهنـاك فى قبـة «هـولـون» جلـس «يسـوجاى» طـروبًـا يستمع إلى النسـوة وهـنَّ يُحَدِّثنـه حديـث ولادة «هـولون» . وكـان فيما يَروينـه له بعـد أن ذكرن لـه شيئًا عما وجـدت «هولون» من عُسر وألم ، أن الوليد خرج من بطـن أمه قابضًا بأصابعه على مُضغة مـن الدم ، وكما طـرب «يسوجـاى» لسلامـة «هولـون» وسلامة الوليد طرب للذى حدَّثـه به النسوة عن هذا الوليد ، واطمأن له ، وتنبأ له مع المتنبئين بحياة مليئة بالبطش والجبروت .

وكـان «يسوجـاى» مُعجبًا بـأسيره «تيمـوجن» ، مُعجبًـا بقُوَّتـه وبطشه ، معجبًـا بما رزقه الله إياه من خلـق مكين وبنْية قوية ، يمـلأ كل ذلك عليـه نفسه ويملأ عليـه خيالَه ، فـإذا هو يطلق على وليـده اسمه ، يستوحى من هذا الإعجاب ، ويستوحى من تلك النفس وذلك الخيال .

ولقد كان للتسمية ظلٌّ من الحقيقة ، فكلمة « تيموجن » عند المغول معناها القوى الصَّلْد ، ولعلها حين أُطلقت أولاً على ذلك الأسير أُطلقت ملحوظًا فيها ذلك ، ولعل «يسوجاى » حين أطلقها على ابنه كان متفائلا له بذلك .

* * *

ونشأ الوليد فى أحضان أُمه تَغذوه بلَبنها ، حتى إذا ما حان فطامُه أخذت تغذوه بألبان الخيل والماشية ، حتى إذا ما بدأ يَدْرُج كانتَ الأم قد حمَلت بأخ له ثان .

وشَب « تيموجن » بين عشيرته يستمع إلى أحاديثهم عن الحرب والسلب . ويُصيخ إلى أقاصيصهم وخُرافاتهم ، تملأ عليه الأولى نفسه ، وتملأ عليه الثانية عقله ، فإذا هو صورة من القوم جُرأة وبطشًا إذا ناضل ، وخُرافة وأباطيل إذا حَدَّث .

وما إن قويت ساقاه على حمله وصلُب عوده واشتدَّ ساعده ؛ حتى أخذ فيما يأخذ فيه أمثاله ، فكان عليه أن يحرس الخيل فى محابسها ويعنى بعدَّتها ، ويقف على الماشية فى مراعيها ، ويخرج فى طلب الكلأ . حتى إذا ما استوى رجلاً ، شارك فيما يشارك فيه الرجال ، وسهر معهم على الجبال ليالى الشتاء القارسة وسط العواصف الثلجية الطاغية وما من مخبأ يستترون فيه ، أو نار تبعث الحرارة في أوصالهم ؛ يصبر على الجوع كما صبر على البرد ، ويَصْمد للشدائد لا يجزع ولا يلين .

* * *

ولقد نشأ « تيموجن » كما حَدَس أبوه وتنبَّأ له قوىَّ البنية فارع الطول ممتلئ الجسم صلب العود ؛ كما رُزق عقلا راجحًا وقوة حيلة وحُسن تدبير. ولقد قذف به أبوه إلى خضَمِّ الحياة قَذْفًا ، لم يَرحم شبابه الغَض ولا عُوده اليانع : شارَكَ فى السباق فغلب ، ورمى بالسهام فأصاب الهدف ، وصارع فَبَزّ ، كما شارك فى الرأىَّ فأفاد خبرة ودراية .

بهذا نشّأه أبوه فضمنه قوى البدن والعقل .

وفى إثر « تيموجن » جرى أخوه « كاسار » يحذو حذْوه ويَنْسِج على منواله ؛ ولم يكن الفرق بينهما فى السن كبيرًا . وكما رَمى « تيموجن » عَن ساعد قوىّ ، رَمى « كاسار » عن ساعد قوى . وكان « كاسار » أقوى وأشد ، ولكنه على هذا لم يشأ أن يسبق خَطْوُه خَطْوَ أخيه ، أمنًا لشرِّه وتجنّبًا لخصومته وكيده .

* * *

ولم يكن للمغول مَدارس ولا دُور للعلم كما كان لجيرانهم من المسلمين فى القرن الثالث عشر ، فما كانوا فى بَداوتهم يَفْرغُون لشىء من ذلك ، بل لقد فرغوا لحياة البادية ، فهم بين حرب أو استعداد للحرب . وعلى الرغم من ذلك فقد أفاد هذا الشعب من الحياة ، جعلها مدرسته يَلْقَن عن محنها ، ويَستملى أحداثها ، ويُفيد من تجاربه فيها ، تمنحه الطبيعة من عُنفها بـه قوةً عليها ، ومن تَقتيرها عليه صبرًا لها ، ومن وُعورتها دونه حيلة بها . عَرف ألاّ حياة لضعيف ،

فأخذ فى الكثير مما يخْلُق منه بدَنًا قويًّا ؛ وعَرف ألاَّ عيش لذليل ، فارتدَّ يُعمل عقله ويستمد ذهنه لينتزع من براثن الطبيعة ما يقوُته ، واختلفت مشاهد الطبيعة بين يديه وتحت سمعه وبصره ، تجمُد حينًا فتستحيل الأرض بحرًا من جمَد والسماء ظُلَّةً من غيم مكفهر ، فتعبس نفسه ويقسو طبعه ويُظلم خياله ، ثم تسيل بين يديه حينًا آخر فتستحيل الأرض عُشبًا مُخضرًّا وأشجارًا مُورقة ، وتنقلب السماء قبة زرقاء متألقة بنجومها ، ويمتلئُ الجوُّ طيرًا يشدو بالأنغام فتنبسط نفسه ويَرقُّ طبعهُ ويُشرق خياله ، وإذا هو مع الحالمين يحس بالطبيعة ما حوَت من جمال ، يشعر بها ويستلهمها ، ويضم إلى أنسه بها أنسًا بما يُبدع من لهو وطرب ، لا ينسى حظه من الحياة الوادعة ؛ وإذا استسلم إلى تلك الحياة شيئًا تحرَّك منه قلبه فمضى يُفسح لحُبه ويرخى العنان لعاطفته فإذا له صفحات من حُب وعشق وغرام ، معها مغامرات ومنافسات .

وهكذا أسعفت الطبيعةُ هؤلاء الناسَ بالكثير من زاد مادىٍّ وزاد روحى وزادٍ عقلى ، وإذا هم آخر الأمر شَعب يتميَّز بقوةَ الجسم وقوةَ الروح وقوةِ العقل . وإذا هو مدفوع إلى أن يُرضى هذه القُوى جميعًا ، فكانت له الفتوح التى حققها ، والنصر الذى ناله ، والخروج من تلك الطبيعة المحدودة إلى بيئات أخرى ، فانتشر شرقًا وغربًا يطوى الأرض ويطوى الشعوب طيّا .

* * *

ولقد استمع « تيموجن » كما استمعت عشيرته معه إلى المُنشدين

وهم يروون فى حَلقاتهم التى كانوا يعقدونها ويجتمع الناس إليهم فيها ، ما كان لأسرته من مجَد أزلى ، أوَليست تَنحدر من سُلالـه «البورشيكون» ـ ذوى العيون الرمادية ـ التى تمُتُّ إلى الآلهة بسبب ؟

وما كان غريبًا على القوم أن يُصدِّقوا ، فلقد نشئوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، ويؤمنون بأن الروح الخيرة تتقمَّص جسما خَيرًا ، وأن الروح الشريرة تتقمَّص جسما شريرًا ، تخرج من مرتبَة خيرِّة إلى أخرى أعلى خيرًا ، وهكذا تظل الروح فى ترقِّيها حتى تكون آخر الأمر أقرب شئ إلى طبيعة إله الخير . كان ذلك مُعتقد القوم فى الحياة ، وكان ذلك معتقدهم فى «تيموجن» . من أجل ذلك استمعوا إلى المُنشدين فزادوا تعلقًا به ، ومن أجل ذلك استمع «تيموجن» إلى المُنشدين فزاد إعجابه بنفسه وعلوًّا بها .

وكما كان « تيموجن » يستمع إلى هذا اللون استمع إلى غيره ممّا لَفَته إلى نفسه وهيأه لحياة جادة . فلقد كان للقوم أُرجوزة سائرة يتغنّون بها ، أُرجوزة أشبه شئ بالملحمة تَنتظم حياة سَلفه : تنتظم بلاءهم فى الحياة ، ما كان لهم وما كان عليهم ، وإذا هى تعرض حياة جَدّه «كابول خان» وما كان منه مع إمبراطور « الخطاى » الذى كان ينازعه السلطة والجاه ، حين جَذبه من لحيته ذليلاً مهينًا ، كما تعرض لما فعله هذا الإمبراطور بجدّه حين دسَّ له السم فقضى عليه .

وإذا عرضت الملحمة ما كان من حياة الجد ، انتقلت تعرض ما كان من حياة العَم « طغرل خان » الذى عاش زعيما لقبيلة « القرايطة » تلك

القبيلة التى عُرفت بالبطش والجبروت بين بدو صحراء « الجوبى » .

تعرض الملحمة هذا كلّه ويسمعه الناس ويسمعه « تيموجن » فإذا هو فَخور بجَدّه ، فَخور بعمه ، فَخور بأبيه « يسوجاى » ، فَخور بأنه من تلك السلالة التى تنتمى إلى الآلهة ، وإذا هذا الفخر يملأُ قلبه زهواً ، ويملأ نفسه أملا ، ويملأ خياله تعلقًا بذلك الجاه المأمول والسلطان المرتقب .

ولعل هذا هو الذى حبَّب إلى نفس « تيموجن » أن يجلس إلى الحكماء والإخباريين ، وكان عندهم علم الدول المجاورة ، يستمع إليهم فيُضيف إلى هذا الذى أزكى زَهْوَه ما يُزكى بصره ويُزكى خبرته ويحُيى مَعرفته ، فإذا هو على علْم بالأرض التى يعيش عليها ، وعلْم بالأرض التى يعيش عليها جيرانُه ، وإذا هو قد عَرف تاريخ الأمم بَعد ما عرف تاريخ أُمته .

عرف « تيموجن » أن أرضه إذا قيست إلى أرض « الخطاى » فلن تبلغ إلا جزءاً من مائة ، وعرف أن قومه ما أمنوا شر « الخطاى » إلا لأنهم قوم رُحّل يخَفّون من مكان إلى مكان بُعداً عن الشر وتجنّبًا للغزو ، وعرف أن قومه يحتالون لحياتهم فإن رُزقوا الفرصة أغاروا ففَتحوا ، وإن فاتت عليهم الفرصة قبعوا وتوارَوْا ، وعرف « تيموجن » أن قوّتهم فيما لهم من تفوُّق حربى وقوة على مغالبة الخصوم ، وعرف أنهم إذا استحالوا عن طبيعتهم البدوية إلى طبيعة حضرية فأخلدوا إلى مكان ، واستناموا إلى حياة المدن والعواصم فَتَّ ذلك فى عَضُدهم ،

وأوهن من قُوَّتهم ، وأضعف من شوكتهم فضاعوا في غيرهم .

وكـذلك لَقـن « تيموجـن » من هـؤلاء الشيوخ أن البيَـع والهياكـل تنشئُ الناس على الـدَّعة واللين ، وأن تلك الحياة إذا دخلـت على قومه بدَّلتهم حياة وادعة ليِّنة ، فخرجوا عن طَبعهم الأول المرهوب إلى طبع لا يُرْهب عدوًّا ولا يخيف غازيًا ، وليست الحياة إلاّ للغالب القاهر .

فى ظل هذا كله نشأ « تيموجـن » ، وبهذا كُله تثقّف « تيموجن » ، ومن هذا كُله رسم دُستوره فى الحياة ورسم الناسُ معه دستورهم .

* * *

وكان « تيموجن » كلما خطا إلى الحياة خُطـوة أحس بدَبيب القوة فى قلبه والزهو فى نفسـه ، وازداد إيمانًا بزَعامته على قومه ، تلـك الزعامة التى آلت إليه بعد أبيه « يسوجاى خان » ، يُقوِّى هذا الإيمان فى نفسه ما أصاب من خِبرة ، وما أدرك من معرفة ، وما منّ الله به عليه من قوة .

ولقد خرجَ به أبوه يومًا ، وكان لا يزال شابًّا ، إلا أنه على ذلك كان ممتلئًا حميَّة وقُوة وذكاء ، خرج به أبوه يضعه خلفه على فرسه ، وقد بدا فارع الطول عريض المنكبين ، تنساب على ظهره جدائل شعره الأحمر ، وتسطع الشمـس فيتألق وجهه الغليـظ المتجعد ، وتثور الريـاح تسفى بالـرمال ، فتهيـج عيناه المتبـاعدتـان الضاربتـان إلى الزرقـة وتغشاهما هالتـان حمراوان ، ويتراءى الفتى بين لفح الشمـس وثورة الريـح وهو مقطب الجبين مستقـر فى جلسته معتـدّ بقوتـه ، فإذا هـو قد لفـت إليه الأبصار إعجابًا وإكبـارا ، إذ لم يكن بعدُ قد بلغ أن يجلس مـن أبيه هذا

المجلس ، ولا أن يستوى كذلك معه على سرج ، ولا أن يخرج معه إلى تلك الرحلة الطويلة ، ولا غَرْو فقد كان للفتى ماض على صغر سنّه أتى فيه بما يأتى الفرسان، وفعل ما يفعله الشجعان . ولقد أراد الأب بابنه من هذه الرحلة شيئًا فوق ما كان ، أراد أن يَدْخل به إلى حياة الرجال صغيرًا ، وأراد أن يشركه فى الرأى ليُفسح المجال لعقله كما أفسحه لبدنه .

لقد كان قَصد الأب أن يُلمّ بمنازل قبيلة « أولهونود » ليحيى صلة ويجدِّد عهدا ، وأحب أن يحضر ابنُه ما بين الناس والناس بعد ما حضر ما بين الأفراد والأفراد . وحين أشرف « يسوجاى » على الحى مرّ بعجوز على باب قُبتها ، فوقفت إليه تتطلع إلى الغلام ثم قالت : «ليكونن لهذا الغلام شأن أىّ شأن ، فلقد رأيت فيما يرى النائم أن صقرًا يحمل على جناحيه الشمسَ والقمر قد حطّ على يدى ، وإخال أن هذا الحُلم قد تحقق بمقدمك ، وكأنى بابنك هو هذا الصقر الذى رأيته فى مَنامى ، وما أطمعنى فى أن يُصهر إلىّ فأزوِّجه إحدى بناتى ، وإنّا لمن قوم أغنياء أكفاء للأمراء ، هذا إلى أن بناتى وَسيمات وجميلات ، ولئن تركت لى الخيار لأختار له إحداهن اخترت له ابنتى بورتاى » .

وما وصلت إلى هذا من حديثها حتى رفعت السِّجف وطلبت إليهما الدخول ، فإذا هما أمام فتاة على حظ كبير من الجمال والفتنة ، وما إن وقع عليها نظر الفتى حتى شغف بها وعَلقت بقلبه ، وإذا هو لا يرفع بصره عنها .

ولقد جَهد الوالد فى أن يَصرف فتاه ولكنه لم يَقْو ، وإذا الفتى يطلب إليه أن يَستجيب لما طلبت العجوز ، ولكن الوالد ردّ فتاه عما سأل متعلّلا بصغر سن الفتاة . ويُنعم الفتى النظر إلى الفتاة مرة إلى شعرها المرسل ، ثم يُطيل النظر إلى قَدِّها اللدْن وإلى وجهها النضير وإلى نهَديها المكوّرين وهما يكادان يصوِّران مكانيهما تحت جلبابها السميك ، يحاول بذلك أن يَرُد على أبيه قولَه . ولكن الأب كان عن ذلك كله منصرفًا ، فهو يرى برأيه وفتاه يرى بقلبه ، وما استطاع الرأى أن يَغلب القلب ، وما كان بالأب إن يُمعن فى إبائه ، وما كان بالابن أن يتأبّى على قلبه ، ولقد ملك أن يقول لأبيه مُفصحًا ، فلم يَسَع الأب إلا أن يستجيب ، وخرج لشأنه مخلفًا ابنه فى بيت العجوز ليعرف فتاته ويرى رأيه .

وفيما كان « يسوجاى » عائدًا إلى أهله عضّه الجوع بنابه ، وأحسّ حرّ العطش على لسانه ، وقذف به السير إلى قِباب قوم من أعدائه ، وكانوا فى حفلة من حفلاتهم الصاخبة . وعلى الغريب الطارئ إذا مرّ بقوم أن يترجَّل ويُشارك القوم فيما هُم فيه . ولكن « يسوجاى » لم يشأ أن يفعل لما يعلم عن القوم من خصُومه وعداء ، ومضى فى طريقه يغالب الجوع والعطش ، فإذا هو أضعفُ من أن يقوى لهذا وذاك ، فعاد أدراجَه إلى حيث القوم مُحْتفلون ، وأخذ يُشاركهم ما هم فيه فطعم من طعامهم وشرب من شرابهم . غير أن القوم كانوا لم يَنْسوا موقف « يسوجاى » منهم ولا ما كان له معهم ، لم يُنسهم ما هم فيه

من لهو ما يحملونه له من عـداء ، فدسُّوا له السم فى الطعام والشراب ، وما خرج عنهم « يسوجاى » حتى أحـسَّ بألم السم فى أحشائه فاحتمله صابراً أياماً ثلاثة قطعها فى تلـك الرحلة المضنية ، ثم أدرك منازل قومه وهو فى الرّمق الأخير ، وهناك أخذ يُفضى إلى أهله بما كان .

* * *

وفيما كان « تيموجن » مع حَمِيَة « مونليـك» يهيئ لزواجه من محبوبته الحسناء إذا بفـارس ما كاد يبلـغ القباب حتى ترجّـل عن فرسـه عجلا يعدو هنـا وهناك على غير هُدى وهو يَصيـح باسم « تيموجـن » . ومَا كاد يخرج إليه « تيموجن » حتى تلقَّاه الفارس بهذا النبأ المروِّع ، نبأ أبيه « يسوجاى » وطلب إليه لهَفًا أن يَخِفَّ معـه للقاء أبيه ، فما أشوقه إلى أن يراه قبـل أن يخلِّف الحيـاة . وما كان أسرع مـا اعتلى « تيموجـن » ظهر جـواده ، ثم مـا كان أسرعـه إلى المضى دون أن يـودِّع حَماه ، ودون أن يقول كلمة لعروسه .

ولكن « تيموجن » ما كاد يبلغ مدينة القباب « الأوردو » حتى وجد أباه قد خلَّف الحياة . هنا أحسَّ « تيمـوجن » بالعبء الثقيل يُلَقى على كاهلـه وما حمل مثلَـه من قبل ؛ أحسَّـه فى فقد الأب فحـزن لذلـك ثم أسى ، وأحسَّه فى ذلك الفراغ الذى خلَّفه له فهبَّ يسدّ هذا الفراغ حتى أوَشك أو كاد .

غير أنه ما بلغ أن يفعل فعْلَ أبيه فى حياته حتى اضطربت عليه الحياة التى بدت صـافية ، واختلفت بين يديـه الأمور وقد تراءت مـوائمة ،

فقد استهانت بأمره عشيرته ، فهو لا يزال بعدُ فتى له أن يحكم فتيانًا لا أن يحكم رجالا وشيوخا ، ورأوا أنفسهم أغرارًا إن هم أسلموا قيادهم له ، فما الفُتوة التي تخيَّلوها فيه ، ولا رجاحة العقل التي رجحت بها كفّته كفة غيره ، ولا خبرته التي خَبروها لمن في مثل سنه بمُغنية عنهم شَيئا ، وأين ابن الناشئ من الأب الناضج ، وأين العود الغَض من العود الصلّد ؟

لهذا خرجت عليه العَشيرة لا تنتظر به ما أمَّلته فيه ، فهم أبناء ساعتهم لا أبناء غدهم ، وما يجُبون أن يخَسروا اليوم قليلا ليستردُّوا بعد اليوم كثيرا .

وهكذا قرَّ قرار القوم على أن يجتمعوا يتشاورون ، وأن يُسندوا أمرهم إلى رجل منهم له سنٌّ فيَجلُّ في النفوس ، وله بطش فترهبه القلوب ، وله جاهٌ فيُطاع . وحين اختلفوا على « تيموجن » اختلفوا على أنفسهم ، فخرج منهم نفر يبغون هذه الصفات في عشائر أخرى حين فقدوها في عشيرتهم ، وبقى نفر لا تجتمع لهم كلمة في يومهم حتى يفرِّقها عليهم غدهم ، وانطوى نفر على أنفسهم يُضمرون الحب لـ «تيموجن » ولا يستطيعون الإعلان عنه ، يدينون للسلف بما دانوا به للخلف ، وكانوا قلة قليلة .

* * *

وهكذا تفرَّقت كلمة مغول « يكَّا » واضطرب عليهم أمرُهم ، ومرَّت بالفتى أيام عانى فيها من خلاف أهله عليه ما عانى ، وامتُحن

فيها بوثـوب أعدائه به ، والأعداء نهَّازون للخلاف . ولكـن الفتى كان قـد اعتاد البـأس فاحتمـل ، وكـان قد ذاق الشـدة فلم يضعـف لها ، وصمد لما مرَّ به يهُاجم ويخادع ، ويشتـد على أعدائه ويلين لأصدقائه ، وكشفت له تلك المحنة عن بلاء كثير ، وأفاد منها عظات ، ولقن عنها دُروسا ، وطـالعتْه بصفحة جـديدة مـن صفحات الحياة كـان عليه أن يقرأها وينتفع بما فيها .

كفاح العبقرية

بهذه النفس القوية وهذا العقل الواعى ، استقبل « تيموجن » تقلّب الأيام وغدر الصحاب وتنكرُّ العشيرة ، ما وَهن ولا استكان ولا خانه وعيه ولا ضَلّ عنه فكره . لقد عرف « تيموجن » أن الشدة تُقَابَل بالشدة ، وأن المغلوب من خرج عن وعيه ، والمهزوم من يئس ، ولا مكان في خضَم هذه المحنة إلاّ للقوىّ الحازم المطمئن . وحين ملك «تيموجن» أن يطمئن مع الأهوال ملك أن يفكِّر ، وحين ملك أن يفكِّر ملك أن يتبّين كُنه أعدائه ، وأن يتعرّف ما عندهم ، وأن يتخيرّ الوسائل التى يقوى بها عليهم . وكان على « تيموجن » أن يَلُمَّ شمل أصدقائه ويُنظِّم صفوفهم ففعل ، ولقد رأوه جَلداً شجاعَ الرأى والعقل ، فهبّوا لنُصرته غير متخاذلين ، وحين اجتمع لهذا الفارس الصغير هذا الجمعُ الصغير وسط هذه المحنة الهوجاء أرهب عدوَّه وأخاف خصمه وأخذت الأمور تنقاد له ، وإذا الذين خرجوا عليه بالأمس استهانةً به قد أذعنوا ، وإذا عدوُّه الذى قد تهيأ لغزوه رَجع يتدبّر أمره ، وإذا الحياة تعود فى القَبيلة أمنًا وطمأنينة ، وإذا الراحلون عنه منهم قد عادوا إليه ، وإذا « تيموجن » زعيمهم كلهم قد اجتمعت له الكلمة عليهم .

ويخرج « تيموجن » يـومًا إلى نهر « آنون » يصحبه أخـوه « كاسار » لصيد الأسماك ، ومعهما أخَوان لهما غير شقيقين لأمٍّ أُخرى غير أمهما ، هما «بايكتار» و « بلجـوتاى » ، ويقع « تيموجـن » على سمكة كبيرة ، فيريدهـا لنفسيهما هذان الأخَـوان غير الشقيقين ، ويكاد « تيمـوجن » يَبطش بهما . وتعلم أُمه ما كاد أن يقع بين الإخوة ، فَتخفّ إليهم لتُلقى على ابنها درسًـا عنيفًا قـويًّا ، ويَستمـع لها « تيموجـن » غير راض ولا مطمئن . لقد ذكّرته أُمه بالفُـرقة ، وما نفضوا أيديهم منها إلاّ منذ حين قريب ، وذكّرتـه أمه بتربّص أعدائهم بهم وتحيُّنهم لمثـل هذه الفرص ، وهـم على الأبواب . ولكـن «تيمـوجن » لم يكـن قـد ساءه من أخيـه «بايكتار » هذا وحده ، بل قد أسـاء إليه « بايكتار » من قبل بمثله حين عدا على طائر له كان قد صاده هو فأستأثر به دونه .

وهكذا رأى « تيموجن » أن الإذعان لكلام الأم على ما فيه من خير عامّ فيه الإجحاف به والامتهان لشأنـه ، وهو ما احتمل ما احتمل ولا صَبر لما صبر لـه إلاّ لتكون لـه الكلمـة ويكون لـه الأمـر ، وها هـو ذا «بايكتار » يَسلُبـه ما عجز القوم عـن أن يَسلبوه إيّاه ، ويريـد أن يضعه حيث لا يريـد هو أن يَضع نفسه . لقد كانـت الأم فى جانب الحق حين رأت ما رأت ، وكـان « تيموجن » فى جانـب الحق حين رأى ما رأى ، فقد أحبّ « تيموجن » أن يتمثّل كلام الأم ويرعاه لو أن أخاه « باكتار » تمثل حقّه ورعاه ، ولكـن « تيموجن » لم يحُب بفطرته النازعة إلى الجاه والسلطان أن يرعى حقًّا لا يرعاه معه غيره . من أجل ذلك لم يَستجب لأمه ، وفكَّر فى الخلاص من أخيه « بايكتار » ، وبهذا صرَّح لأمه .

وخرج « تيموجن » مع أخيه « كاسار » يصعدان إلى الجبل ، وهناك أدركا « بايكتار » وهو يَرعى الخيـل ، فاستدار به الأخَوان « تيموجن » مـن خلفه و« كـاسار » مـن أمامـه يُسدِّدان إليـه سهميهما . ويقع نظـر «بايكتار » على الأخوين يتهيآن لقتلـه فيُناشدهما أخُوَّتهما له ألاّ يفعلا ، ويقـع على الأرض يحسب أنهما راحماه ، فيرمـى « تيمـوجـن » ويرمـى «كاسار » وإذا «بايكتار» صريع مضرج بدمه .

ويعود الأخوان إلى أمهما « هولـون » وملامحهما تُفصح عما ارتكبا ، فتثور بهما الأم مُؤنبـة غاضبة ، وتتجه إلى ابنها « تيموجـن » تقول له : «لا غرو ، فما هـذا بغريب عليـك ، أنت الذى نـزلت إلى الوجـود بيد مملوءة دمًـا . وما فعلت غير ما تفعلـه الوحوش الضاريـة لا تعرف فى ثَورتها أى شىء هى تفترس ، أما كان الأجدر بك أن تُوجه ضربتك إلى أعدائك « التايدجوت » بدلا من أن تُوجهها إلى أخيك ؟ » .

ولكن « هـولون » قـد فاتها أن ابنهـا « تيموجـن » لا يَغفر لخصمـه امتهانه له ، يستوى فى ذلك أن يكـون الخصم أخًا أو عدوًّا ، ولقد فاتها أن ابنها «تيموجـن » لن يقوى لخصمه الأكبر قبل أن يفـرُغ من خصمه الأصغـر ، وكيف لـه أن يمضـى للقاء « التـايـدجـوت » وهذا أخـوه «بايكتار » يريـد أن يهوّن من شأنه ، وكيف تكون لـه الكلمة المسموعة فى عشيرته والسلطان النـافذ فى أهله ، وهذا أخوه « بايكتـار » يريد أن يتنقّصَه ويهوّن من أمره؟ لقد كانت للأم سياسة وكان لابنها «تيموجن» سياسة ، وكانـت الأم تقوى عليها العاطفة ، وكان الابـن يقوى عليه الطموح . من أجل ذلك غلب ما عند الابن على ما عند الأم .

لقد كان « تيموجن » مملوءاً حقداً على « التايدجوت » ، وكان مملوءاً أملاً فى النيل منهم والقضاء عليهم ، ولكنه على هذا كان مملوءاً إيماناً بأنه لن يُكتب له الفوز على عدوّه إلاّ إذا كتب له الفوز بأهله ، ولن يكتب له النصر على « التايدجوت » إلاّ إذا كُتب له النصر على عشيرته. وضمنهم إلى جواره على الطاعة والتقدير ، فهو لهذا فَعلِ بأخيه «بايكتار » ما فعل . وكان بما أخذ به أخاه صاحب الكلمة فى قومه يخشَونه ويرون أنهم إن ناصبوه العداء فلن يكونوا أعزّ عليه من أخيه .

وهكذا وطّد « تيموجن » لهَيبته فى نفوس قومه ، ووطّد لها فى نفوس أهله وإخواته ، وعلّمهم بهذا الدرس القاسى المصيرَ الذى ينتظر كل خارج . ولعل « تيموجن » كان يحُس من أخيه « كاسار » شيئًا ، فقد مرّ بنا أنه كان هو الآخر طَموحا ، فأراد بالذى فعله أن يجعله على بيِّنة من أمره .

* * *

وحين استقرت الحياة لهذا الزعيم « تيموجن » بين قومه أخذ يفكر فى الحياة الأخرى المحيطة به ، حياته بين خصومه من حوله . وكان أشدّ هؤلاء الخصوم عليه « تارجوتاى » زعيم قبيلة « التايدجوت» ، فلقد نادى بنفسه خانًا على كل مرتفعات « الجوبى » ووديانها . ثم مضى يقلّب العشائر على « تيموجن » ويُثيرهم عليه ، يغرى من يُغرى منهم ، ويشترى من يشترى منهم ، لينهض بهؤلاء جميعًا إلى مدينة «القباب » .

ولكم ودَّ « تيمـوجن » أن يتريّـث بخَصمه حتى تكتمـل له قـوَّته ، ولكم رجا ألا يُعاجله خصمه حتى تتهيأ له هوالفرصة ، ولكن خصمه «تـارجوتـاى» لم يُمهلـه ولم يَدع لـه تلـك الفرصـة . لقـد كان هجـوم «تارجـوتاى» هجومـا مُفاجئًا ، وكانـت جموعه أكثر مـن أن تَصْمد لها جُموع « تيموجن » .

وكان على « تيمـوجن » أن يحتـال لأمره بعد أن وجـد أنه لا قِبَـل له بعدوه ، فـرحل هو أُسرتـه إلى كهوف الجبال يلُـوذ بها ، على حين أخذ أخـوه غير الشقيق «بلجـوتـاى » يقطـع الأشجار ويضعهما فى طـريـق المُعتديـن يعوِّق بها مسيرهم ، وانتحى أخـوه الشقيق « كاسار » نـاحيةً من الـربوة يُـرسل سهامـه القاتلـة على العدو الزاحـف . وما كـان همُّ «تيموجن » أن يختفى عن المعركة ، ولكن كان همه أن يتوارى عن عيون الأعداء حتى لا يقع فى أيديهم لُقمه سائغة فتذهب بذهابه ريح قبيلته ، وأراد أن يخُلى الجو لعدوِّه هـذه المرة يفعل مـا بدا له حتـى إذا ما أيـأسه البحث عنه عاد أدراجه ثم يعود هو إلى الظهور يدبِّر لأمره والانتقام من عدوه .

وكـان « تيموجـن » مُؤمنًـا بما يـؤمن بـه قـومُه ، فـاتجه بوجهـه إلى الشمس وهى تميـل إلى المغيب يسأل الآلهة الخلاص ، يُريـق اللبن على الأرض ويُدقّ صـدره بيده مـرات تسعا ، وهـو يُنذر نـذره الأكبر بأن يُقدِّم هـو وآله مـن بعده إن نجحوا قـرابينهم . ومـا كان « تيمـوجن » يقوى لغير هـذا ، وما كـان من الـرأى أن يعرِّض «تيمـوجن » نفسـه

للهلاك ، وما كان من الرأى أن يخرج للحرب فيصمد لها بين قومه فيعرِّضهم معه للهلاك ، ولقد رأى أن القوم مُنتهون وراجعون إن لم يعثرُوا له على أثر . من أجل ذلك تلبَّث فى الجبل أيامًا تسعة .

وما أغنت سهام « كاسار » وما أغنت تلك العوائق والأشجار ، وانتشر قوم « تارجوتاى » بين القباب يبحثون عن « تيموجن » . وكانوا أعقلَ من أن يعودوا دون أن يَقَعوا له على أثر ، وكانوا أعقل من أن يدعوا هذه الفرصة تُفلت من أيديهم . من أجل ذلك جدُّوا فى البحث وراء «تيموجن » لا ييأسون ولا يَمَلُّون .

ولقد ضاق « تيموجن » صبرًا بمكانه ، وضاق صبرًا بالجوع والظمأ ، فخرج من كَهفه يتلمَّس شيئًا من قُوت وشيئًا من ماء ، فإذا هو بين يدى أعدائه . وما كاد أعداؤه يَقعون عليه حتى وضعوا القيود فى يديه وقدميه والنِّير على قفاه ، ثم قادوه بين أيديهم مهللين ومن خلفهم الأسلاب التى غنموها .

وأودع « تيموجن » السجن فظَلَّ فيه ، وما قَيَّد عليه خُصومه فكره وإن كانوا قد قَيَّدوا عليه حركته فبقى حيثُ هو فى سجنه يفكر فى مصيره ، يفكر فى أهله وما حلَّ بهم من بعده ، يفكِّر فى قومه وما انتهى إليه أمرهم ، يفكر فى سلطانه الذى خرج من يده . وما كان لمثله أن يستسلم ، وما كان لمثله أن يهَون ، ومن أجل ذلك عزم على الفرار ، وشرع يدَبِّر لهذا الفرار ، يتحينَّ الفرصة له غير مُبال ما سيكون .

ويَبيت القوم فى عيد ، يخرجون له جميعًا ويتركَونه لحارسه يرعاه ،

ويَسود الظلام ، ويَغْرق القوم فى شرابهم وصخَبهم ، وتَغْفُو عين الحارس شيئًا ، فيَخلع « تيموجن » النِّير عنه ويهْوِى به على الحارس فيصرعه ، ويخرج من سجنه هاربا .

غيرَ أنه ما أبعد شيئًا عن قبابهم حتى أخذ الفجر يُرسل ضوءه فيكشف عنه ، فأخذ يتلمَّس مكمنًا بعد مكمن ، وإذا أعداؤه فى إثره بعد أن علموا أمره، فلم يَملك إلا أن يقذف بنفسه فى جدول ، وظلَّ تحت الماء يرقُبهم وهم لا يَرَوْنه ، غير أنه أحسَّ أن واحدًا منهم قد شعر به فوَجل ، ولكن سرَعان ما سرِّى عنه حين رأى هذا الذى فطن إليه لم يكشف للقوم عنه ولم يدلهّم عليه .

عندها حَمَد « تيموجن » إلهه ، وظل قابعًا فى الماء حتى مَضى القوم عنه ، ثم خرج ليمضى فى طريقه ويلحق بأهله . ولكنه كان مُثْقل الخطو لثقل القيد فى قدميه ، وكان لا يأمن إن هو مضى على تلك الحال فى وَضَح النهار أنَ يُلاحقه القوم فيقعوا عليه . وهنا ارتدَّ إلى نفسه يتدبَّر ما كان من ذلك الرجل الذى رآه ولم يُنذر به قومه ، وأحس أُنسًا منه إليه ، وأحس أنه صديق يجب أن يعتمد عليه فى محنته تلك .

ولكن أنّى له أن يفعل ، وكيف له أن يخلو بهذا الرجل ليسألَه عَوْنه ؛ غير أن الجرىء لا يفقد جُرأته مهما اختلفت عليه الأحوال ، فما بالُه لا يسعى فى إثر القوم ، وما باله لا يلحق بالرجل مهما كلفه ذلك ، وهل هو لاقٍ غير الموت إن فشل وهو لا يخشى الموت ؟ من أجل ذلك عَدل « تيموجِن » عن المضىّ فى طريقه إلى أهله ورجع يتبع القومَ على

كثب ، ولا يَعنيه غير هذا الرجل فظل يُلاحقه ببصره ، حتى إذا ما نزل القوم مع الليل وأوَوْا إلى قبابهم لم تَفُتْه قُبه هذا الرجل . فإذا ما هجع القوم اقتحم على هذا الرجل قُبَّته وفى عَينيه بريقٌ ينمّ عن عِرفانه للجميل ، وينمُّ على ما يحمل من بأس .

وكاد الرجل أن يَفزع وكاد أن يصيح ، غير أنه كان يرحم ذلك الأسير ويُكْبِره . من أجل ذلك قام إليه فكسر عنه قيوده وهو يهمس في أُذنيه : هَلُمَّ معى فلو رآك القوم عندى قتلونى معك . وخرج الرجل بالأسير «تيموجن» إلى عربة قد تكدَّس عليها الصوف وأمره أن يدُس نفسه بينه بعد أن زوَّده بقليل من الطعام ، وبعد أن أمدَّه بقوس وقليل من السهام .

وكان القوم فى شك من فرار الأسير عنهم ، وكانوا يخالون أنه لم يبعد عنهم ، فهبُّوا مع الصباح يبحثون هنا وهناك ، يفتشون ويمعنون ، وكان فيما فتشوا تلك العربة التى اختبأ فيها « تيموجن » جسُّوها بأيديهم وجسُّوها برماحهم بعد أن عجزت أيديهم ، فإذا الرماح تُصيب « تيموجن » فى بعض جسمه ، ولكنه احتمل طعنات الرماح صابراً لم يتأوَّه ولم ينبس بكلمة على الرَّغم مما أصابوه به من جُرح عميق فى ساقه ظل متأذيًا به طيلة حياته .

وما كاد القوم ينصرفون عنه ويعودون لشأنهم ، حتى خرج «تيموجن » من مخبئه فوجد المكان خاليًا ، ووجد الجواد إلى جوار العربة ، فشدَّه إليها ومضى بها يشُق الطريق مُسرعا إلى موطن قومه .

وما إن بلـغ « تيموجـن » منازل قومـه حتى وجد القـوم قد تخلَّـوا عن أهله ، وحتى وجد أسرته قد أنهكتها الحياة ليس لها ما يسُد رمقها ولا ما يقوم بأودها ، تعيش على مايقع لها مـن صيَد البر بعد جَهد جهيد وكَد شديد، ثم هى ليس لها من الخيل إلاّ جياد تسعة .

ومـن قبـل أن يـدرك « تيمـوجـن » أهلـه كـان لصـوص مـن «التايدجـوت» قد عَدَوْا على تلك الجياد التسعة فنهبـوا منها ثمانية ، ولم يتركوا لتلك الأسرة غير جواد كان « بلجوتاى » قد خرج به إلى شعاب الجبل جـاداًّ فى البحث وراء الفئـران ليضمن القـوت لأهله ، كما كـان «كاسـار » قد ذهـب هو الآخـر إلى النهر يتلمـس فيه السمـك . وعاد «بلجوتاى » وعاد » كاسار » وإذا عـودتهما مع عودة أخيهما «تيموجن » وإذا الثلاثـة يستمعون لهذ العُدوان الجديـد ، وما كانـت الأسرة تقوى على أن تشترى جياداً عوضاً عما فقدت ، ولا فى مقدورها أن تصبر على تلك الحال . وهمَّ « بلجوتاى » أن يلحق باللصوص، كما أراد «كاسار» أن يكون هذا لـه ، ولكن « تيموجن » رأى أن هذا واجبـه وعليه القيام به ، ومـا كان قـد ظفر بشـئ من الـراحة بعـد تلك الـرحلة الطـويلة الشاقة .

وخرج « تيموجن » في إثر اللصوص على جواده بعد أن تزوَّد بقليل مـن الزاد ، ومـرَّ به يـوم ، وطالعـه اليوم الثـالث وهـو على حال مـن الإعياء ، يحملـه فرس مكدود قـد أضناه السير ، وسوف لا يقـوى به على مواجهة المغيرين من « التايدجـوت » ، إن هم بدوا له على خيل قد

أخذت قسطها من الراحة ، يُستبدل بها غيرها مع كل رحلة . وفيما هو يسير فى يومه الثالث وقع على شاب يقود فرسًا ، فأخذ يسائله علّه يظفر منه بشئ يعرف منه خبر هؤلاء اللصوص الذين سرقوا جياد أهله . وكان عند الفتى عِلْم عن هؤلاء اللصوص ، فلقد وصف له الخيل فإذا هى هى ، وأخبره بعددها فإذا هو هو . ورغب الفتى فى أن يَصحب « تيموجن » فى البحث عن ضالته ، وقاد الفتى « بورشو » صديقه الجديد « تيموجن » إلى مرعى قريب حيث قدم له جوادًا قويًّا مكان جواده المتعب ، ومضى الاثنان فى إثر اللصوص . ومَضت على الصديقين أيام ثلاثة انتهيا بعدها إلى مَرعى قريب من منازل «التايدجوت» وإذا فيه الجياد الثمانية ترعى إلى جانب جياد «التايدجوت» . وما كادت تقع على الجياد الثمانية عينا « تيموجن » وصديقه «بورشو » حتى خفّا إليها وساقاها أمامهما تَعدو .

وعلمت « التايدجوت » علمهما فخفّوا فى إثرهما ، يتقدّمهم فارس منهم على فرس له أبيض ، وقد أمسك بحبل ينتهى بأنشوطة يحاول أن يعلق بها «تيموجن » وصديقه . وقدَّم « بورشو » صديقه « تيموجن » أمامه ، وطلب إليه أن يمضى بالخيل على أن يتخلّف هو قليلا ليشغل القوم . ولكن «تيموجن » أبى على صديقه « بورشو » ما طلب ، وأصرَّ على أن يمضيا معًا . وتابع الصديقان سيرهما إلى أن أذنت الشمس بمغيب ، وإذا الفارس الذى كان في إثرهما على قاب قَوسين أو أدنى منهما ، وخشى «تيموجن » أن ينال صديقَه أذى وأن يُؤسرَ دونه ،

فصَعد فى أول رَبوة لقيهـا ثم أحكم سهمه فى قوسـه وسدّده إلى خصمه فأرداه قتيـلا . وما إن رأى القوم ما حـلّ بطليعتهم حتى عمّهم الـذعر وخافُوا المكيدة فلووا » أعنّة خيلهم وانقلبوا راجعين .

ومضى الصديقـان فى طريقهما والخيلُ أمامهما ، وإذا هما مـع الفجر قُرب مخيم «بورشو » ، وتلّقاهما والد « بورشو » فرحًا . وما إن استمع إلى ابنه وهو يقُـص عليه قصة نَجدته لصـديقه المغولى وما كـان من أمر «التايدجـوت » معهما حتى أوسع الأب ضيفَه « تيموجـن » كرمًا ، ولما همّ « تيمـوجن » أن يـرحل زوّده بالكثير مـن الطعام ، كما أهـدى إليه صديقه « بورشو » جلد سمور هدية .

وعاد « تيموجن » إلى أهله يسوق الجياد الثمانية ، فكان لأوبته ظافراً غانما أثر أى أثـر ، تلّقاه أهلُه بالفخر ، وتلقته عشيرتـه بالإكبار . وإذا ثقة القوم بالزعيم تملأ النفوس ، وإذا اطمئنانهم إلى رجلهم يُعاودهم ، وإذا هم جميعًا ملتفون حوله ، وإذا من شرّد منهم عليه يعود إليه ، وإذا هم مرة أخرى تحت إمرته وفى سلطانه .

وهكذا كتبـت الحياة مـرة ثانيـة لـ « تيمـوجن » وتـربّع على عـرش الزعامة من جديد ، وأخذ يفرض العُشور على قومه كما يفعل الزعماء . ولقد جرى القوم على أن العتاد والدواب ملك لأصحابها إلاّ إذا ادعاها الخان لنفسـه ، وما يضيرهـم عندهـا أن يُسلموهـا إليه إن كـانت فيـه الكفاية لحمايتهـا والذود عنها . ولقد دل « تيموجـن» بما فعله حين عاد بالخيـل على تلك الكفاية ، فما بـالهم لا يُسلمون إليه كل هـذا ، ففعلوا

راضين مطمئنين . وأنس « تيمـوجن» بـأنه قـوىّ فَعزّ ، وأنـس قومـه بعزّته فـزادوه تأييدًا وزادوه خضوعا ، وأحسّت القبـائل المُجاورة هذا الذى نـاله « تيموجن » مـن تأييد وهذا الـذى أصبح فيه بين قومـه من إعزاز فرهبوهم وخافوهم .

* * *

وشغل « تيموجن » عن خطيبته « بـورتاى » منذ خلّفها ، لم يختلف إليها ولم يعـرّج بمنازلها ، شَغلته تلـك الأحداث كلها ، وشغلتـه هذه الخطوب المتعاقبة ، ولكن هذه الأحـداث وتلك الخطوب لم تَشغله عن أن يفكِّر فيها وأن يَذكر أنها فى انتظار أوْبَته .

وقَطعت العروس على فراق عريسها أعوامًا أربعة بلغت معها عامها الثالث عشر ، فنضجـت واكتملت وتجلّت أُنوثتها وبَدت فـاتنة . وما كانت «بـورتاى » بمنأى عن أخبـار الزعيم الشاب طيلـةَ هذه الأعوام الأربعة بل كانت موصولةً بها ، يُثيرها ما له من إقدام فتزُهى ، ويهُولها مـا ألمّ به مـن بأس فتهلـع ، ويَبلغها عنـه ما وقـع فيه مـن كيد فتَحـزن وتقَلق. لقـد عاشــت «بورتـاى» ترقُـب عودة الـزعيم المُتّقـد عاطفـة وفطنة، وكانـت حيرى قلقةً تخاف أن يحدُث ما يسوؤهـا فيه ، وتخاف أن يحدُث ما يسوؤها فى نفسها .

وكما كـانـت « بـورتـاى » مشغـولةً بعـريسهـا « تيمـوجـن » كـان «تيموجـن» مشغولا بعـروسه « بورتـاى » ، وكما كانـت هى تخاف أن تخطفه منها امرأة، كان هو يخاف أن يخطفها منه رجل . من أجل ذلك

ما كاد «تيموجن» يُظلّه الأمن ويستشعر الطمأنينة حتى خرج إلى حيث تنزل «بورتاى» على رأس موكب يضُم مئات من الفرسان وهم فى أبهى حلّة وأجمل زينة ، عليهم الثيابُ الجلدية الفَضفاضة متّشحين بفراء الأغنام، وقد ازّينت صدورهم بدُروع من الجلد المقوَّى الملوّن بألوان زاهية براقة والرماح المُشرعة قد شُدَّت إلى ظهورهم ، وجُعبات السهام المملوءة قد ثُبِّتت إلى جنوبهم ، وقرَب الماء قد عُلِّقت إلى سرُوجهم ، وقد طلَوا وجوههم بالشحم اتقاء البَرد ، وسار الموكب فى نظام مرسوم بديع تتقدّمه الطبول على جياد مختلفة الألوان . وعندما وصل الرّكب إلى خيمة « بورتاى » خفّ الوالد فى أُسرته ، فرحين مزهوين بلقاء الغازى مرحّبين بمقدمه بعد أن كادوا يفقدون الأمل فى رجوعه .

ونزل رجال « تيموجن » عن خيلهم وتركوا للخدم ونفر من أهل العروس رعايتها ، ثم تقدموا إلى السرادق المنصوب لهم ، وجلسوا فيه صفوفًا إلى جوار شيوخ القبيلة يشربون ويُسرفون فى الشراب كما هى عادة القوم . حتى إذا ما لعب الشراب بالرؤوس أخذوا فى مزاحهم العنيف ، فكنت ترى أحدهم وهو يَشُدّ صاحبه من أُذنيه كأنه يريد أن يقتلعهما اقتلاعا ، كما ترى آخر وهو يمدّ فى شدقى زميل له وكأنه يُفسح في حَلقه ليتسع لحظّ أكبر من لَبن وخمر . حتى إذا ما شَبعوا من هذا المُزاح المرّ أخذوا فى رقصهم البربَرى يُملى فيه عليهم طبعهم الصاخب .

وإنى لأكاد أستوحى من موسيقى « ألكسندر بورودين » فى

مقطوعته الخالـدة رقصات بولوفتسيـا أو ـ رقصات القفجاق ـــ ضمن أوبرا الأمير إيجور، مـا كان لهؤلاء المغـول من مـوسيقى ورقـص . فما يُبعد القفجـاق عن المغـول كثيرًا ، تكاد تجمع بينهـم بيئة وتجمـع بينهم حياة ويصل بينم موروث ، إذ هم من القبـائل التى كانت تنزل أواسط آسيا ؛ ثم ما تكاد تبعد أحـداث قصة أوبرا الأمير إيجور عن الحقبة التى أظلّت تيمـوجن ، فقد وقعـت هذه الأحداث حـوالى عام ١١٥٠ م ، ومـا يدرينـا فلعل هـذه الألحان التى صـوّرها « بـورودين » للقفجـاق صورة من تلك التى كانت للمغول تحاكيها فى قليل أو كثير . . . لست أدرى .

وفيما كان الـرجال آخذون فى لهوهـم ورقصهم اصطفّـت النساء فى جلستهـن المعهودة ، يَعزفـن على كمان ذى وتـر واحد ويُغنّين . وقـد انتحـى نفـر من أهـل العـروس مـع الخَدم يـذبحون الماشيـة ويُعـدون الطعـام. وبقى القـوم على حـالهم تلـك من لهو ومـرح وشرُب وأكـل يومين، حتـى إذ ما دخلوا فى يومهـم الثالث ازّينت العـروس ولبست ثَـوب العُرس الفضفـاض ، تتدلىّ منـه القطع الفضيـة ، كما تتدلىّ مـن جدائلها التمائم مَصونةً فى قطع من الجلد فُصل ما بين أعلاها وأسفلها، وقـد توّجـت رأسها بما يشبـه التـاج المقلوب المصنـوع من لحاء شجـر البتولا، ثم كسى بالحرير المطرز . هكذا بدت العروس وهى تجلس إلى جانب والدها بين يدى الموثّق يُمضـى العقد على ما ألف القوم . وما إن حان حين الـرحيل حتـى أخذت العروس تَعـدو بين الخيام وفى إثـرها

زوجها يعدو خلفها ، وتَعترضه أخواتها وكأنهن يَدفعنه عنها ، بقيةً من حميّة تشير إلى ما عند القوم من حفاظ على المرأة . ثم يلحق «تيموجن» بعروسه «بورتاى» فيحملها بين يديه ويضعها على جواده ليعود بها إلى أهله ، يحُيط به فرسانه بعد ما أنسوا وطعموا وشربوا . ولكن الفارس قبل أن يرسل بعروسه يحيط به أهل العروس يحملون رداء ثمينًا من فراء السمور هدية منهم إلى أمه .

* * *

بهذا حقّق « تيموجن » أملاً من آماله فهدأ شيئا ، غير أنه لم يُمعن فى الهدوء ولم يَستطب الدَّعة ، فهو يعلم أنَّ من حوله أعداء يتربصون به الدوائر ، ويعلم أنهم مُوافونه إن لم يكن اليوم فغدًا . يعلم أن «المركيت» لم ينسوا له خطف أبيه « يسوجاى » لأمه « هولون » من زوجها . وكان يعلم أن « التايدجوت » وزعيمهم « تارجوتاى » لن ينسوا له فراره من أيديهم بعد أن قَتل الحارس ، كما لن ينسوا له قتله لقائد السريَّة التى همَّت باللحاق به واستخلاص الخيل من يديه .

ذكر هذا كله « تيموجن » فأنسى فَرحته بعروسه وهو فى مُستهل بنائه بها ، وتمثل له ما عليه من واجب نحو نفسه ونحو قومه . ثم نظر فى أمره فإذا عليه أن يُعدَّ جيشًا قويًا من المغول يردّ به أعداءه ويدفع عن نفسه وقومه . ولكن أنّى لهذا الزعيم الناشئ «تيموجن» أن يفعل ، وقبيلته قليل عددها ، وهى على ذلك لا يزال منها نفر منصرفة قلوبهم عنه .

من أجـل ذلك فكّر « تيمـوجن » فى أن يعـود إلى الصداقة القـديمة التى كـانت بين أبيه و « طغـرل خان » زعيـم « القرايطة » فيجـددها ، و«القرايطة » كما يعلمهم « تيموجـن » قوم أشدَّاء كُفاة فى الحرب . وما كاد « تيموجـن » يفكّر حتى نفَّذ مـا فكر فيه ، فحمل معـه ذلك الفِراء الثمين الذى أُهدى إلى أُمـه منذ حين قريب ، والذي أهـداه إليها قوم « بورتـارى » زوجه . ومضى إلى طغـرل خان » كما يمضى الصـديق إلى الصديـق يحُيط به حـرسه وفرسـانه. وأعجـب « طغرل خان » بـذكاء «تيموجن » وأحب فيه جُرأته ورأيه . وما طلب «تيموجن » من صديق أبيـه العون ، فيقـف منه مـوقف السـائل وقد يـردُّه فيذلّ وتهون عليـه نفسه، ولكنه عرض على صديق أبيـه عونهَ واستعداده لمناصرته ، فكَبرُ فى عينى « طغرل خان » وبادله عونًا بعون.

وهكذا عاد » تيمـوجن » بما شاء ، عاد وقد ضمـن » القرايطة » إلى جانبه إذا أغار أو أُغير عليه ، عاد لا يحفل بأعداءه من قبائل « النايمان » و«الأويجور» و « الأتراك » ، فلقد أصبح بينهم وبينـه هذا الحاجز المنيع من «القرايطة » .

وكأن « تيمـوجن » كان على علـم بما سيقع ، فما هى إلاّ أيـام قلائل حتى هبَّت فزعةً من الفجر « هوركشين » خادمة « هولون » وكانت قد هرمـت ، تُنذر سيـدتها بجيوش لا قبِل لهم بها تـزحف إليهـم زحفا . واستيقظت «هولـون » تحسبهم « التايدجوت » عـادُوا لينكلّوا بهم مرة أخرى، فهرولت هى وخادمتها إلى حيث قومها تُنذرهم . وهبَّ القوم

وعـرفـوا أنها الحرب فخفُّـوا إلى أسلحتهـم وجيـادهـم . وفيما القـوم مشغولـون بهذا من أمـرهم وعلى رأسهـم زعيمهم « تيمـوجن » ومـن خلفه أُمه « هولون » إذا بالمغيريـن يكتنفونهم من كل حَدَب وصوب ، وإذا هـم قبـائل « المركيت » جاءوا ليثـأروا لأنفسهم فيختطفـوا واحدة مكـان واحدة ، وليـس لهم هـّم غير ذلـك ، وكان همّهـم أن يَختطفـوا «بورتاى » زوج « تيموجن » . وما هى إلاّ جولة ـ وعلى غِرة من القوم ـ حتـى كانت «بـورتاى » بعدها فى أيـديهم ، فأسلموهـا إلى أخ لزوج «هولـون » الأول الذى سلبه « يسوجـاى » زوجه . وما كـادوا يفعلون حتى رجعوا فرحين بنصرهـم ، فرحين بأسيرتهم ، تاركين « تيموجن » يتحرَّق غيظًا .

لقد عزّ على « تيمـوجن » ما أُصيب به فى « بورتـاى » . عزَّ عليه أن تختطف من بين يديه هكذا فى غَمْضـة عَين وما استطاع أن يذود عنها . ولقد كـان «تيموجـن » يعلم مـا عندهـم من قـوة وعتاد ، ويعلـم أنه بجموعـه القليلة لـن يغنى شيئا . مـن أجل ذلـك فكر « تيمـوجن » فى الاستنجاد بحليفـه « طغرل خان » ، وما كـاد يعرض عليه أمـره حتى خفَّ لعـونه وزوّده بفـرقة قـوية مـن الفرسـان ، ومضى « تيمـوجن » بـرجـالـه ورجـال «القرايطـة » ، لم يتلبَّـث ولم يتريَّـث نحـو مَضـارب «المركيت » فدَهموهـم فى قبابهم ونكلوا بهم ، وأسرعت « بورتاى » إلى زوجها « تيموجـن » حين شعرت به وسمعت صوتـه ، فحملها عائدًا بها إلى قومه بعد أن ألقى على « المركيت » درسًا لن ينسوه

وردّدت الآفاق صدى تلك الغزوة ، فملأت الأسماع ، وتحدّث بها الناس يُضفُون على الزعيم البطل ما شاءوا من قوة وعزم ، فإذا «تيموجن » حديثُ الجميع ، وإذا القبائل تهرع إليه تنضم إليه وتنضوى تحت لوائه ، وإذا جيشه ينمو ويزيد ، وإذا قوام هذا الجيش بعد قليل ثلاثة عشر ألف فارس أعدّ لهم « تيموجن » خيرة القواد فدرّبوهم ، واختار لهم نفرًا من المحنّكين فلقّنوهم أسرار الحرب ، فأصبح له جيش قوى مرهوب يملك العدد الكثير والعتاد الكبير .

* * *

وفيما « تيموجن » راحل بقومه رحلةَ الصيف طلبًا للكلأ والمرعى ، قد أعدّ عَرباته وشدّها بعضها إلى بعض ، واندفعت الثيران تجرها ، والخيل والماشية من حولها ، والفتيان فى لهوهم المعهود ، والفرسان على ظهور خيلهم يدورون بالعربات ، وقد انتشر منهم نفر فى الآفاق وعلى رؤوس الجبال يرقُبون العدو حتى لا يباغتوهم . وفيما هو فى ذلك مدركًا بقومه واديًا من الوديان الفسيحة جاءه النبأ بأن « التايدجوت » يَنحدرون إليه فى جمُوع كثيفة وفى سرعة خاطفة .

لقد هبّ إليه خصمه « تارجوتاى » بجيش يبلغ الثلاثين ألفًا قد أعده إعدادًا قويًا يريد ألا يوطّد له فى الأرض ، فيقوى ساعده وتشتد شوكته ويستفحل أمره فلا يقوى عليه ولا يثبت له . من أجل ذلك خرج «تارجوتاى» يريد أن يفاجئ « تيموجن » وأن يأخذه على غرّة .

وكاد أن يبلغ « تارجوتاى » ما أراد ، وكاد أن يخرج الأمر من يدى

«تيموجن» لـولا أن هداه فكره الخاطف إلى وضـع حربى خرج بـه من المعركة منتصراً.

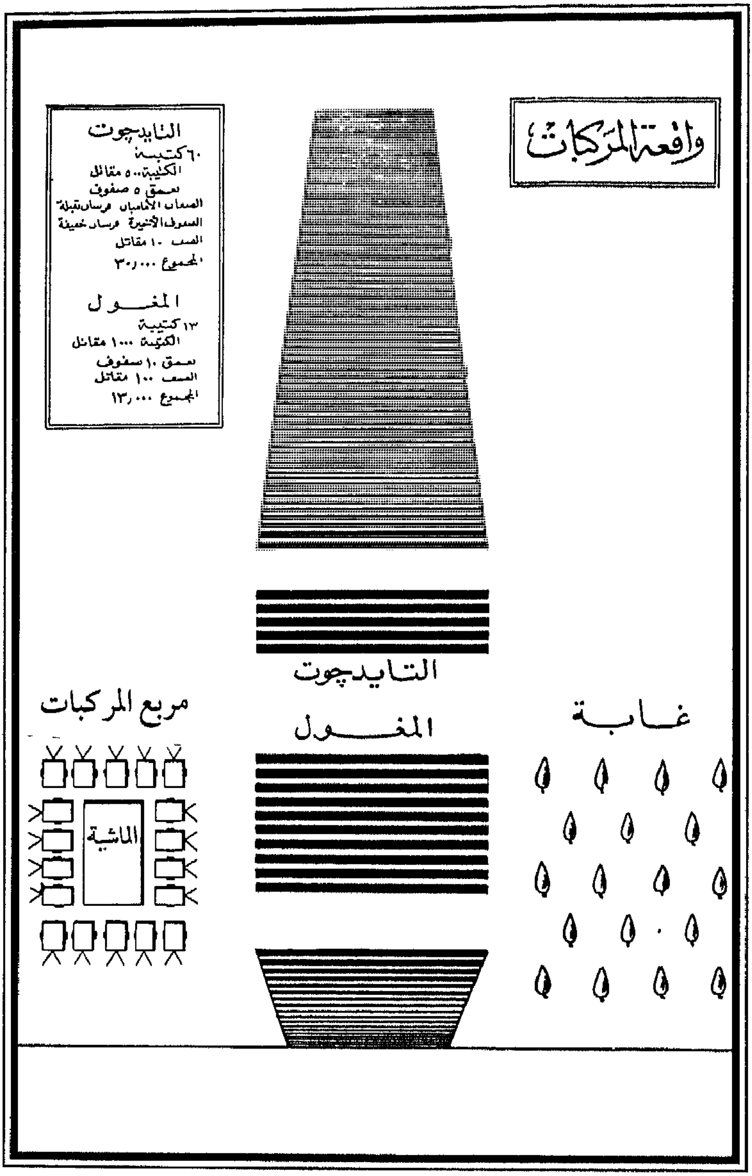
لقد جمع « تيمـوجن » المركبـات على هيئة مربَّـع مُفرغ ، حشـد فيه الحيوان وجعل فيـه النساء والأولاد بعد أن زوَّدهم بـالسهام والنبال ، وأمرهـم أن يرمـوا العدو حين يشرف . ثـم نظر « تيمـوجن » فـإذا فى جانب مـن جوانب الوادى غـابة كثيفة عسير اختراقها اتخذ منهـا حماية يحمى بـه جانبه الأيمـن ، وصفَّ فرسـانه فى الفضاء الـذى بينها وبين المركبـات كتـائب بلغـت ثلاث عشرة كتيبـة ، كـل كتيبـة فى صفـوف عشرة ، وفى كل صف مائة فارس .

على هذا رتَّب « تيموجن » جنـده ، وبهذا ضمن الثبات لعدوه مهما عَنُف ، ثم أعـد « تيموجن » للهجوم حشـداً من الفُرسان يتحـرك عند أمره . وتقدم إليه عدوُّه فى ستين كتيبة ، كل كتيبة من خمسمائة مقاتل قد اصطفـوا فى صفوف خمسـة ، الصفَّان الأولان مـن الفرسـان المدرَّعين بصفائح الحديد المجدولة بشرائط الجلـد ، وعلى رؤوسهم خوذات من الصلب تتدلىّ منهـا خصل من ذيول الخيـل ، وبأيديهم حراب طـويلة ثقيلة فى رؤوسها هذه الخُصل أيضـًا . كما ظُلّلت الخيل بصفائح الحديد المشدود بعضها إلى بعض بسُيور من الجلد تُغطى صدورها وجوانبها . أما الصفـوف الثلاثة الأخرى فمـن الفرسان الخفيفة ، حملـة الأقواس والسهام القادرين على الحركة فى خفة وسرعة .

وبرزت الصفوف الثلاثة الخلفية من جيش « التايدجوت » وتقدمت

تناوش فرسان المغول ، فإذا هم يقعون تحت وابل من النَّبل لا يقَوون معه على الثبات فارتدوا مَدحورين . وزحف فرسان « التايدجوت » المدرَّعون فرد عليهم « تيموجن » بهجوم مضاد كان قد أعدّ له عشرة صفوف انقضت كالمطرقة على جيوش «التايدجوت » فارتدُّوا مهزومين . ورأى «تيموجن » أن الفرصة سانحة ليقضى على الصفوف الخلفية من جيش «التايدجوت » الذين لم يفَيقوا من أثر الضربة الأولى ، والذين أصبحوا بعد اندحار صفوفهم الأولى قد فقدوا نظامهم واضطرب أمرهم . فزحف «تيموجن » بكل ما يملك فى عزم وقوة ، فإذا جيوش « التايدجوت » تُولى الأدبار وتنتشر فى الوادى على غير نظام ، وإذا « تيموجن » يتبع الفارِّين فى كل حَدَب وصوب يقتل ويأسر . ومرّ يوم لم تُغمد فيه السيوف ولا هدأت الرماح ، حتى إذا ما انحدرت الشمس للمغيب كان النصر الحاسم لجيش «تيموجن» ، وكان الهلاك المحقَّق لجيش « تارجوتاى » من « التايدجوت » .

وعرض « تيموجن » الأسرى بين يديه ، وهو أحنق ما يكون على «التايدجوت » ، لِماَ أتوه من غدر بعد غدر وسَلْب بعد سلب . وما إن وقع عليهم بصره حتى ذكر « تارجوتاى » ومزاحمته له على السلطان ، عندها لم يملك نفسه فأمر بهم جميعًا فأُلقوا فى مَراجل الماء وهى تغلى .


واقعة المركبات
التايدچوت
٦٠ كتيبة
الكتيبة ٥٠٠ مقاتل
بعمق ٥ صفوف
الصفان الأماميان فرسان ثقيلة
الصفوف الأخيرة فرسان خفيفة
الصف ١٠٠ مقاتل
المجموع ٣٠,٠٠٠
المغـــول
١٣ كتيبة
الكتيبة ١٠٠٠ مقاتل
بعمق ١٠ صفوف
الصف ١٠٠ مقاتل
المجموع ١٣,٠٠٠
التايدچوت
المغـــول
مربع المركبات
الماشية
غـابـة

وقيعة

وهكذا كُتب على هذا الزعيم أن يخوض الحرب مرة ومرة ، وإن كان قد كُتب عليه أن يجرع مرارتها حينًا فقد ذاق حلاوتها حينًا آخر ، إلى أن كانت له تلك الوقعة بينه وبين « التايدجوت » التى خرج منها السيد المطاع الآمر فى شمالى « الجوبى » كله ، وكان جديراً به أن يحمل الصولجان العاجى فى يمينه ، وأن يمتطى الجواد الأبيض ، شأن كل زعيم وسلطان .

وصَفَت الأحوال للزعيم الشاب « تيموجن » ففرغ لقومه يُشرِّع لهم وينظم أمورهم . واتجه أول ما اتجه إلى جيشه ، فاختار له من القواد أشجعهم وأصلبهم عوداً لينشِّئوا الجند على غرارهم ، فلقد علّمت البادية «تيموجن » ما للقُوَّة من سلطان ، وأن الحق للقوى ، وأنه لا مكان فى الحياة لضعيف . من أجل ذلك قدَّر « تيموجن » الشجاعة فى الشجعان ، ومن أجل ذلك أحب « تيموجن » أن يحُيط نفسه بجند لهم هذه الصفات من عزم وقوة وحزم ، ليضمن بهم النصر على خصومه .

ونظر « تيموجن » فيما حوله فرأى ثورات مُشتعلة وحروبًا متصلة لا تهدأ لها ثائرة ، بين تلك القبائل المنتشرة فى صحراء الجوبى التى تعيش

ما بين جبال آسيا الوسطى وسور « الخطـاى » ، ثم أنعم الفكر فإذا هو عند رأى يضمـن به لهؤلاء النـاس جميعًا حياةً آمـنَ من حيـاتهم تلك ، وعيشًا أهدأ مـن عيشهم هذا . لقد انتهى « تيموجـن » إلى أنه لا بد أن يجمع القبائل المتنـاثرة على كلمة تجمعها وسلطان ينظـم شملها ، وكان «تيموجن » يطمع فى أن يجمـع من هؤلاء المتنافرين أُمـة واحدة يضمن بها توحيـد الجنس المغـولى فى وسط آسيا ، فيقضـى بذلـك على أسباب الشحناء بينهم وينهض بهم لكسب جديد .

وحين رأى « تيموجـن » ذلك رأى أنه أحق الـزعماء بهذه السيادة ، فهو ـ كما علمنـا ـ من سُلالـة الآلهة ، ومن كان في مثل منـزلته ، فليس كثيرًا عليه أن تكـون له السيـادة على قومه . ولكـن لـ « تيمـوجن » أن يرى ما يرى ، وللناس أن يروا ما يرون ، وليس ما يؤمن به «تيمـوجن» يؤمن به الناس ، والناس طـامعون فى الحكم والسلطان وهم على ذلك دائما متنافسـون ، وما نظنهم يُعطون « تيمـوجن » وهم صـاغرون . لم يغب هذا عـن « تيموجن » وهو يقلِّب الرأى ، ولم يَغـب عنه أن القوم لن يخرجوا عن دنيـاهم مختارين بل مَقهورين ، ولم يغـب عنه أنه مُقدم على شئ يُعوزه فيه صفوة من الـرجال المخلصين ، وصفوة من الرجال القادرين ، وصفوة من الرجال المحنَّكين .

بهذا قدّر « تيموجن » المُهمّة التى هـو مُقدم عليها ، تُملى عليه خبرته وتملى عليه حيـاة الباديـة . ولكنه على هذا كـان يحُس أنه قليـل العدد لا ناصر له ، وأنه إزاء أمر عظيم يحتاج إلى عون عظيم . ومن قبل هذا لجأ

«تيموجـن» إلى ربّه حين ألّمت به الشـدائد فكان له نعـم المعين . وما إن ذكر «تيموجن » تلك القوة القاهـرة التى لم يخب له معها رجاء ، والتى لا يعزّ عليها شىء ، والأشياء كلها بيدها ، ما إن ذكر « تيموجن » هذا حتى أخـذ يصعد فى الجبـل إلى قمته يخلو إلى نفسـه بعيدًا ويخلـو إلى ربه يسأله . وقديماً كان يؤمن هؤلاء الناس أنهم أقرب ما يكونون إلى آلهتهم على تلك المراقى الجبلية .

ولقـد دعا « تيمـوجن » ربـه فأكثـر ، دعـاه بأن يمـدّه بصفوة مـن الرجـال الأقوياء يجمعهـم حوله مخلصين مستجيبين ، وكـان فيما يقول من سـؤاله لربـه : « أيتها السموات التى لا تنتهـى عند حد ، حنـانيك وعونـك ، إنى لأضرع إليـك أن تُؤيّدينـى بأرواحـك الطيبة الطـاهرة لتكون لى قوة وعضدًا . كما أضرع إليك بأن تجعلى ممن على الأرض من رجال أشداء جندًا لى يشدُّون أزرى » .

وهكـذا تهيأ « تيمـوجـن » لتلـك الزعـامـة روحًـا ونفسًا ، وأخـذ يستوحـى تلك الروح وهـذه النفس ، مؤمنًا الإيمان كلـه بأنه صـاحب هـذا الحق ، ساعيًـا فى عزم صـادق إلى تحقيقه . فضـم إليه الخيرة مـن قواده يضعهم فى مَـراتبهم لوفق كفـاياتهم ، ولفّ حولـه من لهم دراية بشئـون الكفاح وخبرة بـالرأى ،فكـان «بـورشو » صـديقه المعـروف بالعقل والحكمـة صاحبه حين يجلس للـرأى بين زعماء القبائل ، وكان «كاسـار » ربّ القوس حامل سيفـه ، وهكذا خطا « تيموجـن » إلى ما يريد خطوته الأولى ليضمن لنفسه تحقيق ما يصبو إليه .

ولقد كـان لـ « تيموجـن » رأى فى القواد لا يقـل عن رأى المحنَّكين اليوم . فقـد رُوى عنه يـومًا وهـو يحكم على قـائد من قـواده : « ليس عندى مـن هو أشجع مـن « يسوتاى » أو من يـدانيه فى مواهبـه ، فهو جَلد صبور على قَطـع المسافات الطوال ، لا يـذل للجوع ولا يهون مع العطش ، يرى ذلك لنفسه ويراه لجنـوده ، إلاّ أنه على هذا ليس عندى بالقـائد الكفء ، فـالقائد الجديـر بهذا اللقب هـو من ينظـر لجنده غير نظـرته لنفسـه ، إذ ليست طـاقة النـاس سواء ، ومـن لم يضع هـذا فى حسبـانه حمَل جنـده على ما لا يطيقـون وقومـه على مالا يستطيعـون ، فخسرهـم وخسر نفسه » . وهكـذا كـان « تيمـوجن » يختـار قـواده ، يختـارهم لصفـات فيهـم تخصّهم ، أو صفـات فيهـم تخص الجند مـن حولهم ، لا يَعنيه منهم أن يكونوا شجعان فحسب ، ولكن يَعنيه منهم أيضًا أن يَزنوا الأمور من حولهم بميزانها الدقيق .

* * *

وحين نصَّب « تيمـوجن » نفسه خـانًا ، وحين أخذ يَضطلـع بتلك المهامّ الجِسام ، قصد إليـه الزعيم « مونليك » والد « بـورتـاى » ، قَصد إليه يصحبـه أبناؤه السبعة وأتباعـه يهنّئونه . وكـانت أياما حلـوة هنيئة خفّفت على ذلـك المغولى الشـاب من مشـاقه ، وردّتـه إلى حياة وادعـة بـاشّة ، قضـاها القـوم بين ترحيـب وتـأهيل وتبـادل الهدايا ، وأنـس الضيوف بالقوم كما أنس القوم بضيوفهم .

وكـان مـن بين أولاد « مـونليـك » ولَـد يحترف الكهـانـة هـو

«تبتنجرى» . وكـانت له فى ذلك حيـل تُشبه حيل السحرة لها أثـرها فى النفوس . وكان على هذا يدَّعـى القُدرة على التخلية بين الروح والجسد والتحليـق بـالـروح إلى الفضـاء ، تتلقّـف أخبـار السماء ومـا هــو غيـب . واجتمع يـومًا هـذا الكاهـن ومعـه إخوتـه بـ « كـاسار » وثـار الحديث بينهم جميعًا حول ما يدّعيـه هذا الكاهن . فانبرى لهم « كاسار » يهوّن من شأن هذا الكاهن ويردّ عليه ما يدَّعيه . ولم يملك الكاهن نفسه ولا ملك إخوته أنفسهم فثاروا بـ « كاسار » وأوسعوه ضربًا بالعصى .

ورعى « كـاسار » حُرمة ضيفـه فلم يفعل شيئًا ، ولم يبـادلهم ضربًا بضرب ، وذهـب إلى أخيه « تيمـوجن » شـاكيًا يحدثـه بما كان . وكـان «تيمـوجن» رجـلا لا يقبل الإهـانـة ، لم يقبلها مـن أخيه غير الشقيـق فقتلـه . من أجـل ذلـك عزّ عليـه أن يهان أخـوه فيسكـت . وما نظـن «كاسار » كان عاجزًا عن أن ينتقم ، ولكنه خاف أن يؤذى مشاعر أخيه إن هـو انتقم ، فهـو لهذا قصـده يشكـو إليه . وحين استمـع إلى أخيـه «تيموجن» يقول لـه : كم باهيت بقوّتك وشجاعتـك ، فما بالك اليوم تهون بين يدى حفنة من الرجال وتجئ إلىّ شاكيًا ؟عندها عرف «كاسار» أن أخاه لا يرضى له الإهانة على أى لون كانت هذه الإهانة ، ولقد كان يحب أن يجعل الانتقام مـن خصومه لأخيه ، وها هو ذا أخـوه قد جعل الانتقام مـن خصومه إليـه . ولكن «كاسـار » على هذا جانب أخاه ، جانبه لأنه كان يحُب منه أن يتولى هـو عنه ذلك حتى لا يعرّضه للوم أو مؤاخـذة ، فخرج مبـاعدًا وعـاش فى أقصى المدينـة بعيدًا عـن أخيه .

وهنا بدرت للكاهن فُرصة رآها مواتية ليلقى بُذور الفُرقة والشقاق بين الأخ وأخيه ، وكـان يعلم ما عنـد « تيموجـن » من شك قـديم فى أخيه « كاسار» فما باله لا يذكيـه ، ويجعل من هذه الفُرصة وسيلة . على هـذا قرّ رأى الكـاهن، وبهذا دخـل على « تيموجـن » يومًـا ليخلُوَ بـه كعـادته ، وكـان فيما حدّثـه بـه أن روحه التـى تحلّق فى السماء حلّقـت ورجعـت إليـه بغَيب كثير مـن غيـب السماء، ولقـد أفضت إليـه بـأن «تيموجن » سيكـون له الحكم على مغول « يكّا » ولكن ذلـك لن يدوم طـويلا ، إذ سيكـون الأمر إلى «كـاسـار » الذى سيغتصـب الملك مـن أخيه . وتلبّث الكاهـن بـ « تيموجن » حتى قَرّ هـذا فى نفسه وملأ عليه عقلـه . وليس شـىء كحـديث المُلـك والسلطـان أسرعَ سريـانًا فـى النفوس وأقـوى تملُّكا لها . عنـدها تَنسى النفـوس كل شـىء إلا هـذه الـزعامـة ، ولا تستجيـب النفوس لشـىء إلاّ لما يمس هـذه الـزعامـة ويحميها . ومـا إن رأى الكاهـن أثر كلماته فى نفـس « تيموجـن » حتى مضى يقول ، وهو واثق أنه مستجاب الكلمة : « لا تترك كاسار يُفسد عليك ملكـك وينزع منك سلطانـك . اخلُص منه قبل أن يخلـص هو منك . » .

واستمع « تيموجن » إلى كلمات هذا الكاهن وهى ترنّ فى أذنيه رنينًا ينفتح له قلبه وتـأنس به حواسه ، فخال ذلـك من وحى السماء، وأن الآلهة رحمةً منها به وتأييدًا منها له وتمكينًا له على وجه الأرض قد بعثت إليه هذا الكـاهن لينقل عنها ويحدثـه بما تريد ، وهبّ « تيمـوجن » من

مكانه مغموراً بهذا كله ، واعيًا لهذا كله ، مؤمنا بهذا كله ، ليلقَى أخاه «كاسار» حيث هو فى عزلته ، فانقض عليه انقضاض الموتور ، وأمر به فنُزعت عنه قلنسوته ونُزع عنـه نطاقه . ورأى « كاسار » الشرّ فى عينى أخيه فجثا تحت قدميه يرقُب مصيره المحتوم .

وضجّت المدينـة بما انتهـى إليهـا مـن حـديـث الخان مـع أخيـه ، واضطربـت الظنون ، كُلٌّ يصـّور الأمر كما يهوى ، وقلّ مـن الناس فى مثل هـذه الأحوال من يحدِّث عـن وعى ويحس عن خبرة ، بـل هم فى ذلـك مـع الفتنـة يصـورونها كما يخالــون ، ويغـالـون فى هـذا الخيـال فيحمِّلونها فوق ما تحتمل ، لا يميلون مع المغلوب ، بل كل ميلهم مع الغالب .

لهذا أشاع الناس أن « كاسـار » يسعى للنكاية بأخيه، ومـن ثم فقد حُقَّ عليـه الموت، وأشاعوا أن « كاسـار » مستأثر بما يقع فى يـديه دون أخيه ، ومَنْ فعل مثل هذا كان جديراً بالقصاص . وهكذا تخبّط الناس فى ظنونهم لا يعرفون من الحقيقة شيئًا .

وانتهى هذا إلى « هولون » كما صوّره الناسُ وكما تحدّثوا به ، فخفّت إلى مقرّ ولدهـا « كاسار » فرأتـه جاثيًا تحت قدمـى أخيه ، ورأت أخاه يكاد يتفجّـر من الغيـظ ، ورأته على وشـك أن يضع السيـف على رقبة أخيه ليخلُص منه إلى الأبد . وتقدمت الأم من ولدها « كاسار » فحلّت عنه إساره ، ووضعت على رأسه قلنسوته ، ولفّت على وسطه نطاقه ، و « تيموجن » مأخوذ بما فعلت الأم ، لم يملـك أن يردّ عليها شيئًا . ثم

استوى « كـاسار » واقفًا فى ظل أُمـه ، التى سرعان ما اتجهـت إلى ابنها «تيموجن » حاسرةً عن صدرها تقـول له : ألا تذكر هذا الصدر الذى حنا عليك ، وهذه الثدى التى أرضعتـك ؛ إن لم تذكر هذا وذاك فاذكر كيف كان «كـاسار » لك نعم الأخ ونعـم العون ، وكم من مـرّة وقف يذود عنك بسهامه مُعرِّضًا روحه للهلاك . »

عندها تخاذل « تيموجـن » لكلام أُمه ، وذكر هذه الرّحـم الواصلة وهذه الأخوَّة البارّة ، وذكـر أنه أسرع إلى اتهام أخيه دون أن يكون بين يديـه سبب لهذا الاتهام ، وذكر أنه مخطـئ فهدأ ، وأنه قد أقـدم على ما أقدم عليه عن غير بيّنة ، وأنه ليـس ثمة شىء غير الخوف على مُلكه هو الذى حرّكه لما تحرك له ، فعاد يحُسّ الخجل ويستشعر الندم ويذكر قول أُمه ، وينسى قول الكاهن .

وتمضى الأيـام ويمضى معهـا هذا الحادث بخيره وشرّه ، ومـا كاد الناس ينسـونه حتـى وقع هـذا الكاهـن « تبتنجرى » فى مُشـادة مع أخ أصغر لـ «تيموجـن » هو « تيموجو » ، وإذا هذا الكاهـن المعتز بصلته بالزعيم يقسو على هذا الأخ الأصغر ، ويحمل عليه هو وأتباعه ينكّلون بـه ضربًـا وتعـذيبًـا ، ويخاف الأخ الأصغـر مـن أن يُنهـى إلى أخيـه «تيموجن» شيئًا ممـا وقع له ، فلقد كان له فيما حـدث لأخيه « كاسار » أُسوة . غير أن الخان لم يفُتـه مما وقع لأخيـه شىء ، وعزّ عليـه أن يلقى أخوه ما لقى ، وعـزّ عـليه أيضًـا أن ينـال مـن « تبتنجرى » وهـو ابن لـ «مونليك » والد زوجته ، وكان على جانب لا يُستهان به من القوة ،

هذا إلى ما كان منه من تأييد له وعون . ثم إنه الخان ، وإليه الفصل فى الخصومات وليس له أن يثأر . ولكن « تيموجن » على هذا كان غاضبًا، كان لا يُقرّ أن يهان أخوه، وكان لا يقر أن يعتدى هذا الكاهن على أخيه هذا الاعتداء ، فهو لهذا أخذ يحتال فى أن يدفع هذا الظلم بظُلم مثله، فأوعز إلى أخيه الأصغر بأن ينال من الكاهن بمثل ما نال منه ، وأسرَّ إليه بأنه داعيه وإياه إلى قُبته وعليه أن يثور فى حَضرته ، على الرغم من أن التقاليد تحرم أن يقع شىء من الشَّغب فى حضرة الخان .

ودُعى « مونليك » إلى قُبة الخان ، ودعى مع « مونليك » أولاده السبعة ، ودخل الزائرون كلهم إلى قُبة الخان بعد أن خلفوا أسلحتهم خارج القبة . وجلس الجميع بين يدى الخان ، وجلس بينهم «تيموجو» الأخ الأصغر. وما كاد المُقام يستقر بالقوم حتى هبّ «تيموجو » فحيًّا الخان أولا ، ثم اتجه إلى حيث يجلس الكاهن ، وأمسك بتلابيبه وهو يصيح : «بالأمس القريب أرغمتنى على أن أسجد بين يديك ولى معك اليوم شأن آخر» . وما كاد أن ينتهى إلى هذا من قوله حتى اشتبك معه فى صراع عنيف فَزع له الإخوة وفزع له الأب . وليمضىَ الأمر كما شاء « تيموجن » ودبَّر ، أمر المتصارعين أن يغادرا القبة ليَحسما ما بينهما ، وكان فى انتظارهما ثلاثة من الرجال الأشداء أعدَّهم « تيموجن » ، فما كادوا يلقون الكاهن حتى انقضُّوا عليه وأردوه قتيلا وتركوه مضرَّجًا بدمائه إلى جوار إحدى المركبات .

ودخل « تيموجو » على أخيه بعد أن انتقم لنفسه فسجد بين يديه ثم

انتصب قـائماً يقول له : « بـالأمس أرغمنى « تبتنجـرى » على السجود له ، واليوم أرغمته أنا على السجود فخَّر بين يدى وما أظنه سيقوم . » .

وهبَّ الأب العجوز وهبَّ معه أولاده ليروا الابن والأخ ملقى على الأرض وقد فارق الحيـاة . ودخل الأب على الخان ، وفى نفسه حَسرة على الابن ، وفى قلبه موجدة على الخان ، وأخذ يلُـومه على ما كان من غـدر ، ذاكراً لـه ما كـان منه مـن إخـلاص له وعـون . وكاد الأبنـاء يثُورون بالخان فى مـوقفه ، ولكنه خرج عنهم بعد مـا صاح بهم صيَحة كـادوا يخَرُّون على وجوههـم من هَـولها . ولكنه قبـل أن يمضى عنهـم التفت إلىَ « مونليـك » يقول له مؤنِّبـا « إنى ليؤسفنى مـا كان ، ولكن يجدر بك ألاَّ تنسـى أن ولدك الكـاهن كـان هو البـادى بالشر وقـد نال جزاءه » .

* * *

غير أن الخان ما كان لينسى ما لفعلته هـذه من أثر فى النفوس ، وما سوف تُثيره فى القلوب ، وأن الناسَ لن يغفروها له . وكان «تيموجن» حريصًا على ألاّ يشيع ذلك عنه فينقلـب الناس عليه ، ويستغله أعداؤه فى الدعايـة ضده ، وهو لا يزال على أول الطريق إلى المجـد ، أحوج ما يكون إلى أن يشيع عنه الخير لا أن يشيع عنه الشر . من أجل ذلك أخذ « تيموجن » يحتال ، وما كانت تُعوزه الحيلة ، فأمر بقُبته فوُضعت فوق جثمان الكاهن ، ثـم أمر بمن يَسحب تلـك الجثة فيخرجها مـن الكُوَّة التى يخرُج منها دخان الموقد ، ثم دعا الناس إليه ليروا الجثة وهى تخرج

من حيث يخرج الدخان ، ووقف بينهم يقول لهم : « هذا تدبير السماء . لقد آذاني هذا الكاهن في إخوتي فصبرتُ عليه أرعى له واجب الضيافة ، غير أن السماء التي لا تخفى عليها خافية لم تَرْض هذا الظلم فانتقمت لي منه فقبضت روحه الشريرة وجرَّت إليها جسده » .

وصدَّق الناس فانصرفوا مؤمنين بما قال الخان يردّدون قوله .

وعاد « مونليك » بأولاده وأتباعه حانقين ، يُعدون للانتقام ويستعدون للصراع . ولكن الخان كان ذا عزم وكان ذا جَلَد ، فمضى يخرج من حرب إلى حرب ، ومن غزوة إلى أخرى ، وإذا هو بعد هذا زعيم شمال « الجوبي » ، يحملُ الصولجان العاجي ويمتطي صهوة الجواد الأبيض ، يحُيط به الحراس أينما حلَّ وارتحل ، قد انتصب أمام قُبته اللواء تتدلىّ منه ذيول وُعول تسعة ، بين قِباب تبلغ مائة الألف ، تضم آلافًا من الأسر المغولية .

وما إن بلغ هذا من أمره حتى عاد يفكِّر فيما فكَّر فيه بالأمس من ضمّ هذه القبائل المتنافرة تحت لوائه ، وتوحيد تلك العشائر المختلفة تحت سلطانه ، غير مُلْق بالاً لما كان يَسمع وما كان يتردّد على ألسنه الكبار من أن العُقول المختَلفة لن يجَمعها جَسد واحد . وهكذا استعد الخان لتحقيق ما تصبو إليه نفسه ، يرى العبء كبيرًا ولكنه يرى نفسه كبيرة كذلك ، يستعين مرةً بالسياسة والكيَاسة ومرة بالحيلة والدهاء ومرة بالحرب ، يؤازره الصبر وتحدوه الجُرأة ويُملي عليه عقل ذكي كبير.

جنكيز خان

كانت الصلةُ بين « تيموجن » وبين عمّه « طغرل خان » الذى كان له مكان الأب ـ صلةً لا تَشُوبها شائبة . وكان من بين حاشية الخان العظيم مَن يحقدون على « تيموجن » حسدًا منهم له على مكانته تلك ، لا سيماً أقاربه من « البورشيكون » الذين كان دأبهم أن يفرّقوا بينه وبين عمّه . لذا كان « تيموجن » لا ينفكّ منهم على حَذر ، وفى شكّ مُتصل مما يأتون .

وكان « تيموجن » على حظ من الخِداع والدهاء ، أفادتْه إياه شئون الحُكم والاضطلاع بأعباء عشيرته ، وكان بعد هذا ذا بَصيرة نافذة هيّأتْه لأن ينفُذ إلى ما وراء المظاهر من خديعة وما وراءها من مكر ، فدسّ «تيموجن » على حاشية الخان نفرًا من خُلصائه والمُعجبين به ليكونوا عيونًا له عليه ، وليعرفوا ما يُحاك هناك من دسائس ضدّه . وأنهى إليه عيونُه أن خصومه من حاشية طغرل خان زيّنوا للخان ، المرة بعد المرة ، القبضَ عليه والفتك به ، ولكن الخان كان يأبى عليهم ذلك ، كما أنهَوْا إليه زيف تلك العُروض التى كانت تُشاع عن رغبة الخان فى أن يُزوّج ابنته من « جوشى » ابن « تيموجن » ، والتى كان

القصد منها الفتَّ فى عَضُده ، وبعثَ الطمأنينة إلى نفسه ليصرفوه بذلك عمّاً يدبرون له .

هذا وغيرُه عرفه « تيموجن » ، ينقُله إليه أعوانُه مُسرعين صادقين ، فاحتاط لأمره ولم يمكِّنهم من إفساد الصلة بينه وبين عمه . ذلك إلى أن الخان كان يُكْبِر « تيموجن » منذ أن رآه فى لقائه الذى مرَّ ، ورأى فيه الرجلَ والصديقَ فأنس به ، ناداه أبًا فألان قلبه ، وخاطبه ندّاً فأثار إكباره ، وكشف له عن إخلاصٍ فبادله مثلَه ، وخوّفه نفر مَن أقاربه يتربّصون به الدوائر فازداد أُنسًا به وثقة .

وهكذا خرج « تيموجن » من عند الخان بعد لقائه هذا حليفًا وصديقًا ، ومضت الأيام تُؤكِّد إخلاصَه وصدقه ، وما إن عَدَتْ القبائل الغربية البوذية على بلاد « القرايطة » التى تدين بالزعامة لـ «طغرل خان » حتى بادر «تيموجن « بإرسال نُخبة من رجال جيشه الأقوياء لمُعاونة حليفه وصديقه .

ويخرج طغرل خان من هذه المحنة ليلقى محنة أخرى ، تُتيح لحليفه «تيموجن» عونًا جديدًا . فقد هبَّ « التتَار » يُغيرون على أرض «الخطاى » زاحفين من الشمال من « جورزا » و « بارجو » بالقرب من بُحيرة «بويور» . وما كان « التتار » أهلَ مدن مُقامة ولا حُصون مشيَّدة ، بل كانوا يعيشون كمايعيش المغول بين القباب وفى البرارى ، لا يتميَّز خُلق عن خُلق ، طبيعتهم الحرب ، والشَغب دينهم ، فيهم عُنف وفيهم قَسوة ، حياتهُم سَلب ونَهب ، وأمورهم فوضى ، لا

يُذعنون لحكومة ، ولا يَدينون بالولاء لسُلطان ، مَن غلب حكم ، والقاهر من كان مرهوبًا ذا بَطش . وهم على ذلك كانوا يرتعون بين سُهول نضرة ، ومراع خصبة ، ومياه غزيرة ، تَفيض بها عليهم أنهار ثلاثة .

وبلغ « التتار » فى غارتهم تلك على أرض « الخطاى » الحدود ، وباتوا يهدِّدون الامبراطور ، ويكادون يَنْقُضون عليه سُلطانه . وهبَّ الإمبراطور ليلقى تلك الجموع المُغيرة وجهًا لوجه على رأس جيشه ، وفزع « التتار » لهذا الاستعداد ، وكانوا يظنون أنهم آخذون القوم على غرة ، فإذا هم بين يدى جيش كبير يزحف إليهم زحفًا ، فولّوا الأدبار سِراعًا وجَدّوا فى الفرار . ويبلغ « تيموجن » ما كان من « التتار » مع الامبراطور ، ورأى الفُرصة قد واتته ليتخذ من الامبراطور عونًا فى القضاء على التتار القضاءَ الأخير ليأمن من مُناوأتهم . فأرسل إلى الامبراطور يعرض عليه استعدَاده لنُصرته فى شدته ، ورآها الامبراطور هو الآخر فُرصة ليكفى نفسه شرَّ غَارات « التتار » المُتلاحقة ، وسرَعان ما تضامَّ الجيشان : جيش « تيموجن » وجيش « القرايطة » ومَضيا فى إثر التتار المنهزمين ، على حين ثَبت لهم من وراء ظهورهم جيش «الخطاى» وعلى رأسه قائد من قُوَاد الامبراطور . وإذا التتار بين جيشين يُلاحقانهم فى فرارهم ، وجيش قد وقف لهم سدًّا منيعًا فى تقهقرهم ، وإذا هم يصلَوْن حربًا حامية ، ويخرّون صرعَى ويُتَخَطّفون أسرى .

وخرج « تيموجن » من هذه المعركة مُظفراً عزيزاً ، سعى إليه المحاربون فانطَوَوْا تحت لوائه ، وخلع عليه الامبراطور لقبًا كان جديراً به ، فلقَّبه بـ «قاهر الثوار » وأهدى إليه سريرًا من فضة موشَّى بالذهب، كسوته من الحرير الخالص ، كما منح الامبراطور بعد هذا لقبًا جديدًا لطغرل خان ، هو « وانج خان » ، أى سيد الملوك .

وما خُدع « تيموجن » بهذا النصر ، ولا غرّه اللقب ، ولا ألهته الهدية ، وأخذ يتطلع إلى أمل جديد يُعوزه جَهد جديد ، وتَدبير جديد . لقد بدأ «تيموجن» يحس حاجة المغول إلى زعيم يجمع شَملهم ، ويوحِّد كلمتهم ، وما من شك فى إنه كان ينظُر لنفسه . من أجل ذلك كتب إلى « طغرل خان » يذكر له ذلك النصر ، ويذكر له اسمه إلى جواره ، ويذكر له حاجة المغول إلى زعيم . وخال « طغرل خان » أن «تيموجن » فى زهو هذا النصر يطمح إلى تلك الزعامة ويريدها لنفسه ، فضَغِن عليه وظنّ به الظنون .

وكان « تيموجن » قد خرج من تلك الحرب ، التى وقف فيها «القرايطة » إلى جنبه ، وهو يظن أنّ المحنة قد ألّفت ما بينهما ، وكادت تجمعهم إليه على ولاء . وأظلّه موسمُ الصيد فخرج يصطاد ، وساقه الطِّراد إلى قريب من أرض «القرايطة » وبلغ نفرٌ من رجاله أرضَهم . وما إن وقع عليهم «القرايطة » حتى قتلوهم ، لم يُراعوا عهدًا ، ولم ينظروا إلى جوار . ونجا من هؤلاء النفر اثنان ، عادا إلى « تيموجن » يحملان إليه ما لقى إخوانُهم من حتف ، وما شاهداه هما من غدر

وتنكُّـر ، وما رأيـا للقوم مـن استعداد للحـرب ، يريـدون بذلـك ألاَّ يمكِّنوا لـ « تيموجن » من أن يكون له سلطان عليهم .

وكأن القوم كانوا قد تكشَّف لهم شيء مما يدور برأس « تيموجن »، وكأنهم قـد علموا علْم ذلـك الكتاب الـذى أرسل به « تيمـوجن » إلى «طغرل خان » ، وكـأنهم قد وقع فى نفوسهم أنهم مـن بين القبائل التى يعنيها «تيموجن » ويـريد أن يجعلها إلى زعيم ، وكأنهم قد تـأوّلوا تلك الزعـامة كما تـأولها « طغرل خان » ، وأيقنـوا أن « تيموجـن » يريـدها لنفسـه ويُـريـدهم لـه . مـن أجـل ذلـك غـدر « القرايطـة » بـرجـال «تيمـوجن»، ومـن أجـل ذلك تهيـأ «القرايطـة « لحربـه ، يريـدون أن يُفـاجئوه قبـل أن يفاجئهـم ، ويريـدون أن يأخـذوه على غِرة قبـل أن يأخذهم . وأعـدَّ القوم عُدَّتهم ليجعلوها المعركـة الفاصلة بينهم وبين «تيموجـن » ، وفى عزمهـم أن يقضُوا عليـه قضاءً لا قيـامة لـه بعده. وأجمع على ذلك نفـر من زعمائهم يدَبِّـرون لحربه ويهيّئون للوقيعـة به ، وكان من بينهم « شـاموكا » الداهية و « توكتـا بك » زعيم « المركيت » الذى امتـلأ قلبه ضغنًـا وحقدًا على « تيمـوجن » وكـذلك ابـن « وانج خـان» زعيـم القـرَايطة وكبيرهـم ، ولم يخرج عـن ذلـك الإجماع أعمام «تيموجن » إذ يـرون أن عمومتهم لـ « تيموجـن » لا تُعفيهم من نُصرة قـومهـم ، ويــرون أن قـرابـة «تيمـوجــن» لهم لا تُعطيـه الحقَّ فى أن يتملّكهم . ومـا إن أجمعوا على ذلك حتـى عقدوا لواء الحرب للـداهية «شاموكا » وجعلوه قائدًا لتلك الجيوش المشتركة .

ولكنهم رأوا قبل أن يمضوا إلى تلك الحرب أن يضمُّوا إليهم « طغرل خان » ليؤمِّنوا ظهورهم ، وليأمنوا انحيازه إلى « تيموجن » إن عنَّ لـ«تيموجن » أن يستعين به . ولقد وجدوا الطريق إلى ذلك سهلا ، فهم قد علموا أن « تيموجن » قد أوغر صدر الخان العجوز بذلك الكتاب الذى بعث به إليه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخاف «تيموجن » على مُلكه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخشى طُموح « تيموجن » إلى أن يتزعَّم « المغول » عامة . وتم لهؤلاء الزعماء ما أرادوا ، فقطعوا ما بين الخان العجوز وما بين «تيموجن » قطيعةً لا أمل فيها لإصلاح ، وفوَّتوا على « تيموجن » ما كان يطمع فيه من الفُرصة لنفسه كى يستعدَّ ويَقوى لتحقيق ما يصبُو إليه .

لقد كان « تيموجن » يدبِّر لأمر فأفسدوا عليه هذا التدبير ، فلقد كان يريد أن تبقى قبائل « القرايطة » مشغولة بتلك الحروب المُستعرة ، بينهم وبين قبائل الغرب الأتراك إلى أن يخرجوا منها آخر الأمر مَنهوكى القوى مفلولى الشوكة ، فيجدهم لُقمة سائغة يلتهمهم فى يُسر ، ولقد كان يريد أن يظلّ الحلف بينه وبين الخان العجوز قائماً فتَقوى به شوكتُه ويَرهبه خُصومه . كان « تيموجن » يريد هذا وذاك ، وكان ذلك تدبيرَه ، حتى إذا ما كُتب له النصر على « القرايطة » واجه حليفه العجوز قويًا بما كسب ، فأملى عليه ما يريد ، محتالا عليه إن أغنته الحيلة ، أو عنيفًا به إن اضطر إلى العُنف ، ناظرًا إلى الأيام وهى فى مرورها تضُم إلى عجز الخان عجزًا وتزيد إلى قُوته هو قوة .

ودبّر « تيموجن » ودبّر خصومه ، فإذا تدبير خصومه يغلب تدبيره، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها بعد حين طويل تُعجله ليدخلها بعد حين قريب ، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها مُختاراً يُملى هو وقتها وساحتها ، يدخلها مقسوراً تُملى هى عليه وقتها وساحتها .

ونظر « تيموجن « فى أمره فإذا لقاء جموع « القرايطة » ومن انضم إليهم لا قبلَ له بهم ، وإذا هو ليس بين يديه من الرجال المحاربين غير ثلاثة آلاف : خطرٌ ينخلع لهوله قلب الضعيف فيجزع ، ويهتزّ له فؤاد الجبان فيهلع . ولكن « تيموجن » كان رجلا ذا قلب كبير ، وكان رجلا ذا فؤاد كبير، كان رجلا يحُب أن يَفرض نفسه على الحياة ولا يحُب أن تفرض الحياة نفسها عليه ، فاستقبل ذلك الخطر وهو يرى نفسه أكبر منه ، فملك عقله يدبر للمعركة ويهيئ لها ، ولم ير نفسه أصغر منه فيفقد عقله ويفقد تدبيره. وقف « تيموجن » بين رجاله يملك قلبه ويملك عقله ، وكان قومه قد أوَوْا إلى مضاجعهم وأسلموا أنفسهم لنوم عميق آمنين مطمئنين إذ كان الليل قد انتصف . فأرسل «تيموجن » رُسله من حوله إلى القوم يَستنهضونهم من فراشهم على عجل ، حتى إذا ما التف به قومُه أمر نفراً منهم أن يخرجوا بالماشية والدواب إلى السهول فينشروها هنا وهناك ، وأمر بالمركبات أن تُعَد ، وبالمتاع الخفيف أن يحُزم، وأمر النساء والصبيان أن يعتلين العربات ومعهن هذا المتاع الخفيف ليخرجن بعيداً دون جَلبة أو ضوضاء . وإذا

«تيموجـن» فى غَمضة عين قـد أعدَّ نفسه وتهيـأ للحرب ومفـاجآتها ، يحسب للنصر حسـابه كما يحسب للهـزيمة حسابها ، ووقـف بين جنده وقد اعتلوا خيولَهم وحملوا سلاَحهم فى سكون الليل البهيم ، يتطلع إلى الأفق بعينين نافذتين ثاقبتين ، يُملى عليهما رأس مـدبِّرٍ غير فزع وقلبٌ شجاع غير هَلع .

وكان « تيمـوجن » ذا حيلـة لم يفقدهـا فى موطـن الفزع كما لم يفقـد قلبه ، فأمر بأن تترك الخيام مُضـاءة كما هى ، كما أمر بأن تترك المركبات الثقيلة من حولها . وتلبَّث « تيموجن » حتى إذا ما اطمأن إلى أن الأمور قد جرت وفْق ما أحب خرج برجاله فى جُنح الليل ، والقافلة من أمامه يُمعن فى السَير إلى صحراء « الجوبى » .

وعلى بعد تسعـة أميال من مَضرِبْ خيـامه كـانت تقوم سلسلـة من الجبال ، فى سفحها جـدول من الماء ، ما إن بلغه « تيمـوجن » واجتازه حتى أمر رجـاله بأن يحطّوا رِحـالهم وينتشروا بين التلال المحيطة . غير أنه أبقـى من رجـاله على الضَفـة الأخرى مـن الجدول نفراً منهـم لأمرٍ دبَّره .

* * *

وأقبلت جموع « القرايطة » زاحفة إلى مضرب خيام « تيموجن » بعد أن خـرج عنها أهلُهـا وهم يظنـون أنهم لا يـزالون فيهـا ، يريـدون أن يأخذوهـم على غِرة وهم فى نومهـم يغُطّون . وأخذوا يرشُقـون الخيام بسهامهم ونبالهم ، يخصّـون خيمة الزعيم « تيموجن » بـأوفر نصيب .

ولكن سرَعان ما تبين لهم أن القوم قد رحلوا عن منازلهم وتركوها خاوية . وتقدم «القرايطة» من الخيام فإذا هم يجدونها على نظامها لم يَمْسسها سوء ، فقِرَبُ اللبن كما هي مُدلاّة ، والفراش كما هو لا يزال على نظامه وترتيبه ، فهالهم ما رأوْا وظنوا القوم قد أُنْذِروا بالغزو فولّوا عَجلين لم يلتفتوا إلى ما وراءهم لينجوا بحياتهم .

عندها أسرع « القرايطة » يريدون أن يلحقوا بالقوم فى فرارهم فيَلْقوهم على غير أُهبة ، ويتمكّنوا من القضاء عليهم وإبادتهم . ومضت تلك الجيوش الزاحفة تَنهب بهم الجياد الأرض نهبًا لا تكاد الحوافر تمس الأرض إلاّ مسًا خفيفًا ، وإذا الخيل سابحات على وجه الأرض تُسابق الريح .

وثبت الكمين الذى خلفه « تيموجن » على الضفة الأخرى من الجدول لطلائع جيوش « القرايطة » الزاحفة يأخذها شيئًا بعد شئ ، فإذا تلك الطلائع تُصرَع طليعةً بعد طليعة ، وإذا تلك الجيوش الجرارة تُمْنَى بالهلع والفزع ، وإذا هى يعُمُّها الاضطراب وتَسودها الفوضى . وحين قُدِّر لها أن تنضم وتتجمع كان « تيموجن » قد مكّن لنفسه من أن يستعد ويتهيأ . ولكنه كان يحس أنه أمام جيش يفوقه عدداً وعُدة . ولقد قدَّر أنه مستطيع أن يلتفَّ به كما دبَّر ، غير أنه فاته ذلك ، ولو أفلح فيما دبّر لأتى على خصمه فى يُسر ، فلقد كان « تيموجن » خبيراً بحركة الالتفاف «التولوغما» وبه عُرِف ، وكان لا يُجيده سواه فى زمانه ، إلا أن الظروف هذه المرة لم تُواته . وكان لزامًا على « تيموجن»

أن يُواجه خَصمه مواجهةً ، وهو مؤمن أنه ملاق خصما عَنيداً ، وأنه مُقبل على صراع عنيف ، صراع ليس وراءه إلا حياة عزيزة أو موت كريم .

واشتبك المحاربون ، تهجم جموع « تيموجن » على قوات «القرايطة» فتُحسّ شدة العدوّ فتَنخزل ، وتهجُم جموع « القرايطة » على جموع «تيموجن » فتُحسّ شدة عدوّها فتنخزل ، لا يقوى هؤلاء على هؤلاء، ولا هؤلاء على هؤلاء . و « تيموجن » من وراء هذا الكفاح المرير يستنجد بالسماء، وكم استنجد « تيموجن » بالسماء ، وكم أمدّته السماء ولم تخُيب له دعاء . وتُلهمه السماء أن ينظُر فيقع بعينه الثاقبة على ثغرة فى خُطوط العدو فينتهزها وإذا هو المنتصر ، وإذا عدوه هو المنهزم، وإذا الشّمس وهى تُؤذن بالمغيب تُؤذّن بأفول نجم « القرايطة » وبسطوع نجم «تيموجن» .

لقد مكّن « القرايطة » لـ « تيموجن » من أن يلتفّ بهم حين تخلّوا عن تل «جوبتا » الذى كانوا يحتمون به ، وكان تخلّيهم عنه هو تلك الثغرة التى لمحها « تيموجن » ووقع عليها . وما إن بان ذلك له حتى استدعى إليه « جولدار » أقوى رجاله عُودًا وأشجعهم قلبًا ، وكان زعيماً لقبيلة « المانهوت » ، وأمره بأن يُسرع إلى ذلك التل ، تل «جوبتا» ، ليحتلّه فيضمن « تيموجن » بذلك الالتفاف بخصمه ، ولقد شاء ذلك أولا فلم تسعفه الظروف ، وها هى ذى الظروف قد أسعفته به .

ومضى « جـولدار » لا يُلـوى على شىء ، يـريد أن يحقِّـق لزعيمـه ولقومه النصر الذى يطمعـون فيه ، مَضى وهو يُقسم باسـم زعيمه أنه سوف يُطَوِّح برأس من يعترض طريقه ، وأنه سوف يَنْصب اللواء على قمة تل « جـوبتا » مهما كلَّفه ذلك ، فـإن قضى بعدها فسـوف يخلد فى الخالدين ، وما عليه أن يُصيبه الموت فى سبيل زعيمه ، وما على أولاده بعده من بأس لأن زعيمه سيرعاهم .

على هذا مضـى « جولدار » فى فُـرسانه مـن « المانهوت ، وعلى هذا بلـغ «جولـدار » قمة تـل « جوبتـا » مع مغـرب الشمس ، وعلى هـذا نَصب «جولـدار» اللّواء على قمة تل « جـوبتا » . وما كاد « القـرايطة » يحُسون بأنهم أصبحوا محُوطين بعَدُوهم وأن عدوهم قد التف بهم حتى دبّ الذعر بين صفوفهم وانخلعـت قلوبهم وفقدوا كلمتهم الموحّدة ، وإذا هم نهب لخصومهـم يُوقعون بهم فى يُسر ، وإذا هم يـولّون الأدبار ويخرجون من المعركة مدحوريـن . وهكذا كتب لـ « تيموجن » النصر على خَصـم ما كـان يقـوى عليه ، وأخـذ النـاس يَعـزون ذلك لفعـل السماء، وضمُّـوه لأســاطيرهـم التــى تـروَى ، والتــى أضفـت على «جولدار» الشىء الكثير من ألوان البُطولة والشجاعة .

* * *

لقد خرجت جيوش « القرايطـة » من تلك الحرب بالخزى والعار ، ولو كـان « تيموجـن » يملـك أكثر ممـن كان يملـك مـن رجال لأبـاد

«القـرايطـة » عــن آخـرهـم ، ولكنـه قنــع بـأن يترك لهم السبيـل إلى الانسحاب، وقنع بهذا النصر وما كان يطمع فى غيره .

ولقـد خـرج « وانج خـان » زعيـم « القـرايطة » مـن تلـك الحرب مدحـوراً وخرج ابنه مشجـوج الرأس ، وخرج قـومه وقد نـالهم بأس شديد ، فإذا هو آسف نادم على ما كان منه من إثارة حرب على رجل لم يُثر حربًا ، وما كانت إلاّ عن غير ظن ظَنَّه وتقدير قدَّره ، حرب لم يَغْنم منها إلاّ غير ما أراد ، فها هو ذا خصمه قد أفاد قُوَّة وشهرة ، وها هو ذا قد أفاد ضَعفًا وسُوء سـمعة .

ولقد خرج « تيموجن » من تلـك الحرب أقوى مما دخل إليها ، عزَّ بين قومه وعزّ بـه قومه ، ونال من « القرايطة » مـا أراد ولكن بأُسلوب غيرالذى كان يريد . وخرج « تيموجن » من تلك الحرب يرى أن الخان العجوز قـد حَنث بعهده ونقـض حلفه ، فليـس بُدّ من أن يبـادله شراً بشرّ، ويَفرُغ منه ليمهد لنفسه السبيل إلى ما يريد .

ومن ثَم أرسل « تيمـوجن » إلى الخان كتابًا طويلا يذكِّره فيـه بأيامه السالفـة معه ، يوم كان يُقـدِّم له أسلاب الحرب دون أن يختـص نفسه منها بشئ ، ويذكُر له فيه ما كان منه من نقض العهد ، وما كان منه من عَون لخصـومه ، ويـذكرِّه بذلـك القسم الـذى أقسماه معًا على شـاطئ النهر الأسود بـألاّ يستمع أحد منهما إلى وشاية ، وبـألا يُلقى أحد منهما بالاً لـوقيعة ، وبأن يكون مـا يجَدّ بينهما من خلاف لهما وحـدهما . ذكر ذلك « تيموجن » فى كتابه إلى الخان العجـوز ،ثم ذكر له أن ما بينهما قد

انقطع ، وأن تلك الصداقة الأولى قد زالت . وحين يذكر « تيموجن » هذا يَعنى أنهما قد أصبحا خَصمين ، وأن الحرب بينهما لا شك واقعة .

وأصبح لزامًا على « تيموجن » وقد هيّأ الخان للحرب أن يستعد هو للحرب ، و « تيموجن » يعلم ماعنـده وما عند الخان . من أجل ذلك التفت «تيمـوجن » لجيشـه الذى هو عُـدّته عنـد الشدائد وملجـؤه مع الأهوال ، فراح يُعيد تنظيمه ويُعيد تسليحه ويضع له القواعد الجديدة ويختار له القواد المحنَّكين .

وأرسل « تيمـوجن » إلى الخانـات يستدعيهـم فخفُّوا إليـه من كـل حَدَب وصَـوْب ، وجلسوا بين يـديه فى مجلس عـام قد افترشـوا بُسُط اللُّبـاد وأيديهم معقـودة بُركَبهـم . وتحدث إليهـم « تيموجـن » يُشير عليهم ويستمع منهم ، يختلفون ويتفقون ، غير أنهم خرجوا آخر الأمر مجمعين على أن تكـون زعامـة « المغـول » إلى « تيمـوجن » وأن يكـون الصـولجان فى يديـه . وحين أجابهم « تيمـوجن » إلى مـا أجمعوا عليـه لَفتهـم إلى ما للـزعـامة مـن حقوق عليهـم ، فلقـد ألزمهـم بـالطاعـة فأعطـوها راضين ، وألزمهـم بأن يكـون إليه عقاب المخـالفين وجزاء الخارجين فنَزلوا له عن ذلك راضين .

وبذلـك كُتبت الـزعامـة لـ « تيمـوجن » على « المغـول » ، وأصبح سيدَهـم وأصبح الحاكـم على تلك الأرض التـى بين الأنهار الثلاثـة ، وكم كـان يَود أن تكـون هذه الأرض لحاكـم واحد ، يجمـع كلمتها ، ويكفيهـا تلك الـويـلات المتلاحقـة . ولكـن هـؤلاء الخانات قبـل أن

يخرجوا عـن « تيموجـن » أقسم لهم بأنـه سوف يقـف مُدافعًـا عنهـم ، مُدافعًا عـن أرضهـم ، مدافعًا عـن أرواحهـم كما وعدهـم بـالانتقام من «طغرل خان » .

* * *

لم يَنْس « تيموجن » ما كان « للقـرايطة » من غدر ، ولم يَنْس لهم أن وجودهـم بالقسم الغربـى من صحراء « الجوبـى » ـ وهم ما هـم شدة وقوة ـ كان له أثر فى توقّفه عن ضم إقليم « الخطاى » إلى أرضه التى تقع فى القسم الشرقى من هذه الصحراء ، لذلك فكَّر أول ما فكر فى أن يثأر لنفسه منهم وقد أصبحت الفرصة مواتية . وما إن فكر « تيموجن » فى هذا حتـى جمع إليه جيوشـه ، يريد أن ينتهـز الفرصة قبـل أن ينكشف الشتاء ، وقبـل أن تذوب الثلـوج وتَفيض ميـاهها فى الـوديان فتعُـوق حركاته السريعة المفاجئة .

وخفّ « تيموجـن « بجيوشه زاحفًا إلى معسكـرات « القرايطة » ، وكان «تيموجن » يعلم أن خُصومه ليسوا من الغَفْلة بمكان ، وأنهم لن يتركوا حـدودهم دون رقـابة ودون حـراسة ، لـذلك عمـد إلى الحيلة وعمد إلى الدهـاء فسرّح رجلا من رجالـه الشجعان ، هو « سابـوتاى اليورانخى » إلى «القـرايطة» فمضى إليهم على أنه فار هـارب قد آذاه ما يلقى مـن « تيموجـن » من معـاملة سيئـة . ودخل « سـابوتـاى » على «القرايطة » بتلك الحيلة وأخذ يقُص عليهم ما يُعدّ لهم « تيموجن » وما سوف يفاجئهم به .

ولكـن القوم ـــ شأنهم شـأن غيرهم ــ أرادوا أن يخْبرُوا صدق هـذا الفارّ ، فأرسلوا معه كوكبة من الفـرسان طليعةً ، وخرج « سابوتاى » بتلك الطليعـة ليدُلهم على صدق قولـه . وما إن خرج بهم بعيـداً حيث طلائع جيـش «تيموجـن » ، حتى نـزل عن جـواده يدَّعـى أن عرجًـا أصابـه ، فالتفـّ القوم بـه مَشغولين بأمره ، وكـان « سابوتاى » مـاهرًا لَبقًا ، فأخذ معهم فى حديث طـويل ، يريد أن يصرفهم عن التطلع إلى الأفق البعيد ، حتى لا تقع عيونهم على طلائع جيش « تيموجن » ، ولم يكونـوا قد رأوهـا حين رآها هـو من قبـل . وبهذا مكَّن « سـابوتـاى » لطلائع « تيموجن » من أن تتقدم ، ومكَّـن لها من أن تلتف بمن معه ، فإذا هم جميعًا أسرى .

ولبـث « القرايطـة » ينتظـرون أوبة طليعتهـم ، لاهـم بالمصـدقين فيأخذوا أُهبتهم للحرب ، ولا هم بالمكذبين فيعودوا لشأنهم ، وهكذا بقوا على حـال من الشك ، وإذا هم قـد دَهمهم عدوٌّهـم على حين غِرة فنكَّل بهم تنكيلا شديدًا، وخرجوا من معركتهم تلك وقد أفل نجمهم فباءوا بهزيمة مُنكـرة ، وخرج زعماؤهم عن أرضهم يُـولّون الأدبار . وامتـدت أيدى الجيـش الظـافر ، جيـش « تيمـوجن » ، إلى أسـلاب «القرايطة» تنهب وتسلب غانمة ظافرة .

وما أخلد « تيموجن » إلى الراحة بعد ذلك النصر ، بل خف فى إثر عدوِّه الفار يضيّق عليه السبل . وقُدِّر له أن يحُيط بفرق من ذلك الجيش الهارب ، خيرّهـا بين الانضمام إليـه وبين القتل فـاختـارت الأولى على

الثانية ، وبذلك كسب « تيموجـن » كسبًا جديدًا ، إذ استطاع أن يضُم إلى جيشه جيشًا آخر له خبرة فى الحروب .

ومضى « تيمـوجن » فى إثر فلول الجيـش وهمُّه أن يقع على زعمائه . وفى قرية « قره قرم » أو « الرمال السوداء » سيق إليه ابن عمه «شاموكا» مأسـورًا فاتجه إليـه « تيموجـن » يسألـه : أى مصير تتوقـع ؟ وأجاب «شاموكا» : المصير الذى كنت أعدّه لك ، وهو الموت البطىء . وكان «شاموكـا» يعنى القتل بتقطيع الأعضـاء عضوًا عضوًا يومًـا بعد يوم . غير أن «تيموجن » كان حريصًا على تقاليد « المغول » ، حريصًا على ألاّ يَشذّ عما عُرف لهم فى مُعـاملة الزعماء الذين ينحدرون مـن بيت رفيع ، فشَنق «شاموكا» بخيط دقيق مـن الحرير ، وأخمد أنفاسه بين وسائد من اللباد. وهكذا حقـق « تيموجن » باستيلائه على أرض « القـرايطة » ما كان يحلم به، وكانت هذه النواة الأولى فى مملكته المرقوبة .

وما إن استتـب الحال لـ « تيموجن » فى تلـك البلاد حتى خـرج من فَوره نحـو وديان الغرب حيث « الأتـراك النايمان » الذين كـان لهم مع «القرايطـة » تاريـخ فى الحرب طويـل . فلقد أصبـح « تيموجـن » هو الأخر يتوجّس منهم الشر ويخافهم على سُلطانه الجديد .

خرج « تيمـوجن » فى جيـوشه كـالسيول المتـدفّقة تضرب فى تلـك الـوديـان ، بين سـلاسـل مـن الجبـال تُغطيهـا الثلـوج ، وبين سـور «الخطاى» العظيـم ، يجتاز فى طـريقه مُدنـا لها ماض قديـم عريـق مثل «شبالـك » و « خوتـن » ، وكان كلما مـرّ بمدينـة أسلمت قيـادها إليـه

وأسلم هو إليها أمنها ، لا يضرّها فى شىء كما يفعل القائد الحكيم والسياسى الماهر ، يكفيه من المغلوب استسلامه ليضمنه على الولاء له . فعل هذا هنا بمثل هذا الدافع ، وسترى أنه فعل ما هو غير هذا بدافع آخر ، فكان يملى حين يقسو عن طبيعة ، ويملى حين يعفو عن خلق عارض . وهكذا لم يأخذ « تيموجن » تلك المدن التى أسلمت إليه أمرها بعنف أو قسوة حتى لا يفسد قلوبهم عليه ، ولم يفعل غير أن ترك فى كل منها حامية ليؤمّن غزوه ويرهب من تحدثه نفسه بغدر .

وكما لان « تيموجن » مع هؤلاء الذين لأيَنُوه لينًا ليس فيه ضعف ، قَسَا بغيرهم ممن خاشنوه قسوة فيها عنف ؛ فيحكون عنه أنه ما كاد ينفض اليد من قتال القبائل المتمرّدة عليه حتى جمع إليه رؤساءها وزعماءها فقتلهم جميعًا لم يُبْق منهم ولم يَدع ، ثم أمر بالمحاربين فضمُّوا جميعًا إلى جيشه ، وبالسبايا فأُهدين إلى صفوة قواده وخيرة جنوده ، وأمر نساء المغول فتبنَّين الأطفال والصغار ، ثم صيرَّ أملاك القبيلة بعد هذا إلى أمراء جدد .

وهكذا كان « تيموجن » يمحو القبائل المعادية محوًا لا قيامة لها بعده ، لا يُبقى لها جيشًا ، ولا يَدع لها نَسلا ، ولا يترك لها مالا . وكما أفاد من قسوته مَددا لجيشه أفاد كذلك من لينه ، فما كان يأخذه عنفًا ممن عادوه أخذه عن رضى ممن سالموه ، وإذا بين يدى « تيموجن » جيش جرّار كثيف ، ظن أنه قادر به على أن يغزو العالم . وجمع «تيموجن » إليه الخانات ثانية إلى مؤتمر عام « كورلتاى » لانتخاب

رجل يكون إليه حُكم أواسط آسيا . وخف الخانات لتلبية نداء «تيموجن» من جميع أنحاء «الجوبى» . وهناك بالقرب من جبل «دليجون يولداك» مثلوا جميعًا بين يدى «تيموجن» فى سُتراتهم الطويلة وقد شُدت أوساطهم بمناطق رُصعت بالذهب والفضة . وانتصب «تيموجن» قائماً فى ظل اللواء ذى الذّيول التسعة يخطبهم .

وكان «تيموجن» مفوّها فصيحا فعرف كيف يملك مشاعرهم ، وكان داهية فعرف كيف يَستميلهم حين جعلهم شركاءه فى السرّاء والضراء ، وكان لَبِقًا حين وصفهم بالإخلاص له والولاء ، وكان جليلا حين كشف عن أمنيته فى أن يسود المغول العالم ، ثم كان حكيماً حين عقَّب يطلب إليهم اختيار رجل منهم تكون له السيادة على الجميع .

لقد كان هذا كله تمهيداً لانتخابه ، وكان هذا كله تزكيةً له ، فما تردد القوم عن أن يجُمعوا عليه سيداً وينادوا به رئيسًا . وهكذا خرج «تيموجن» من هذا الاجتماع سيداً على قبائل «الجوبى» كلها . وإذ كان المُلك عظيما كان لقب الخان به غير جدير ، لذلك نهض أحد العرّافين يختار لقبًا جديداً جليلا يتفق وهذا الملك الجديد الجليل ، وناشد الجميع أن يُسُمُّوا سيدهم باسم «جنكيزخان» ومعناه ملك الملوك وحاكم العالم أجمع .

وهلّل المجتمع لذلك اللقب العظيم مَزْهوِّين به فخَورين ، فهذا مجد ، وإن بدا «تيموجن» صاحبه وحده ، فهم فيه مشاركون .

وتوحّدت تلك القبائل التى عاشت مُتفرقة ، تُعين قوة قوة ، ويُساند رأى رأيًا ، وتؤازر موهبة موهبة ؛ فإذا الحاكم الجديد يملك شجاعة «القرايطة» إلى بطش «المركيت» وحكمة «الأُويجْوريين» إلى جَلَد «التندرا» ، وجموع «البورشيكون» إلى غيرها من حشود القبائل الأخرى ، يأمرها جميعًا فتأتمر ويُملى عليها فتنصاع . وفى غَمرة هذا الجاه الذى أصابه «جنكيز خان» وأصابه شعبه معه ، يعاود الناسَ إيمانهم القديم بأن الخان من سلالة معبودهم «اليوجود» الذى تولاّه ورعاه ، ولم يتخلّ عنه فوقاه الشر وجنّبه الضر وعبّد السبيل أمامه إلى المجد .

آلة الحكم

وهكذا أصبح « جنكيز خان » بعد مؤتمر « الكورلتاى » يحكم من صحراء « الجوبى » إلى « منشوريا » شرقا وإلى أرض « الخطاى » غربًا ثم إلى « سيبيريا » شمالا . وكانت تلك الرقعة الفسيحة تتباين مُناخا وطبيعة أرض ، تجمع ألوانًا من الشعوب وألوانًا من الأجناس ، هذا إلى لغات مختلفة وأديان متفرقة وطباع متنوعة وعادات مُتميِّزة . من أجل ذلك لم يكن عِبء «جنكيز خان » يسيراً ، إذ كان عليه أن يخاطب هؤلاء كلهم وأن يبلَغ إلى عقول هؤلاء كلهم .

ولكن « جنكيز خان » لم يكن جديداً على هذه البيئة بما ابتدع فيحملهم على نظام جديد قد يَستعصون عليه ولا يُسيغونه ، ويحمل نفسه على أمر جديد قد تخُونه فيه وسائله ولا تُسعفه . فلقد سبق أن اتحدت هذه القبائل يومًا ما وتزّعمتها أسرة « هيونج نو » بعد غارات متلاحقة ، حفزت هؤلاء الناس على أن يُشيِّدوا هذا السور ، سور الصين العظيم . ولقد خفّف هذا العبء شيئًا عن « جنكيز خان » فأفاد من تجارب من سبقه ، كما أفاد من تجاربه هو التى مرت به ، وكان ذا طبع سياسى فهيَّأه ذلك الطبع لحكم شعب كبير وتَدبير مملكة كبيرة .

وما إن اجتمع له الأمر حتى أخذ يُقَنِّن لهذا الشعب الكبير قانونًا عامًّا ينظّم له حياته ، فكانت « الياسّة » تلك الشريعة المغولية التى ضُمِّنت تجارب هذا الرجل وآراءه على مرّ السنين . وكان هدف «جنكيز خان » منها أن يجمع على الطاعة تلك الشعوب البدائية المتأبِّية ، وأن يصوّر لها العقاب هائلا فترهب ، وأن يُرغِّبها فى الألفة فتأنس ، وألاّ يتركهم فارغى اليد فتثور فيهم غرائزهم الكامنة ويعدو بعضهم على بعض .

وعلى هذا كان لزامًا على « جنكيز خان » وقد ملك هذا الجيش أن يُفيد من هذا الجيش ، وإلاّ فسوف ينقلب حربًا عليه إن لم ينقلب حرباً على نفسه ، وفى كليهما الخُسران والهلاك . وكان لزامًا على «جنكيز خان » قبل أن يهيِّئ جيوشه للغزو أن يعد نفوسها لهذا الغزو . وهو خَطيب مفّوه كما علمنا ، يملك القول النافذ والأسلوب الرنَّان ، ويملك الحجة ويملك أسباب الإقناع . فتحدث إلى قومه فأكثر ، وخَطبهم فأمعن ، يصوِّر لهم فى هذا وفى ذاك ما يُعانون من ضيق ، ويصف لهم ما فى الأراضى المجاورة من رخاء ليس بينهم وبين أن ينالوه غير أن يخرجوا إليه ، فإذا هم قد مَلئوا أيديهم منه مَلئًا . وأحسّ القوم ما هم فيه من ضيق فتحمّسوا ، وتطلَّعوا إلى ما ينتظرهم من رغَد فامتلئوا طمعًا ، ورأوا ما هم فيه من عُدة وقُوة فاستعجلوا الغزو .

لقد نظمت « الياسّة » صفوفهم فجعلت منهم جيشًا فيه تساند وفيه تعاون ، لا يتخلّ الجندى عن وُحدته ولا تتخلّ وُحدته عنه ، وعلى

كل وُحدة ـ وعدد أفرادها عشرة ـ ألا تخلّف وراءها جَريحًا ، وعلى كل مُحارب ألا يخرج عن المعركة إلا مع لوائه ، وعليه ألا تمتد يده إلى سَلب أو نهب قبل أن يأذن له قائده فى ذلك .

وكان الجيش وُحدات ـ كل وحدة عشر رجال ـ ثم فرَقًا كل فرقة «طومان» من عشرة آلاف ، وعليها رئيس «توبون» ، ثم الجيش من فيالق وعليه قائد «أرخون» . وكان من هؤلاء الأرخونات : «سابوتاى» و«موهولى» العجوز المحنّك و«شيبه نويون» القاسى العنيف ، وكثير غيرهم ممن كانت لهم غارات مشهورة وفُتوح مأثورة .

وكان لهذا الجيش سلاحه الوفير من حراب ودُروع ثقيلة تحفظ بمخازن أُعدّت له ، يُشرف عليها ضباط مسئولون عن صيانتها ونظافتها وصَقلها . حتى إذا ما كانت الحرب قام هؤلاء بتوزيع الأسلحة على الجنود ، ثم قام من بعدهم مفتشون «جرخانات» يستعرضون الجنود بعد أن ينتهى إليهم سلاحهم ، يستوثقون من استكمالهم لعدّتهم ، ومَن وجدَ مقصرًا أو مُهملا عُوقب . وإذا ما خرج الرجال إلى الحرب قام النساء بجميع ما عليهم ، يخلُفْنَهم فى جميع الواجبات إلى أن يعودوا .

لقد كان الخان يهيئ لجنده ـ الذين كانوا أخلاطا شتى ـ الفرصة ليعرف بعضهم بعضا ويُقرب بعضهم من بعض ، فكان لا يتركهم مع الشتاء قابعين فى خيامهم حول مدافئهم يقطعون الوقت الطويل فى حديث طويل ، سرَعان ما يجرُّهم إلى التنابذ والتنافر والتشاحُن ، بل

كان يخرج فى موسم الشتاء إلى القَنَص هنا وهناك فى طراد مُستمر وراء التياتل والظباء والغزلان والحُمر الوحشية . وجعل « جنكيز خان » ذلك قانونا من قوانين «الياسة » وجعل بَدْءه مع نزول الجليد ونهايته مع ظهور العُشب .

فإذا ما أهلّ الربيع جمع إليه قواده وضباطه فى مؤتمر عام يناقشهم فى أمورهم وفيما يحتاجون إليه ويَرضونه ، لا يُبيح لواحد منهم أن يتخلّف عن مجلسه هذا ، منذرًا من تحدثه نفسه بذلك بأن يُلْقَى به من عَلُ كما يُلقى بالصخر إلى الهاوية .

وهكذا قضى « جنكيز خان » على أسباب الشحناء بين رجاله فضَمنهم صفًّا واحدًا موحَّدا مؤتلفا ، وهيّأ لهم أسباب النظام فعَرفوا الحياة على لون جديد وأُسلوب مُبتدع ، وألزمهم بالطاعة فامتلأت بها نفوسُهم ، وعرفوها قانونًا ونظامًا فاتبعوه متعاونين ، ودربهم على مراحل القتال المُختلفة من هُجوم وانسحاب وزحْف ودفاع فَحذقوا هذا كله ، وأخذهم بالخُشونة وتحمُّل الصعاب فنَشئوا ذوى جَلَد وقُوة وصَبر ، يستوى تحت أرجلهم السهل والوعر ، والجبَل والبحر .

وكان « جنكيز خان » من الموحِّدين ، دَانَ بالتَّوحيد دينًا ، وضمَّنه قانونه « الياسة » وبه افتتحها حيث يقول : الله واحد خالق السموات والأرض مانح الخير والشر والغنى والفقر واليُسر والعسر ، واهب الحياة والموت يَفعل ما يشاء، الله القوى ذو القدرة الشاملة والمُطلقة من كل القيود .

وهو على هذا لم يُلزم رعاياه بما دَانَ به بل تركهم أحرارًا فيما يَعتقدون ، يجُلّ رجال الدين على أى دين كانوا ، ويحترم أرباب المِلَل على أية ملّة عاشوا. ولقد بلغ من احترامه لهؤلاء أن أعفاهم من ضريبة العُشور ، وأعفاهم من كثير من المُؤن والتكاليف التى كانت مُفروضة على من سواهم .

وهكذا استطاع « جنكيز خان » أن يقضى على سبب من أخطر الأسباب التى تهَيج الشر بين الناس وتُؤرِّث بينهم العداوة والبغضاء . وكما أسقط هذه المؤن عن كواهل رجال الدين أسقطها عن كواهل الفقهاء والزهاد والعلماء والأطباء ومن فى مستواهم .

فعل هذا كله « جنكيز خان » يريد أن يهيئ للحياة الفكرية سبيلَها ، فلا يُرهق أهلها فيشغلها ، ويريد أن يُفسح للحياة الفكرية مكانتها فى النفوس ، ويحُيط أصحابها بشئ من التقدير .

وهكذا تضمنت « الياسة » جملة من القوانين التى تُعنى بتنظيم العلاقات بين الناس بعضهم بعضا . ونحن نُجمل لك شيئًا من ذلك لتعرف على أية حال كان هؤلاء القوم ، وأيّة حياة كانوا يحَيَوْن ، فكان مما جاء فيها :

ليس لمواطن ما أن يتخذ مغوليًّا خادما له أو عبدًا .

من وَجد أسيرًا هاربًا أو عبدًا آبقًا ولم يرُدّه قُتل .

جزاء الزانى أو الزانية الذبح .

ليس لأحد أن يتناول الماء بيده بل عليه أن يَغترفه بإناء .

مَن بال فى الماء قُتل .

إياك وشرُب الخمر فوق ثلاث مرات فى الشهر . ومن الخير لك ألا تشربها أبدًا . فإن مَثل السكران كمثل من أصابته ضربةٌ على أُمِّ رأسه ففَقد وَعيه .

ليس لأحد أن يأكل وغيره يراه دون أن يُشركه فى الأكل .

مَن مرّ بقوم يأكلون فله أن يُلم بهم ويؤاكلهم وليس لهم مَنعْه .

القتال بين المغول بعضهم بعضًا محُرم .

من وقع عنه حملُه أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى القتال وكان من خلَفه غيرُه فعليه أن يترجل ويُناوله ما سقط منه ، فإن لم يفعل قُتل .

كل من لا يشارك فى القتال فعليه أن يُؤدى للإمبراطورية خدمةً مَا دُون جزاء لفترة معيّنة .

* * *

وبعد فقد كانت للقوم عادات وتقاليد تُلقى هى الأخرى أضواء على حياتهم ، فلقد كانوا يحرِّمون على أنفسهم غَسل الثياب ويَلبسونها حتى تَبلى .

وكانوا يُعدّون الأشياء كلها طاهرة وليس ثمة شىءٌ نَجس .

وكانوا إذا قَدَّم أحدهم إلى آخر طعامًا أو شرابا فعليه أن يتناول منه شيئًا أولا قبل تقديمه ، ليُلقى بذلك الأمن فى نفس صاحبه .

وكانوا إذا أرادوا ذَبح الحيوان شدُّوا قوائمه وشقُّوا جوفه ثم أدخل

الذابح يدَه إلى قلب الحيوان ليمرسه أو يخرجه .

وكانوا يَشربون دماء الحيوان .

وكانوا يخشـون الرعد ويَفْرَقـون منه ، حتى لقد كـان الخوف يَدفع بأحـدهم مـع الرعد إلى أن يَقْـذف بنفسه فى الماء اتقـاء غضب السماء ، ومن هنا كانت « اليـاسة » تحرِّمَ الاستحمام ولمس الماء خلال العواصف ذات الرعد والبرق .

وهـم على هذا كـانوا يدينون بـالصدق ، لكلمتهم قداسـة ، يَقْصد أحدُهـم إلى الخان يطلـب إليه أن يَقتصَّ منه على جُرم لم يَـره أحد مُتلّبسا به ، كما كانـوا مُتعالين على غيرهـم فيهم كِبر وفيهـم غطـرسة ، ينظرون إلى مَن سواهم نظرة ملؤهـا الاحتقار والازدراء ، لهذا عدّوا اعتداءهـم على غيرهـم من البشر شيئًا غير مُنكر ، بل غالَوْا فعدّوه جزاء عادلاً .

نحو الشرق

خلال القرن الثانى عشر كانت تسود الأقاليم الشرقية من آسيا مَوجات من الفوضى والاضطراب ، فلم تذُق تلك الربوع الطَّمأنينة يومًا ، ولم تنشر السكينةُ ظلالهَا عليها . فلقد كانت الأسرات المتطلِّعة إلى الحكم فى نزاع مستمر حول الغلبة على السلطان ، لا تكاد تتبوَّؤه أُسره حتى تشور بها أخرى ، والشعب بين هذه وتلك هائج ، فريق مجَذوب إلى هؤلاء وفريق مجذوب إلى هؤلاء ؛ يَصْلَىَ بعضُهم شر بعض ، ويعدو بعضهم على بعض .

وفيما بين عامى ٩٦٠ ـ ١١٢٧ م كانت أسرة « صُونْ » * ـ وكان الحكم إليها بالصين ـ قد بلغت من الانحلال حالاً أطعمت فيها قبائل « الخطاى » التى كانت تنزل إلى الجنوب من « منشوريا » فى إقليم يعرف من قبل باسم : «لياو » ، ويعرف الآن باسم : « كوريا » . وما إن

---

* Sung أسرة صون حكمت الصين من عام ٩٦٠ إلى ١٢٧٩

غزت قبائل « الخطاى » * هذا الأقليم حتى أرغموا الأسرة الحاكمة، أُسرة « صُونْ » على النزول لهم عن الأرض الممتدة وراء سور « الصين » العظيم .

وحين تم لهم ما أرادوا ضموا تلك الأرض إليهم ، وأقاموا عليها أسرة منهم تحكمها ، هى أسرة « لياو » ومعناها فى لغتهم : « الحديد » ولكن سرعان ما غَشيت المدينة بزُخرفها وبهرجها تلك الأسرة البُدائية الحاكمة فانغمست فى الملذّات والشهوات ، وخرجت بها حياة التّرف والرفاهية عن حياتها الخَشنة الجافية ، ففقدت بأسها وطرحت جانبًا روحها الحربية، وأُنسيت ما كان لها من مراس وكِفاح ، وإذا هى على حال من الخَور والضّعف تُتيح لخصومها الذين كانوا يتربصون بها الدوائر أن يثوروا بها .

وفى مقاطعة من مقاطعات « منشوريا » كانت تنزل قبيلة « الكين » ومعناها فى لغتهم « الذهب » . وكانت تَدين بالولاء لأسرة « لياو » وتخضع لها، غير أن الترف الذى أفسد على أسرة « لياو » حياتها لم يُفسد

---

* Cathay هو الاسم الذى عُرفت به الصين خلال العصور الوسطى، وهو مشتق من كلمة خيطان Khitan الصينية وكيطاط Kitat المغولية وخطاى العربية. وكان أول من أزاح الستار عن هذه الأسماء فى أوروبا قسيسان من الفرنسسكان زارا قره قرم عاصمة الامبراطورية المغولية عامى ١٢٤٦ ، ١٢٥٤

على أسرة «الكين» حياتها ، وعـاشت فى بـداوتها تَستملى من خُشـونتها قُوة ، وتستملى من حفاظهـا على تقاليدها بأسًا . وأخـذ الزمن يسلُب أُسرة « ليـاو » ويعطى أسرة « الكين » فـإذا هـؤلاء أقـوياء وإذا أولئـك ضعفاء . وما دان الناس للناس إلا حين يَـرَونهم أعزّاء أقوياء عليهـم ، فإذا هـانوا هان ولاؤهم لهم وانقلـب طُموحًا إلى التحرُّر وطُمـوحًا إلى الغلبة . وهكذا استحال المغلوبون غالبين ، وأُتيح لأسرة « الكين » أن تستأثر بـالسلطان دون أسرة « لياو » ، وأصبحت صـاحبة السيادة على إقليم «الخطاى » فى عام ١١٢٥ . وكما استكانت أُسرة « صُونْ » لأسْرة « ليـاو » استكـانـت لأسرة « الكين » ، دفعت إليهـم الجزيـة صـاغـرة كما كانت تدفعها من قبل لأسرة « لياو » .

* * *

وكـان دأب ملوك « الخطـاى » أن يفـرضـوا الضرائب على من هـم خارج السور العظيـم من بدو . وكان هؤلاء البدو فى شَـدّ وجَذب مع أولئك الملوك ، لا يؤدّون إليهم ما فَرضوه عليهم إلا حين يحُسّون منهم قُوة وبأسًـا ، فإذا ما أحسُّوا منهم الضعف والهوان امتنعـوا عن أداء ما فرضـوه عليهم ، ولا يقفـون عند هذه بـل كانـوا يجاوزونها إلى أخرى أشدَّ هولا ، فيخرجون مُغيرين على السور العظيم . عندها كان هؤلاء الحكام لا يجدون بُدًّا من استرضائهم ، فيُغدقون عليهم الهبات والهدايا من غلال وفضة وخمر مُعتقة ومنسوجات حـريرية لكى يَصرفوهم عن حَربهم ويأمنوا شرهم .

وتطلع « جنكيز خان » إلى ذلك الإقليم الذى تفرض عليه أسرة «لياو » سلطانها ، يريد أن يضمه إلى ملكه ، فهؤلاء البدو الذين ينزلون إلى الشرق من « الجوبى » والذين تعدهم أسرة « لياو » من رعاياها ، هم إليه وهو خاقان عليهم . وتلبّث ينتهز الفرصة للإيقاع بخصمه . ولم تغب تلك الفرصة طويلا ، إذ لم تكن الحال بين أسرة « صُونْ » ، وأسرة « لياو » مستقرة ، فكانتا لا تهدأ بينهما حرب . وفى غمرة من تلك الغمرات فزع الامبراطور الصينى بالمغول ، وأرسل إلى « جنكيز خان » يطلب منه العون . وهنا خفّ « جنكيز خان » إلى عونه وأمدّه بجيش من جُنده على رأسهم «شيبه نويون » ذلك القائد المحنّك المغوار. وأبلى الجيش المغولى خَير البلاء ، ووطئ أرضا لا عَهد له بها من قبل ، غنىً وثروة وجاهًا ، فأُخذ بمحاسنها ومفاتنها . فلقد كانت الحياة هنا غَيرَ الحياة التى ألفوها فى أرضهم . فهذه حياة قد أخذت بحظ من الحضارة والمدنية والعلم ، وتلك حياة بادية جافية لا تعرف غير القِباب والخِيام . وهكذا كانت الحياة هنا تُباين الحياة هناك خلف السور العظيم تباينًا تامًّا .

وعاد الجند من حَملتهم تلك وفى رؤوسهم الكثير مما رأوْا وشاهدوا ، يذكرون هذا الخير العميم الذى ينعم به القوم ، ويذكرون ما رأوا للقوم من عِلم وفن . ويذكرون ما رأوا للقوم من رفاهية وحضارة ، ويذكرون مَا رأوا للقوم من جاه وغنى ، ويذكرون لهم كيف يعيشون وكيف يلبسون وكيف يلْهُون . وكما عاد هؤلاء الجند بهذا عادوا



الخطا فى القرن الثالث عشر

يَرْوُون ما للقوم من بَاع فى الحرب وعلم بفُنونها . فلقد رأوْهم قومًا يجيدون الرمى بالسهام ، ويجيدون رَكوب الخيل ، ولكنّ حياة المدن صرفتهم عن هذا إلى غيره من وسائل الدفاع ، فأقاموا الحصون والأسوار حول مدنهم يدفعون بها عن أنفسهم ، ويَجعلونها عُدتهم فى رد خُصومهم عنهم واستكانوا إلى الدّعة والرغد ، وعاشوا طبقات : منهم الحُكام ، ومنهم النبلاء ، ومنهم العلماء والتجار والصناع ، ومنهم العَبيد ، ومنهم الكهان ، ومنهم الجند ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا الامبراطور الذى كانوا يعدونه ابنا للسماء ، تحيط به حاشيته التى كانوا يُطلقون عليها : سحب السماء .

ولقد رأى هؤلاء الجند لأهل « الخطاى» عربات للقتال تجرُّها الجياد ، لم يكن اعتمادهم كله عليها وإنما كان اعتمادهم على أقواس لهم ثَقيلة ، تعوز كل قوس منها عشرة من الرجال الأشداء لجذبها لتنطلق عنها سهامُها الهائلة ، هذا إلى مجَانيق لهم أُعدت لقَذف الأحجار وأُخرى لَقذف اللهب والحمَم ، لم يكن من اليسير عليهم تفَهّم كُنهها . كما رأوهم يَستخدمون البَارود فى الحرب بعد أن كشفوا عنه . وهكذا رأى هؤلاء الجنود من أسباب القتال مثلَ ما رأوا من أسباب الحضارة ، شيئًا جديدًا يقوم على علم ويقوم على دراسة .

ملكت هذا كله جَيوش « الخطاى » ولكنها حين انغمست فى الترف ، وترك امبراطورها الحبل على الغارب لقُوّاده ، و عكف هو على ملذّاته فى مقر ملكه «ين كنج « أطمع فيهم هؤلاء البدو من خلف

السور ، يَشنون عليهم الغارات ويُوالون الهجمات .

بهذا كله عاد هؤلاء الجند فإذا حديثهم يحرِّك النفوس إلى غَزو يُشبع البطون الجائعة ، ويملأ الجيوب الخاوية ، ويكسو الأجسام العارية ، ويُتيح للقوم الجفاة عيشًا رغدًا وحياة لينة . وسَعَوْا سعيهم لدى قائدهم «جنكيز خان » يُغرونه ويَستميلونه إلى رأيهم . غير أن « جنكيز خان » ما كان يُملى عن شهوة وإنما كان يُملى عن رأى ، وما كان يملى عن هوى وإنما كان يملى عن تدبير ورويّة ، وما كان لقائد محنَّك مثله أن يقذف بجيشه إلى الشرق دون إعداد فيعود آخر الأمر بهزيمة تُغرى به أعداءه الذين لا يزالون يتربَّصون به الدوائر للقضاء على ملكه الناشئ .

لقد كانت « الجوبى » له ولكن خُصومه كانوا يُحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم ، فمن الجنوب تقع « هيا » دولة اللصوص وقطاع الطرق الذين يسكنون الكهوف والمغاور ، ومن الشرق مملكة «الخطاى» التى وصفها المغول بالسوداء بغُضًا منهم لها وكراهية . وكانت تضم قبائل التركستان ، ومن وراء الخطاى السوداء جيوش «القرغيز » الذين كان يحميهم تجوالهم فى الفيافى من أن تقع عليهم قبضة المغول .

لقد حسب « جنكيز خان » حساب هذا كله قبل أن يستجيب لقُوَّاده اللهفين إلى الغزو ، وأخذ يتعرَّف ما عند أعدائه من قوة وما عندهم من ضعف ، حتى إذا ما استوى له الرأى أعّد جيوشًا ثلاثة ، على رأس أولها «شيبه نويون » وقَذف به إلى « القرغيز » وعلى رأس ثانيها

«سابوتاى» وقذف به إلى الخطاى السوداء ، وجعل رياسة ثالثها إليه ، وخرج به يُصوِّب صوب مملكة «هيا» يريد أن يشغل خصومه ويُشتت جهودهم فلا يَقوون على التجمع عليه .

ولقد تحقق لـ «جنكيز خان» ما أراد ، فخرج إليه أهل «هيا» يطلبون الصلح ، وإذ كانوا مغولاً مثله أجابهم إلى هذا الصلح ، وأصهر إلى الأسرة الحاكمة فتزوج فتاة منهم يريد أن يستأنسهم ويجعل بينه وبينهم ألفة ورباطًا . وما كُتب لجيش «جنكيز خان» كُتب للجيشين الآخرين شيء مثلُه أو قريب منه ، فقد طلبت جيوش «القرغيز» إلى «شيبه نويون» الصلح ، وكذلك فعلت جيوش «الخطاى» السوداء . وهكذا عادت هذه الجيوش الثلاثة ـ بعد أن أمّنت حدودها ـ وقد أفادت خبرَة وأفادت تجربة ، وداست تلك الأرض فَخبرت طبيعتها وأُحيطت بها علما ، ثم هى بعد هذا وذاك قد كسبت أنصاراً وضمّت حلفاء .

وبمَوْت امبراطور «الخطاى» وَلِىَ ابنه «واى وانج» ابن السماء ، منْ بعَده عرش «الكين» ، وكان ماجنًا لاهيًا مغروراً ، فأرسل رسله إلى مَنْ تحت يده يجمعون له الضرائب ، لم يستثن منهم «جنكيز خان» إذ كان يراه من هؤلاء البدو الذين يعيشون خلف السور العظيم عليه ما عليهم .

ووافت الرسل «جنكيز خان» وهو فى قُبته بهضاب «الجوبى» ، وقد علم بوفاة الخليف وقيام ابنه المغرور مكانه فلم يدهش . غير أنه

أراد أن يردّ تلك الإهـانة التى أحبّ أن يُلحقها به هـذا الملك المغرور ، فلم يتلقّ الرسل بما يجب عليه لهم ، والتفـت إليهم بعد أن تسلّم كتاب مليكهم وعَرف ما فيه ، يهوّن من شأنه ويُعلن التمرد عليه .

وكذلك أعلنهـا « جنكيز خان » حربًـا صريحة على ابن السماء « واى وانـج »، ومَن فَعـل فعل « جنكيـز خـان » كان عليـه أن ينظُر فى أمـره ويتدبّره ليأخذ عُدَّته لكفـاح أو دفاع . ودعا « جنكيز خان » إليه قُواده ليروا معه ما هم فاعلون . وأراد ألا ينفرد بحرب ابن السماء وألا يجعل وزرها عليـه وحده ، فـأشرك معه حليفيـه الجديديـن . وهكذا خـرج «جنكيز خـان » من هـذا الاجتماع العَجِل وقـد ضمّ إليـه أهل « هيـا » ورجال « القرغيز » على حرب «واى وانج » .

وكـانت رسـل « واى وانـج » مُقيمين لم يبرحـوا ، انتظاراً منهـم لما سيحمِّلهم إياه « جنكيز خان » إلى مليكهم ، وحين مَثلوا أمام « جنكيز خان » حمَّلهم رسـالة قاسية فيهـا إهانة صريحة . ورجع الـرسل إلى ابن السماء بتلك الرسالة المهينة فثار لها ، وكانت ثورته أكبر حين استمع إلى نـائبه على مـا وراء السور العظيـم يحُدِّثـه عن بطـش المغول ومقـدرتهم الحربية . فلقد عدّ ذلك منه تهْوينًـا لأمره وتمجيدًا لعدوه ، فقذف به فى السجن مُغضبًا ثائرًا .

وانتهى إلى « جنكيز خان » ما كان من ابن السماء من ثورة ، وما كان منه مـن تَنكيل بنائبه فى إيـداعه السجن ، فعلـم أنه لابد فاعـل شيئًا . وأراد «جنكيز خـان » أن يُمعن فى الحيطة ، وأراد أن يطعـن ابن السماء

فى حُلفائه وأوليائه قبل أن يطعنه فى نفسه .

وقد مرّ بنا كيف انتزعت أسرة « الكين » السلطان من أسره « لياو » واستأثـرت بالملك دونها . ومـا هو بهينٍّ على « لياو » مـا خسروا وما فى مقدورهم أن ينسوا .

ذكر ذلك « جنكيز خان » ففكّر فى أن يُفيد من تلك الخصومة ، وما عليـه إلاّ أن يثيرهـا ويهيجهـا . ومـا على أسرة « ليـاو » مـن بـأس أن تستَجيب إن أمنـت الشر . من أجـل ذلك أرسـل « جنكيز خـان » إلى أسرة « لياو » رُسله يعرض عليهم عونَه ليكـونوا معًا حربًا على عدوهم المشترك . وسرَعان ما استجابت أسرة «لياو» فتم التحالف . وسرعان ما أُمضى هذا الحلف بقَطرات مـن دم المتحالفين تَوثيقًا للعقد وإجلالا له .

وحين ثار ابن السماء بنائبه لم يَنته بثورتـه عند ذلك بل تجاوزها إلى ما هو أكبر ، فـإذا هو يـأمر بخروج قُـوة مسلحه لتـأديب ذلـك المُتمرد . وتبلغ «جنكيز خان » الأخبارُ فيستعد هـو الآخر لمُلاقاه عدوه ، ولكنه كان على علـم بمناعة السور العظيم ، ولم يكن فى استطاعته أن يجتازه ، فأرسـل عُيونه لتخبره وتتعـرّف أبوابه ومـداخله وتتحسّس جـدرانه . وتعود الـرسل تخبر «جنكيز خان » أنـه حَتْم عليه أن يَلج الأسـوار من أبوابها إذ أن مناعة تلك الأسوار أقوى من أن ينفذ منها .

وقبل أن يمضى « جنكيز خان » فى اقتحام السور وولوج أبوابه رأى أن يُمهد لذلك الهجوم بمُقدمات يُفيد منها قبل أن يقضى أمرا ، فبعث

بنفر مـن رجاله ، منهـم التجار الذين يسهـل عليهم الدخـول إلى هذه المدينة المنيعة ، ومنهم الفرسان الذين تظاهروا بالفرار من ظلم «جنكيز خان» . بعث «جنكيز خان» هؤلاء وهؤلاء وزوّدهم بما يُحبّ منهم أن يفعلوا ، وكان همّه أن يتعرف ما عند عدوّه بما ينقلُه إليه هؤلاء التجار ، وأن يقـع على نفر مـن المحاربين فى جيـش عـدوه ، ينقُلهم إليـه أسرى فرسانُه الـذين ادعوا الفرار . وتـم « لجنكيز خان » مـا أراد فقد عاد إليه التجـار بشىء ، وعـاد إليه فـرسانـه برجـال من المحـاربين استطاعـوا أسرهم ، وما إن استنطقهم «جنكيز خان» حتـى أفضوا إليه بالكثير ممّا يرغب فيه .

عندهـا خرج « جنكيز خان » للغـزو تتقدّم جيشَه كشـافة تسير على مسافات بعيدة أمام الجيش لتؤمّـن مسيرة زحفه . وكان فى إثر الكشافة مقدمـة من الجيـش تضمّ فـرقًا ثلاثًـا ، قوامهـا كلها ثـلاثون ألفًـا من الفُرسان الشجعان ، لكل فارس جوادان ، يركب واحداً ويقود واحداً إلى جَنبه ، وعلى رأس تلك المقدِّمة قُواد ثلاثة محنَّكون هم : «موهولى» و « شيبه نـويون » و«سابـوتاى » . وكـان يسبق هؤلاء وهـؤلاء عُيون للجيـش « طـابـور خـامـس » همُّهـم أن يُغْـرُوا الحُراس القـائمين على الأبواب ، ولقـد استطاعوا . فما إن وصلـت المقدمة حتـى انفتحت لها الأبواب وفى إثرهـا اندفعت القُوة الـرئيسية من الجيش بجَنـاحيها ، فى كُل جناح خمسون ألفًا من الفرسان ، وفى قلبها مائة ألف من المُقاتلة من قبيلة « يكا » قبيلـة « جنكيز خان » ، هذا إلى ألف من الـرجال الأشداء

كانوا حرسَ « جنكيز خان » الخاص يمتطون جيادهم السوداء.

ويكون أن هذا الجيش ــ أعنى جيش « جنكيز خان» ـ أول من ابتدع التخاطب بالأعلام . فعل ذلك «جنكيز خان » حين رأى أن الطبول والأبواق يضيع صَدى أصواتها فى ساحات القتال الفسيحة . هذا إلى أن الأعداء كانوا يفهمون المُراد منها فى بعض الأحيان فيفسدون على الجيش المُحارب خططه. وبهذه الوسيلة الجديدة التى لا يفهمها العدوّ كان اتصال الكشافين بالمقدّمة، والمقدمة بالجيش الرئيسى ، والقلب بالجناحين ، على خير حال .

واقتحمت جيوش « جنكيز خان » الأبواب وجازت السور العظيم لتَلقى القوات المرابطة خلفَ السور فتهاجمها على غِرة وتُنكِّل بها نكالا شديداً. عندها أصاب الفزعُ والهَلَع تلك القواتِ فانسحبت تحتمى وراء أسوار المُدن الداخلية ـ وكانت تلك عادتهم منَذ الأزل ـ وأخذوا يَرمون هؤلاء المهاجمين بوابل من السهام ، ويصُبّون عليهم ناراً تقذف بها قاذفاتُ اللهب.

هكذا فعلت قوات العدو وكادت تُعوّق تقدُّم « جنكيز خان » وكادت تردُّه على أعقابه . غير أن جواسيس المغول وفُرساهم المتنكِّرين كانوا قد انبثوا بين صُفوف المحاربين فملأوا القلوب رُعبًا والأفئدة ذُعراً ، فإذا تلك القوات الرابضة خلف الأسوار تَنكسر وتنخزل .

وكان الامبراطور قد أرسل جيشًا للقضاء على عدوّه ، وخرج هذا الجيشُ زاحفًا للقاء « جنكيز خان » غير أنه ضلّ الطريق واحتوته

المتاهات ، وانتهى إلى «شيبه نويون » علْم هذا ، وكان ممن جاسوا تلك الأرض من قبل وعرفوا مَعارجها وطُرقاتها ، فجرى فى إثر ذلك الجيش الضالّ يبحث عنه . ومع الفجر أطبق « شيبه نويون » بجيش الامبراطور على غرة وأباده عن آخره غير شراذم قليلة فرّت عَجلة طائشة على غير هُدَى ، فضربت فى البادية ما ضرَبت ثم انتهت إلى المدينة فنشرت الخبر ، فإذا الذُّعر يَعُم وإذا الهَلَع يَسود وإذا القوات الرابضة خلف الأسوار يُصيبها ما أصاب القوم ، هذا إلى ما أصابها من قبل من فعل جواسيس المغول ، فتتخلّ عن أماكنها وتترك الأسوار دون دَفاع . وإذا الهَرج يسود المدينة ، وإذا كلهم فارٌّ وكلهم متعثّر، لا يعرفون إلى أين يأوون ، والمغول فى إثرهم يقتلون ويسلبون ويأسِرون، مُدمّرين هادمين .

وأصبح « جنكيز خان » يومًا فإذا هو فى زحفه تلقاء مُدن ، منها «تايتونج فو » أكبر مدن الغرب و « ين كنج » ، وقد اجتمع خلف أسوارهما صَفوة من القواد ، وصَفوة من الجنود ، وإذا حاميات تلك المدن تزيد يومًا بعد يوم ، بما ينضم إليها من الجنود الراجعين . ونظر «جنكيز خان » فى أمره فإذا هو بين يدى الخريف بزوابعه وعواصفه الثلجية ، وخاف على جيشه أن يقضى عليه البرد ، ورأى نفسه أمام قُوات تتزايد ، فقرر العودة بجيوشه إلى « الجوبى » ، تلك الصحراء الفسيحة حيث أهلُه وعشيرته ، ليريُح جنده ويستريح هو ويُعدّ العُدة لغزوة قادمة .

غير أن المغول ما كادوا يَصلون إلى صحرائهم حتى أخذ أهل الصين فى تقويه حصونهم وإعداد أسلحتهم وقاذفاتهم ، واستجلبوا القوات من كل حَدَب وصَوْب . وأهلّ الربيع وعاد إليهم « جنكيز خان » غازيًا ، غيرَ أنه وجَد الأمر على غير ما ترك ؛ فقد رأى نفسه أمام قُوىً أكثر تسليحًا ، ووقف الخان تلْقاء مدينة « تايتونج فو » يُضيِّق الحصار عليها ويهاجمها يومًا بعد يوم عَنيفًا فى هذا الهجوم . وخاف الامبراطور أن تَذل االمدينة أمام هُجُوم الخان ، فأرسل جيشًا ليرُغم الخان على فكّ الحصَار عن المدينة . غير أن الغازى التفت إلى الجيش الزاحف ودمّره تدميرًا ، فألقى بذلك درسًا قاسيًا كان له أثره فى نفوس أهل الصين ، وجعلهم يُؤمنون ألاّ مكان لهم إلاّ وراء الأسوار ، فقَبعوا خلفها وجلين .

وأقبل الخريف مرةً ثانية ، وإذا الغازى يُصاب بسهم فى ساقه ، فحَمله قومه راجعين إلى صحراء « الجوبى » يَرون مع الخان أنهم فى حاجة إلى مزيد من جند ، كىْ تُكتسب لهم الغلبة على تلك المدن المحصَّنة .

وعلى حين لم تَذل « تايتونج فو » أمام هجمات الخان أفلح « شيبيه نويون » فى الاستيلاء على مدينة « ليا ويانج » فى مملكة « لياو » . ولعل الذى يسَّر على هذا القائد استيلاءه على تلك المدينة أنها كانت تُعانى حصارًا قام به جنود « الخطاى » من أُسرة « الكين » فمدَّت المدينة يدَها إلى «جنكيز خان » تطلب العون فى تلك المحنة ، وأرسل الخان قائده

«شيبه نويـون » فحاصرها هو الآخر . وهكذا ضُــرب على هذه المدينة حصـاران : حصـار تضربـه جيوش « الكين » ، وحصـار مـن خلفـه تضربه جيـوش «المغول». ويجد « شيبه نـويون» أنه لا طـائل وراء هذا الحصـار ، فإذا هـو يمهد لـذلك الفتـح بحيلة ابتـدعها وجـازت على المحاصريـن . فيقولـون إنه لما طـال الحصار ووجـد أن قواتـه لا تُغنى انسحب تاركًا مَضاربه وخيامه وثيرانه وعرباته ، وأمعن فى الانسحاب يـومين وليلة . وأطَـلّ الجنـود المحاصريـن فـرأوا مـن تحتهم معسكـر «المغول » عامرًا بما فيه ، واطمأنوا إلى أن المغول قد أبعدوا فى السير ولن يعودوا ففتحوا أبوابهم ونزلوا عـن حصونهم يسلبون وينهبون . ولكن «شيبه » كـان ماكـرًا ، فما كاد يرى أن المدينـة قد فتحـت أبوابها ، وأن الجند قـد نزلـوا عن حصـونهم ، حتى امتطـى جُنده خيـولهم السريعة العـدو ، وعادوا مـع الفجر إلى معسكـرهم الـذى تركـوه منذ يـومين وأحاطوا بالجنود وهـم عُزَّل ينهبون ، فأعملوا فيهم السيُّوف يذبحون . وكانت معركـة رهيبةً كاد يفنى فيها جيش « الخطـاى » ، ووجد المغول الأبواب مُفتَّحة فاقتحموها فى يُسر .

* * *

لقد علم « جنكيز خان » أن الصينيين يَدينـون لامبراطورهم بالوَلاء والطاعة ، فهم لـذلك يُفَدُّونه بحياتهم ويتفانَـوْن دونه ، ولقد عَلم أنّ هم تلك الجُدران المنيعة التى تُعوِّق الجنود المُهـاجمة وتضطرها للوقوف أمـامها أيـامًـا وليالى فى العَـراء ، وقـد يطول بها الـزمـن فتفنى مُـؤَنُها

وتتعرّض للهــلاك . ولقد علــم أن مُدنها متبـاعدة تفصــل بينها فيـاف واسعة تَضطرّ الجيش المُهاجم إلى عنـاء كبير وجَهد طويل . ولقد علم أنه إن عـنَّ له أن يترك بها حاميات فسـوف يكلّفه ذلك عـددًا كبيرًا من الجُند ، ومـا هو بمُستطيع ذلك . مـن أجل هذا كله انسحـب « جنكيز خان » بجيوشه مكتفيًا بأن يشُن غـارات مُتتالية متلاحقة ليبُث الفَزع فى القلوب ويترك الصينيين على أُهبة مُستمرة ، لاهـم فى سَلْم فيطمئنوا ، ولا هم فى حرب فيعيشوا عيشةَ المُحاربين .

وعلى الرغم من هـذا الفزع ـ فزع الاستعداد للحرب ـــ فلقد عاش الصينيون فى فَزع آخـر ، إذ كانت الأسرة الحاكمة فى صراع عَنيـف مع عصـابـات الفلاحين ذوى الأرديـة الحمـراء ، التـى كانَ همُّهـا إنقـاذَ الشعب البـائس من طُغيـان الفئة الحاكمـة التى نعمـت بالثـروة والجاه وتـركت النـاس يتضوّرون جُـوعًـا . فعلى حين كانـت القُصور تَعـجّ بالطعام والخُمور كان الناس من حـواليها صرعى فى الطرقات ، ما بين ميت قد أهلكه البرد ، وهالك قد شَفّه الظّمأ وأرداه الجوع .

وفى عـام ١٢١٤ خرج « جنكيـز خان » لغـزو الصين قـاصدًا « يَـنْ كنـج» ، وكان خـروجه هـذه المرة يحمل معنـى آخر غير تلـك المعانـى السابقـة ، فلقد خرج فى جيـوش ثلاثـة ، يقُود الأول ابنه « جـوشى » مخترقًـا جبال «خـونجان» الـوعرة لينضـّم إلى جيوش « ليـاو يانـج » ، وكانت جيوش «الخطاى » قد عاودت حصارها . ويقود الجيش الثانى أولادُ الخان قاصدين التوغّل نحو الجنوب فى الأراضى الصينية . وقاد

الخان نفسه الجيشَ الثالث زاحفًا إلى «يـن كنج » يريد أن يقتحمهـا من خلفها .

وتقدمت الجيوش الثلاثة تكتسح مـا أمامها كَسْحًا فى عُنُف السيول وسرعة العـواصف ، فخضعت أمام جبروتها البلـدان الكبيرة وفتحت لها أبوابها . وفى هذه المرة كان المغول يسوقون أمامهم أسراهم يقدِّمونهم دونهم قبـل الهجـوم على المُدن الجديـدة ، التى مـا تكـاد تـرى هـؤلاء الأسرى حتى تفتَح لهم الأبواب . وما يكـاد يدخل هؤلاء الأسرى من الأبواب حتى يكون «المغول » فى أعقـابهم يقتحمون الأبواب ويقتلون الحُراس . لقـد قسا «المغـول » فى غـزوتهم تلك قسـوةً بـالغـة فأبـادوا ودمَّروا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا وأسروا . ودخلوا الصين دخولَ ملَك الموت يختطف الأرواح اختطـافًا فتركـوها يبَابًـا خرابًـا ، انتشرت فيها الفوضى وعَمّت المجاعات وخيَّم الخراب .

وعلى الرغم من ذلـك فقد بقيت « يَنْ كنج » قائمة تـدفع عن نفسها بأسـوارها ، فجمـع « جنكيز خـان » قواتـه وضرب خيامـه قريبًـا من أسوارها ، وزيّـن له رجالُه أن يشُنّ عليهـا غارة صادقة خـاطفة لعلّها تذل له وتفتـح له الأبواب قبل أن يحُل الخريـف فيعوقَه حلولُـه عن أن يفعَـل شيئًـا ، ولكـن «جنكيـز خان » نظـر فـإذا المرض يفتـك بخيلـه وجنوده ، وإذا القوت قليـلٌ والإنهاك قد غلب الرجـال ، فلم يستطع أن يقوم بهجوم ، كما لم يستطع أن يثبت لإغراء المُتحمسين ، فاستدعى إليه كاتبَه وأملىَ عليه رسالة إلى الامبراطـور يقول له فيها : « إنى راحل

عنك غير أنّى أشترط لـرحيلى أن تهُدى إلى قوادى وجُندى ما يُـرضيهم من الهدايا » .

وتصل تلـك الرسـالة إلى الامبراطـور فيجمع إليـه أمراءه ووزراءه يستشيرهم ، فـإذا هم يُشيرون على الامبرطـور بمواصلـه الحرب ضد «جنكيز خان » .

وكان لهؤلاء الأمراء ـ لا شك ـ رأيهم فيما أشارو به ، فلقد أيقنوا أن هذه الرسالة لا تكون إلا عن ضَعف ، وهم من قبل ذلك قد علَموا أن الأمراض قـد فتكت بجنـد الخان وخيله ، ولكـن الامبراطور الهَلـِع لم يستجب لأمـرائه ولا لوزرائه وأمر بـإرسال الهدايا إلى « جنكيـز خان » من كل ما عَز وطاب من خيول صافنات ، ونساء فاتنات ، وأحمال من الذهـب والحرير ، وغلمان جاوزوا الخمسـائة عداًّ . وبعث مـع الهدايا برسالة إليه يفاتحه فى الهُدنة ويتعهد بألا يقاتل حليفًا له .

ويقبل « جنكيـز خان » مـا أهداه إليـه الامبراطور ، ولكنـه يَمضى فيطلب شيئًا آخر فـوق ما أُهدى إليه يعُدّه شرطًا لقبـول الهدنة ، وكان هذا الشىْ الذى طلبـه عَروسا تُزف إليه من أسرة الامبراطـور لتوثّق ما بينه وبين الامبراطور من صلة . وبعث الامبراطور إلى الخان ما طلب ، عـروسـا يحُفهـا الحراس ومـن خلفهـا الهدايـا والإمـاء ، فضـم الخان العـروس إليـه ، وحمل كل مـا أهـدى إليـه وعـاد فى جيشه إلى رمـالـه المُحببّـة . غير أنه كـان قـاسيًـا كلّ القسـوة حين أمـر بـذبح كـل أسراه ليخلص من متاعبهم فى أراضيه القفـرة ، ولكن مثل هذا لا يقوم عُذراً

يبرر به ما فعل ، إذ كان فى استطاعته أن يخلى سبيلهم ويتركهم لشأنهم . ولكن عُنف هذه الشدائد به ردَّه إلى طبعه الأول ، ذلك الطبع الحوشى الغليظ . والرجل المتحضر من لا ترده القسوة إلى قسوة ، ولا يجرُّه العنف إلى عنف ، فيشتط ويجور شططًا لا يضبطه قلب ، وجورًا لا يمُليه عقل .

ويترك امبراطور الصين عاصمة ملكه مُخلِّفًا ابنًا من أبنائه ويمضى إلى الجنوب يتلمس الدّعة والراحة . وكان الشعب ضائقا بما فعل الامبراطور مع « جنكيز خان » حين لم يستمع إلى أمرائه ووزرائه ضاربًا برأيهم عُرض الحائط ، وحين نزل لـ « جنكيز خان » عما نزل له عنه . فما كان يعلم هذا الشعبُ برحيل الامبراطور عنه حتى ثار ثورته ، يُشارك الأهالى الجنود ، ويُشارك الجنود الضباط ، ويشارك الضباط الأمراء ، التفوا جميعًا حول ابن الامبراطور وأقسموا جميعًا ليحاربنّ وليدفعنّ عن أنفسهم وصمةَ ذلك العار الذى ألحقه بهم الامبراطور . وخرجت تلك الجموع المتدفقة عارية الرؤوس لا تأبه للمطر المنهمر ، لتَدُلّ الجالس على العرش على صدق عزمها وثباتها على ولائها له .

وانتهى إلى الامبراطور ما يدور فى العاصمة فأرسل إلى ابنه يدعوه إليه ، غير أن الأمراء حذَّروه مَغبّة هذه الدعوة ، وصمَّم الامبرطور ، ولم يجد الابن الصغير بُدًّا من أن ينفُض يده مما عاهد الشعبَ عليه ويستجيب لأبيه؛ فرحل يُشيّعه الخزى والعار . غير أن ذلك لم يصرف الشعب عن غضبه ولم يفُتّ فى عضده ، وخرج يبطش بكل ما هو

للمغول من أثر ، يريد أن يهيّئ الأنفس لحربهم .

وانتهى إلى عيون « جنكيز خان » ما يدور فى العاصمة الصينية ، فأسرعوا يُنهون إليه ما رأوا وما سمعوا ، وكان عندها فى طريقه إلى وطنه فخفّ راجعًا وضرب خيامه على الحدود بالقرب من السور العظيم ينتظر الانباء . ويعرف « جنكيز خان » أن ابن الامبراطور مُتجه إلى الجنوب ، فيُنْفذ إليه جيشًا بقيادة ابنه « جوشى » ويتعقب الجيش الفارَّ ليأتى به أسيرًا . ثم يبعث « جنكيز خان » قائده « سابوتاى » فيجوس خلال الديار ويفتح « كوريا » ويخضعها لحكم المغول ، كما بعث « موهولى » إلى « ين كنج » للاستيلاء عليها ، وكان الأهالى فى يأس من أولياء أمرهم ، فخرجوا هاربين من مدينتهم وانضموا إلى الجيش الفاتح . وبينما كان القائد «موهولى » معسكرًا خارج المدينة بجيشه ومن انضم إليه لحق به «سابوتاى » ودخل الجيشان معًا المدينة فاتحين غازين ، يُعينهم على الفتح تلك الفَوضى التى مرَّ بنا شئ عنها ، والتى بلغت هنا مبلغًا خطيرًا . فيروون أن حراس القصر شاركوا الفاتحين فى النَّهب والسلب ، وكانت منهم عصابات تُغير على الممتلكات ، شأنهم فى ذلك شأن المغول الأعداء . وكم حاول القائد الصينى فى « ين كنج » أن يجمع الأمر بين يديه ويُعيد الأمن إلى نصابه لكى يملك دفة الأمور ويَقْوى على الدفاع فلم يُفلح أمام تلك الفَوضى السائدة ، ولم يجد له خلاصًا مما أحسّ به من ضيق نفسىّ غير أن يتجرّع السم ليخلُص من تلك الحياة التى عَصفت بقلبه ، وقَست على وجُدانه

وأهـدرت كرامتـه . ولقـد عَزَّ عليـه أن يرى بعينيـه بلـده « ين كنـج » تلتهمها النيران ويحُيط بأهلها الهلـع ، ويتخطف ساكنيها الموت ، وهو لا يملك لهم شيئًا ولا يَقوى على دفع « المغول » عنهم .

وهكذا أحرز « جنكيز خان » فى الصين نصراً بعد نصر دلّ على قدرة فـريدة وحنكـة فذة . لم تقـو تلـك الحضارة بعِلْمهـا وفنها وأسلحتهـا الحديثة وحصـونها المنيعة وبـارودها القـاتل ومجانيقهـا قاذفـة باللهـب والحَمم ، لم يَقْو هذا كله أن يقف فى سبيـل هذا الرجْل البُدائى الهَمجى الجِلْف . ولكـن ذلك يُعزْى أوّل مـا يعزْى إلى ما أصـاب الصينيين من دعَة ألهتهم عن الانتفاع بما أمدّتهم بـه هذه الحضارة ، ثم انقسامهم على أنفسهم، وليس شرٌّ من الانقسام على الشعوب .

وكان خَصمهم على بـداوته يجمع أسباب الوحدة وأسبـاب الطاعة وأسباب القـوة وأسباب الصبر والجلد ، وبهذا انهزمت الحضـارة أمام البداوة وانتصر « جنكيز خان » واندحرت الصين .

ثم عاد « جنكيز خان » بعد هذا الجهد الكبير إلى صحراء « الجوبى » تاركًا « مـوهولى » الحكيم يُدير دفَّـة الحكم فى ذلك القُطر الشـاسع من عـاصمته التـى تم فتحهـا على يديـه . وكان « جنكيـز خان » يعلـم أن إخضاع الصين كلهـا إخضاعًا تامـا يتطلب منه حروبًـا متصلة فى سنين طويلـة ، فمن أجـل ذلك رأى أن يستجـمَّ شيئًا فى صحـرائه الفسيحة يـؤمِّن حـدوده ، وينظـر إلى الغـرب نظرةً كما نظـر إلى الشرق ، فيمـدّ حدوده هنا كما أمدّها هناك .

قره قرم

وما أخْلَدَ طويلا « جنكيز خان » بين ربوع الصين الشاسعة ، ولا استمالته حياة القصور البهجة ، ولا أغرته تلك المُدن العظيمة ببساتينها اليانعة وشوارعها الفسيحة ، ولا استنام لذلك الرَّغد الواسع والترَّف المُسرف ، بل سرُعان ما حَنَّ إلى صحرائه وقبابه وأهله وعشيرته ، فخلّف ذلك كله وراءه ــ كما مرَّ بنا ــ يقصد باديته بشمسها اللافحة ورمالها السافية ، تاركًا الأمر لرجُله الحكيم العجوز « موهولى » يحكم تلك البلاد ، ومعه جيش من « المغول » يحمى كلمته ويحُوط حُكمه .

وما أُنسى « جنكيز خان » طمع القواد فى القواد ، وثورة الجند برؤسائهم . من أجل ذلك أصدر أمره مشدِّدًا إلى هذا الجيش بضُباطه أن يكونوا على الطاعة التامّة لخليفته وألاَّ يَعْصوا له أمرًا وأن ينظروا إليه نظرتهم إلى الخان .

وترك « جنكيز خان » الصين ليؤوب إلى بلده ومن حوله رجال حاشيته ومن خلفه خدمه ، وبين أيديهم العربات تجُرُّها الثيران محمَّلة بكنوز الصين العظيمة ، ونفائسها الرائعة ، وغَلاَّتها العجيبة ، وحريرها الزاهى ، ودِمَقْسها الملون ؛ هذا إلى آلات دقيقة وصناعات

محيرّة . ولقد حمل « جنكيـز خان » مع هـذا كله جملة مـن العُلماء وجملة من الصنُّاع ، يريد أن يفيد بلده علماً ويفيده صناعة ؛ ولكنه كان كغيره مـن الملـوك ، حين تُكتب لهم الغَلبة والفـوز لا يَنْسَـوْن نصيبهـم مـن الدنيا ، فساق « جنكيز خان » معه جملة من السبَايا الفاتنات .

وانتهى الرَّكـب إلى « قره قرم » تلك المدينة العتيقة الخالـدة التى كان «جنكيز خان» يظـن أنه ليس بين المدائن شرقًا وغـربًا ما يفوقهـا عظمةً ومجداً ، فإذا هى تصغر فى عينيه حين طالعتْه مدنُ الصين ، ورأى ما بين تلك المدائن وهذه المدينة من بَوْن شاسع وفرق عظيم .

ويَعِنُّ لنا أن نسـأل : لِمَ نَفَضَ « جنكيز خان » يـده من حرب الصين ولمّا يتم له فتح مُـدُنها كلها ، ولمّا تخِرّ له حُصونها جميعا ؟ أتُراه قـد هالته الحرب ، وهالـه مافقـد فيها مـن دماء ، ومـابذل فيهـا من عناء ، وما استقبلته بـه من شـدة ، وما تطلّبتـه منه مـن تضحيات ، فلقـد قيل إن قَتْلاه فى تلك الحروب بينه وبين الصين أرْبَتْ على الملايين ؟ أم تُراه كان محاربًا كريماً يأبى عليه كـرمُ نفسه أن يهُون بين يديه خَصْمه الهوانَ كلَّه ، فهو مـن أجل ذلـك يُبقى على شـىء من عـزَّته وشـىءٌ من كـرامته ، لا يمضى فى الأمر إلى آخره ، وهو لهذا أبقى على تلك البقية الباقية ولم يشأ أن يقضى عـليها كلّها قضاءً مُبرمًا؟

وسواء أكانت الأولى أم الثانية فلقد كانت تلك حال « جنكيز خان » مـع الصين ، فخرج عنهـا إلى « قره قـرم » بتلك الخيرات الكثيرة التى بَدَّلـت من عُسر الشعب المغـولى يُسراً ، وبدَّلت مـن حال مدينـة « قره

قرم» ـ أو الرمال السوداء كما كانوا يسمُّونها ـ القائمة وسط بحر من الرمال ، والتى تُشْرف بيوتها المسقوفة بأعواد القصب على طرقات مُتعرِّجة ليس بينها طريق واحد مستقيم .

هكذا كانت « قره قرم » من قبلُ جافية كأهلها ، لا تبدو عليها مسْحة من ترَف ولا مظهر من نعيم ، فإذا هى بعد أن عاد إليها «جنكيز خان » من غزوته إلى الصين محمَّلا بأكداس من الهدايا الفاخرة قد ازدانت وأخذت زُخرفها واطَّرحت عنها قبابُ اللبَّاد لتَستبدل بها قبابًا مُبَطَّنة بالحرير الموشَّى . وكان للخان من بين تلك القباب قبابٌ خاصة به ضَمَّ فيها نساءه ممَّن سَبَا من الصين ومن التَّتر ، قد أُرْخيت على أبوابها وكُوَّاتها ستائر من المخَرَّمات الدقيقة الصُّنع الجميلَة الزخرفة .

وهكذا جعل الخانُ من هذه المدينة الناشئة عاصمةً لامبراطوريته ، وقد بقيت كذلك حتى عهد حفيده « قوبلاى خان » الذى ولُد بها . وفى أيامه تبدلت حالها من ضَعة إلى رفعة ومن حقارة إلى مجد . أفادت ذلك من خبرة هؤلاء الرجال الذين كان « جنكيز خان » قد ولاّهم شئون الامبراطورية من «الأويجور» و « الصينيين » . فلقد استحدث هؤلاء دُوراً خاصة بالحكومة ، وأنشئوا لها السجلات وأقاموا لها الموظفين ، واصطنعوا نظامًا حكوميًا بالغ الدقة ، وهيئوا للخان خاتمًا يمضى به أوامره ، وكان يطبع به كل شئ حتى خيوله .

وكانت عادة « جنكيز خان » أن يُقيم فى كل بلد يفتحه رجلاً من

رجالها المخلصين له ليكون عونًا للحاكم الذى يختاره له من رجاله . وإفساحًا منه للحُكام فى أن يحكموا ، لهم ما له من عقاب وعفو ، كان يهب لكل منهم ما كان يُسَمِّيه بقُرص النمر الذى يخوِّل للحاكم الذى يُهْدَى إليه العفوَ عن المجرمين مهما بلغ جُرمهم . وكان يريد بذلك أن يؤلِّف الناس حول وُلاته ، وأن يُتيح لوُلاته أن يملكوا رقاب الناس ، فنزل لهم عن شىء كان له وحده ليَخفِّف عن النَاس ويملك قلوبهم ويجمعهم على حُب حكّامه ، فيريح ويستريح .

وانفسحت الحياة لـ « قره قرم » فعَمرت بالأسواق التجارية ، ووفد إليها الزوار من كل حَدَب وصَوْب ، وانتعشت فيها الحياة الأدبية ، وأصبح للشعراء فيها أحياء ، كما أُقيمت فيها المساجد إلى جوار معابد البوذيين وكنائس المسيحيين النساطرة ، إذ كانت حرية العبادة مكفولة للجميع حسبما مرّ بنا فى « الياسة » .

وفى الحق لقد كان الامبراطور رجلاً يدين بالوحدانية ، يدين بالقوة المطلقة التى تسخِّر السحاب والرعد والهواء ، وعلى الرغم من أن شعبه كان يغالى فيدَّعى أنه من سلالة الآلهة وهى التى تنصره وتؤيِّده ، فيما نعلم أن «جنكيز خان » استمع يومًا إلى ما يقوله الشعب أو آمن به ، فلقد كان يقول إن فى السماء قوة هى قوة الشمس ، وإن على الأرض لقوةً هى قوة الخان . وسنرى فيما بعد كيف سماّه المسلمون لما أكثر فيهم القتل ـ « نقمة الله » ، وكيف كان هو يؤيدهم فى دعواهم ويذكر لهم أنه سوط الله ونقمته ، سلّطها عليهم ليعذبهم بيده .

وكان لزامًا على أُولى الأمر فى « قره قـرم « أن تكون لهم صلة بالبلاد الأخرى، وكان لهم نظَام قديم بين قبائل « الجوبى » يَربط ما بينها أشبه بالنُّظم التى كـانت معروفة فى غيرها من الأمم ، فيستخـدمون الرُّسل تقطع المسافات على ظهور الجياد ، وكـان هذا النظام يسمى « اليام » ، غير أنه لم يكن معروفًا عند « المغول » إلا مع الحرب فتوسَّع فيه « جنكيز خان » وجعله وسيلة من وسائل السّلـم ، وجعل على كل رأس مرحلة معسكرًا قائماً به جملـة من الخيل ، وبه نفر من الغلمان لخدمتهـا ، ثم نفر من الفرسان لحراسة الطريق وحراسة الخيل ؛ وألحق بتلك المعسكرات مخازن للعلف ، ثم جعل إلى جانبها خيامًا لإيواء الناس .

ولقد وصف « ماركو بولو » الذى زار « كامبالو » بعد وفاة « جنكيز خان» شيئًا من هـذا فقال : « إن الراحلين عن كامبالـو » يجدون مُراحًا للخيـل على رأس كـل خمسة وعشريـن ميـلاً ، بـه نُـزل أنيق لإقـامـة المسافرين ، أُثِّثَتْ حُجراته بـأفخر الأثاث ، ومُدَّت فيه الأسرَّة المغطاة بالحرير الخالص ، ولو أن ملكًا أُتيح له أن ينزل فيه لأحسّ أنه نزل على مضْياف كريم أحسن لقاءه وأعدّ لاستقباله» .

وهكذا ربـط الخان بين جميع البـلاد لتعمير طرق القـوافل القـديمة ووصلها بعضهـا ببعض ، ثـم مضى « جنكيـز خان » فجعـل على كل مـدينة حـاكماً مسئولاً عـن أمنهـا ، مسئولا عـن الطرق المحيطـة بها ، مسئولا عن تعرُّف الزائرين والمارِّين ووجهتهم وأغراضهم وإحصاء ما يدخل إلى البلد من بضائع وما يخرج منها .

وكـان لمن يمـرّ بتلـك المعسكـرات التـى فى الطـرقـات الحق فى أن يستبدل بحصـانه حصانًـا ، إذ كان فى كـل مُراح ما يقـرب من أربعمائة جواد وقد تنقص قليلا ، وأن يتـزود منها بما يشاء على شريطة أن يكون حاملا ذلك الجواز الذى يبيح له ذلـك ، وهو « قرص الباز » فيما كانوا يسمُّونه .

أما هؤلاء الـذين كانوا يسعَوْن إلى الخان من السفـراء والزوَّار فكان يرافقهم ضابط من الضباط ، على أن تتقدَّمهم كَوكبة تُؤذن المعسكرات بمقدمهم، ويمضى الزائرون فى تلك الممرَّات الصحراوية قاصدين إلى مدينة الخان ، لاتقـع عيونهم إلا على بحار من رمـال ، وأراض جرداء لا نبات فيهـا ولا ماء إلى أن يَقربوا مـن مدينة الخان ، عندهـا تبدو لهم القباب وتقع عُيونهم على قطعان الماشية والمركبات المتراصة فوق السهل المنبَسط .

وما إن يبلغ الزائر هذا من طريقـه حتى يُسلمه مرافقه إلى آخر ، يمرُّ به هذا الرفيـق الجديد بين شُعلتين من نار قبل أن يدخـل به إلى المدينة . يفعل هذا «المغول » بزائريهم ، معتقدين أن من حمل منهم روحًا شرِّيرةً أحرقته النار ، فإن لم يحمل تلك الروح الشريرة مرَّ بسلام .

* * *

وحين يخرج الـزائر من تلـك المشاق يجد نفسـه فى ظـل مأوى مُعَـدّ لاستقبالـه، فيه ما شـاء من طعام وشراب ، وبعـد أن يأخذ حظَّـه من الراحة يمضى لِيَمثُل بين يدى الخان فى سرادقه الفاخر .

وهكذا أمَّن الخان الطرق من الغرب إلى الشرق ، ومن الشرق إلى الغرب ، فعبرها التجار آمنين ، يأخذون حظهم من راحة ويتزودّون بها شاءوا لهم ولخيلهم . وأقام لهؤلاء التجار حراسًا يصحبونهم ويحفظونهم ، وكانوا يسمون « القراقجية » . فكان نظامًا بلغ من الدقة والروعة حدًّا يعجز الوصف عنه . وهكذا اتصل تجار الغرب «بالمغول» فنقلوا إليهم مع بضائعهم الحديث عن بلادهم ، كما استطاع « المغول » أن يجلبوا إلى بلادهم عَبرُ تلك الطرق ما كانوا يرغبون فيه .

كما أن تلك الطرق حققت للامبراطور أن تصله الأنباء من إقليم يبعد عنه مسيرة عشرة أيام فى يوم وليلة ، فلقد كان الفرسان الذين يعملون على ظهر هذا الطريق يقطعون ما بين مائتين وخمسين ميلا فى النهار وقريبًا منها بالليل ، إذ كان على الفارس ألاَّ يمضى بالسرعة نفسها ليلاً . فلقد كان مضطرًّا للاستعانة بحَمَلة المشاعل . وكان الرسول يشُدّ وسطه بمنطقة عريضة تتدلىَّ منها النواقيس فيُسمع صوته من بعيد ، وتتهيأ لاستقباله المحطة التالية فتعدّ له الجواد المُراح دون تلبُّث طويل ، وكان مع كل فارس قرص عليه رسم طائر السَّنْقر ، دليلا على أنه موفدٌ فى مهمة سريعة . وكان له الحق إذا ما كبا جواده أو عثر أن يأخذ أى جواد يجد دون نظر إلى صاحبه .

ولبثت تلك الطرق تزيد وتمتد ، كلما زادت فتوحات الغازى وامتدّت ، حتى إذا ما وصل الخان إلى « فارس » وبلاد « الكرج » اصطنع طريقين بريّين عَبرَ القارة الآسيوية ، أوَّلهما من البحر الأسود

مخترقًا شمال «تركستان» إلى صحراء «الجوبى» ومنها إلى الصين ، وثانيهما يمرُّ بمدينة «خوتان» فى جنوب «تركستان» يخترق «التُّبت» ومنها إلى «الصين» ، وقد فقدت تلك الطرق البرِّية ما لها من أهمية خلال الحروب المغولية فى غرب آسيا ، فلم تكن الطرق مأمونة بين الغرب والشرق ، وكان الاعتماد عندها على الطريق البحرى من «هرمز» إلى الهند ، ومنها إلى الشرق الأقصى .

وما من شك فى أن التجار المسلمين كان لهم فضلٌ فى إنعاش الفكر المغولى ، وهم ينقلون التجارة من غرب آسيا إليهم ، فلقد نقلوا إليهم حديث المدن الأخرى ، ووصفوا لهم عجائب الرحلات وغرائب الأسفار ، وتركوا بين أيديهم مع بضاعتهم من أسلحة وحلى وعاج ، الكثير من القصص المثير الذى فعل فى النفوس ما تفعله قصص «ألف ليلة وليلة» . وهكذا قرَّبت تلك الطرق بين تجار الفرس والعرب والأتراك وبين المغول يتبادلون التجارة ويتبادلون الأفكار ، وأصبحت «قره قرم» أشبه بخليَّة من النحل ، زحمةَ ناس ، ودقة نظام ، وكانت منار الامبراطورية قانونًا ونظامًا ، ثم منبع النشاط ومصدره .

* * *

وكان من بين من وقع للخان من الرجال فاستعان به وولاّه أكثر شئونه رجل من الصين كان من بين أمراء «لياو يانج» وكان من بين الأسرى الذين بعث بهم «موهولى» إلى الخان ، هو «يى لوتشوساى» الذى خدم أسرة «الكين» . وكان رجلا نحيلاً طويلا كثَّ اللحية

عميق الصوت كبير العقل ؛ تحدَّث إليه الخان فارتاح إلى كلامه وسُرَّ برأيه فاصطفاه وولاَّه ألصق الأمور به وجعله من رجال دولته المختارين . وقد أخلص هذا الرجل للخان كما أخلص لوطنه الأول «الصين» ، غير أن ضباط المغول لم يَرُقْهم رأىُ هذا الحكيم ولا تفكيره، فلقد كان على حظ من التدبُّر وكانوا على حظ من الطيش ؛ وكان ذا حكمة ورأى وكانوا قومًا أُمِّيين جُفاة غلاظًا . وكم سخروا من هذا الحكيم وهزئوا به فى حضرة الامبراطور . وحَدَث أن تحدث رجل منهم إلى الامبراطور قائلا : «أى نفع لنا مع رجل لا غناء عنده فى معمعة القتال ، وهو لا يعرف غير الكتاب !» ؛ وهو يقصد هذا الحكيم . فأجابه هذا الحكيم قائلا : «وهل أُنسيت أن الدولة فى الحرب والسلم إنما يدبِّر أمرها الكُتَّاب ؟» .

وما شغل «يى لوتشوساى» بالناس وما صرَفته سُخريتهم به بل مضى يجمع ويدرس . يرصد الأفلاك ، وينظر فى الأعشاب يعرف ما فيها من نفع طبِّى ، ويصف البلدان ، حتى إذا ما فارق دُنياه ظَنَّه «المغول» قد أثرى وأفحش فى الإثراء ، فإذا هم لا يقعون عنده إلاّ على كتب وأعشاب وأوراق .

* * *

وفى «قره قرم» استتبَّت أقدام أُسرة الخان فنمت وانتشرت ؛ وامتلأت الخيام بنساء الخان وأبنائه وبناته ، غير أنه لم يأنس إلا إلى أولاده من زوجه «بورتاى» فتعهَّدهم وأسلمهم إلى محاربين متميّزين

ليَلقنوا عنهم فنون الحرب ، وكان كثيرًا ما يخلو إليهم فيزوّدهم بنصائحه .

فولده « جوشى » وهو أكبر أبنائه من زوجه « بورتاى » على الرغم من الشك فى صحة نسبة إليه ، شَبَّ فى ظل رعايته وكان من نسله «باتو» مؤسس الجيش الذهبى الذى سحق « الروس » ووصل إلى «بولندا » . ثم «شاطا جاى » الذى امتاز بالعقل والفطنة والرزانة ، وقد ولاّه أبوه إمارة القانون والعقار ، وكان من نسله « بابُور » أول امبراطور مغولى فى الهند . ثم «أجوتاى » رجل المشورة الذى جمع بين عقل الحكيم وقلب المقاتل . ثم كان أصغرهم « تولى » الذى كان أثيرًا على قلب الخان ، ولقّبه أمير الجيوش وكان يصحبه دومًا . ومن نسل «تولى» « قوبلاى خان » الذى رآه جده يومًا ، فقال : « استمعوا إلى ما يقول هذا الصبّى وتدبَّروا قوله ، فهو لا ينطق إلا عن حكمة » . وحين حانت منيّة الخان ، وجلس إليه أولاده ليختار من بينهم مَن يخلفه على العرش لم يكن « جوشى » حاضرًا بل كان فى روسيا ، وأرسل مَن ينوب عنه معتذرًا بمرضه ، وأحبَّ الخان أن يطمئن من الرسول عن ابنه فإذا هو يعلم أنه غير مريض فغضب وثار ، وفى ثورته حرم ابنه «جوشى» من العرش ، وكان صاحبه .

ويعنينا أن نصف لك كيف كان سرُادق الخان الخاص الذى كان يستقبل فيه السفراء والزائرين . لقد كان مصنوعًا من اللبد الأبيض المبطّن بالحرير الموشّى ، على مدخله من جهة مائدة ضمَّت إلى اللحم

المجفَّف واللبن فى أوْعيته صنوفًا من الفاكهـة ، ومن جهة أخرى منصَّة عالية عليهـا البُسُط والوسائد ، قد هُيِّئَـت لجلوس الخان ، وإلى أَسفل منهـا منصّة أخـرى تجلـس عليها « بـورتاى » أو غيرهـا مـن زوجاتـه وبـالقـرب مـن منصّـة الخان كـان يقـف الـوزراء ومـن بينهـم « يـى لوتشوسـاى » ؛ وقريبًا منه كـان يقف الكاتب يحمـل فرشة وقرطـاسًا مطويًا مُتهيِّئًا لتدوين ما يأمـر به الحاكم . وكما كان يفعل حكام الغرب فعل « جنكيـز خان » ، فخـصّ قائدًا من قُـوّاده ممن يثـق بهم أن يحمل كأسـه ، وعلى جانبى السرادق تمتد منصّـات جُعلت للنبـلاء ، كانـوا يجلسـون عليها صـامتين فى حُلاَّتهم الطـويلة ، وقـد تمنطقوا بـأحزمـة عريضـة رُصِّعت بالجواهـر ، وعلى رؤوسهم القـلانس المصنوعـة من اللبّاد الأبيض ، ومن خلف الأمراء والنبلاء يجلس الطارخانات ، وقد لَووا سيقـانهم تحت أفخاذهـم ، وجعلوا أكفَّهـم المُثْخنة بـالجراح فوق أفخاذهم ، ومن خلفهم يقف قادة الفرَق الحربية يحملون أعلامهم .

فى هـذا السرادق يجتمعون ، وعلى هـذا النحـو يجلسون ، يعـرض عليهـم الخان ما يـريد مـن أمر ، يـأخذون ويُعطـون فى صوت هـادئ خَفيـض ، حتى إذا مـا نطـق الخان كـان قولُـه الفصـل فـاستمعوا لـه مستجيبين .



مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشه ومن حوله حاشيته دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

نحو الغرب

ولقد مرّ بنا ما فعل « جنكيز خان » بقبائل « النايمان» قبل خُروجه لغزو «الصين » ، وكيف شتَّت شملهم وأباد جمَعهم ، وكيف فرَّ زعماؤهم أمامه وتفرقوا فى البلاد . وكُتب لزعيم من هؤلاء الزعماء هو « كشلو خان» أن يأوى إلى بلاد «الخطاى » السوداء وأن يُفسح له خان « الخطاى» فى جواره . وتمضى الأيام فإذا « كشلو » قد اجتمع له نفر من مؤيديه ، وإذا هو قد استمال إليه قبائل ، وإذا هو خانٌ على هؤلاء وهؤلاء . وما إن استقامت له الحال وثبتَ سلطانه حتى مدّ يده إلى «علاء الدين » خان «خوارزم» يحالفه ، وكانت « خوارزم » تقع إلى الغرب من بلاد «الخطاى » .

ما رعى « كشلو » ما أسدى إليه خان « الخطاى » من معروف ولا ما لَقيه به من ترحيب ، وحين قَوى عُوده كان أول الخارجين عليه الساعين إلى حَربه ؛ وكان الظن به غير هذا ، وكان الظن بهذا الحلف الذى تمّ له مع ملك «خوارزم » أن يكون نواة للثأر ممن نكّل به وأَذاقه مُرَّ العذاب وشتّت شمل آله ، ألا وهو « جنكيز خان » . ولكنه كان حلفًا أُريد به النيل من خان «الخطاى» ليمهِّد به السبيل أمامه كى يحكم

بلاد « الخطاى » السوداء ، ويكون له السلطان الكامل عليها .

وأحسّ « غـور » خان « الخطـاى » بغدر صديقـه فسعى هـو الآخر سَعيه يُفسـد عليه مـا دبّر . فأرسـل يطلب إلى « عـلاء الديـن » خان « خوارزم » أن ينفُض يـده من حلفه مع « كشلو » وأن ينضم إليـه ليكونا معًا حربًـا على «كشلو». وكان خان « خـوارزم « ماكرًا أحبّ أن يـأمن جانب الاثنين ، وألاّ يُقحم نفسه فى شر ، وألاّ يعرّض جيشه لعطب . من أجل ذلك لم ينفُـض يده من حلف « كشلو » ولكنه مـدّها ليحالف خان » الخطاى » . يريد بذلك أن يَكون مع هذا ومع ذاك ، حتى إذا ما ثارت الحرب بينهما تربّص بهما يرقُب مـا سيكون ، فإذا ما رجحت كفّةٌ كفّةً انحاز إلى الكفّـة الراجحة ، فيكون بذلك قـد أمن الشر الذى أراد أن يأمنه وحقّق لنفسه شيئًا من غُنم ، إن كان ثمّة غُنمَ .

وكان ما قد قدّره « علاء الدين » ، فلقد وقعت الحرب بين الخانين ، خـان « الخطـاى » السـوادء و « كشلو » ، وحين تمكـن «كشلـو» مـن هزيمـة جيوش « الخطاى » السوداء أو كـاد انضمّ إليه « علاء الـدين » يتعجـل النصر ، ويتعجـل القضـاء على جيـوش «الخطـاى » السـوداء . وانتهـت المعركـة بـانتصـار «كشلـو » وقهر « غـور » خـان «الخطاى » السوداء . وبذلك انفسح المجال أمام « كشلو » ليعلو عرش « الخطاى » السوداء ويصبـح مَلكًا عليها ، يحكم تلك الرقعـة الواسعة التى تُتاخم أرض خصمه القـديم « جنكيز خان » من الشرق ، وأرض « علاء الدين » من الغرب .

والنصر يُغرى بنصر ، والناس - إلا القليل منهـم - إن مَلكوا ذكروا أحقادهم القديمة فتهيَّئوا لـلانتقام . وكان « كشلو » تنطوى نفسه على حقد قديم لـ « جنكيز خان » ، ولقد أصبح قويًّا ذا سلطان يَملك أن ينتقم ، ويملك أن يفعـل شيئًا يُرضى نفسه الحاقدة ؛ وهـاهو ذا يقف لخصمه وجهًا لـوجه ، ليس بعيدًا عنـه فيفوِّت عليه النَّيْلَ منـه ، ولكنه قريـب منه يغريـه هذا القُرب بـأن يفعل شيئًا . وهكـذا راح « كشلو » يؤلِّب على « جنكيـز خان » قبائل «المركيت » التى لم تكـن قلوبها معه ، تظهـر لـه غير ما تضمـر ، يضمهـا إليـه الخوف منـه ، وتودّ لـو هـان فخرجت عليـه ؛ لـذلك كـانت استجـابتهم لـ «كشلـو» هينة ، طمعًا منهم فى أن ينالوا بها ما يَصبْون إليه .

ومـا وقـف « كشلـو » عنـد هذه فـإذا هـو يـأسر خـان « الماليـك » ويذبحـه، وقبيلة « الماليك » مـن القبائل التى تحت سلطـان « المغول » والاعتـداء عليهم اعتـداءٌ على المغـول . ثـم مضى يثير على « المغـول » قبائل أخرى غير قبيلة «المركيت » ممـن يظن بهم ضعفًا ، وممن يظن بهم خوفًا ، وممـن يراهم بمنأى عـن نفوذ «جنكيز خان » ، وكـان من بين تلك القبائل قبائل «الأويجور» .

وانتهى إلى « جنكيـز خان » فى « قره قـوم » ما كان مـن « كشلو » ، فأعـدَّ لذلك جيشـه وخرج ذلك الجيـش ليلقى « كشلو » . وطـالعت جيوش «جنكيز خان » جيوش « كشلـو » ، ولكنها لم تشأ أن تدهمها فى أرضها فتمكّـن لها الاحتماء بمواقعها المنيعـة ، وتمكّن لها مـن الانتفاع

بإمداداتها التى بين يديها ، بل لقد احتالت عليها ليخرج بها عن أرضها وعن إمداداتها ، فانسحبت أمامها تجرُّهاوراءها ، حتى إذا ما أبعدت بها بعيدًا عن أرضها كرَّت عليها كرَّة عنيفة ، تُعمل فيها الحراب وتُعمل فيها السيوف حتى أفنَتْها عن آخرها . غير أن « كشلو » استطاع أن ينجو واستطاع أن يفرّ . وما كان همَّ «جنكيز خان » أن ينال من الجند ولكن كان همُّه أن ينال من « كشلو » وأن يظفر به . من أجل ذلك أرسل قائده « شيبه نويون » فى إثر « كشلو » الفار يريده حيًّا أو ميتا .

ومن قبل هذه فرَّ « كشلو » عن أهله وبلده واستطاع أن يجمع الناس حوله ، وأن يكون ذا دولة ، والظروف التى قد هيأت له هذا من قبل قد تهيئه له اليوم ، ولن يعدم « كشلو » مُعينًا ما دامت قلوب نفرٍ من الناس معه . وما بقاؤه مختفيا بين العشائر بالأمر اليسير عليه ولا بالعسير على تلك العشائر ، وليس باليسير على « شيبه نويون » أن يجده إذا أخفاه الناس ، وما هى بالحرب فيواجه « شيبه نويون » خصمه ويدبر للقضاء عليه ، ولكنها شئٌ آخر أشقُّ من الحرب تتطلب من «شيبه نويون » الدخول إلى البيوت والنفوذ إلى العشائر ، وليس هذا بالهينّ إن لم يجد من الناس العَون الصادق عليه ، وأنَّى له بهذا العون الصادق .

ولكن شيئًا وقع مهّد السبيل أمام « شيبه نويون » إلى ما يريد . لقد كان «كشلو » بوذيًّا وكانت زوجه مسيحية . وكان « كشلو » يجدُّ فى نشر البوذية والتمكين لها ، على حين كانت زوجه تجدُّ فى نشر المسيحية

والتمكين لها ، لا ينجو من ذلك مسلم أو غير مسلم ، فضاق الناس بأمر كشلو وبأمر زوجه ، وليس شيء كالمساس بالدين والمساس بالعقيدة يؤذى النفوس وتضيق به . وأحسَّ « شيبه نويون » ما يعانى الناس من ضيق وما هم فيه من حرج ، وكان كمولاه « جنكيز خان » يؤمن بالحرية الدينية ويرى غيرها نُكرًا ومحنة تُشيع الفوضى وتُبلبل العقول وتزلزل الحكم على الحاكم . وهو يحب كمولاه أن يرى الرّعية آمنةً فيسهل عليه قيادها ، وأن يراها وادعة فتنتظم له شئونها . من أجل ذلك أتاح لها حريتها الدينية ، فاجتمعت عليه القلوب وانصرفت عن « كشلو » ترى أنها لو أيّدته أيّدت ما يُرهقهم به ، وما هى براضية عنه فانقلب المُخْفُون لـ « كشلو » عيونًا على « كشلو » ؛ وإذا هو فى يوم وليلة أسير ، وإذا هو قد وقع فى قبضة « شيبه نويون » . وما كاد «شيبه نويون » يقع عليه حتى قتله وأرسل برأسه إلى « جنكيز خان » فى موكب حافل قوامه ألف فارس على جياد من طراز واحد ، كل جواد منها ذو أنفَ أبيض . وهكذا أصبحت « الخطاى » السوداء فى حوزة «المغول» .

* * *

وما نسى « جنكيز خان » لمن خرج عليه من القبائل خروجهم ، فبعث بالجيوش إلى مَن خرج منهم ليردّه إلى حوزته . وكان من بين هذه القبائل مَن خرج عن خوف فرجع إليه عن خوف فلم يلق كيدًا ، ومنهم من خرج عن ضعف فانصاع إليه عن رضى لم ينل أذى ، ولكن

كانـت ثمة قبائل خـرجت وهـى تقصد إلى هذا الخروج ، وهـى قبائل «المركيت » فأرسل إليهم « جنكيز خـان » قائده « سابوتاى » على رأس جيش كبير لتأديبهـم . وخرج «سابوتاى» فى عشر آلاف مـن الفرسان إلى « المركيت » ، ومـا كان «المركيت» ، يقـوون لجيش « سابـوتاى » ، ولا يستطيعون عن أنفسهـم دفعًا ، وما كان لهم ماض طيـب يردون به عن أنفسهـم شر الانتقام . من أجل ذلـك ذاقُوا بلاء شديـدا ، وذاقوا ويلاً كبيرًا ، ولقنوا درسًا لم يَنسوه .

وحين تمَّ للمغول حكم « الخطاى » السوداء أصبح لهم ولاء القبائل التركيـة البربريـة التى تنـزل الهضـاب ما بين التُّبَّـت وسهول روسيـا ، وانضم رجالها إلى جيش المغول فازداد بهم عددًا وقوة ، وغدا « المغول» وفى يدهم توازن القوى فى آسيا .

* * *

ومضى رجال « جنكيـز خان » يلقّنون الناس شريعتهـم التى تمليها «الياسة» ليجمعوهم معهـم على رأى واحد ولون واحد واتجاه واحد ، لايَنُون ولا يفـرِّطون حتى لا يصبح النـاس أشتاتًا تفرِّق بينهـم الأهواء وتفرق بينهـم القوانين . واستتبَّ الأمـر للامبراطـورية المغوليـة الفتيّة التى تمتدُّ حدودها إلى حدود الامبراطـورية الخوارزمية الناشئة ، جوارٌ كـان لابدَّ معـه مـن صـدام ، فلكلٍّ مـن الـدولتين آمـال ، ولكل مـن الدولتين أطماع ، ولابدّ لإحداهما من أن تُملى على الأخرى .

ولكننا قبل أن نسوق لك ما وقع بين هاتين الدولتين نعود بك إلى الوراء قليلا لنُحدّثك حديث « خوارزم شاه » ، وكيف أُتيح له أن ينشئ امبراطوريته فى الغرب من آسيا ، وما كان يطمع فيه من بَسْط سلطانه على ربوع آسيا من الشرق إلى الغرب .

لقد تعرضت الدولة العباسية فى أيامها الأخيرة لمحنة من المحن القاسية التى فتّت فى عَضُدها ثم ذهبت بريحها فيما بعد . فلقد كانت الصلة بين الولاة والخلفاء صلةً تكاد أن تكون مقطوعة . كان الخلفاء لاهين منغمسين فى تَرَفهم وملذّاتهم ، حَسْبُهم من الولاة ما يرسلون به من مال كانوا يجودون به أول الأمر ليشتروا رضى الخليفة ، وإنْ آنس واحد منهم فى نفسه القوة بعد ذلك منع عن الخليفة ما كان يرسله واستقلّ بالأمر دونه . وقد يرسل إليه الخليفة الجيش لتأديبه وقد ينال الخليفه منه ، ولكن إلى حين ، إذ سرعان ما كانت تؤول الولاية إلى غيره ممن هو على شاكلته فينهج نهج سلفه ، يغريه انشغال الخليفة عنه ، ويغريه ضعفه عن أن يهُبّ لحربه . وهكذا عاشت الدولة العباسية فى حروب داخلية مستمرة مستعرة ، لا أمن ولا طمأنينة ، مشغولة بتلك الحَزازات وتلك الانقسامات وتلك الحروب الداخلية عن أن تهيئ لنفسها وعن أن تمكّن لسلطانها ، أضعف ما تكون عن أن تواجه حربًا خارجية ، وعن أن تستعد لفتح جديد . فكان للخليفة من الخلافة اسمها لا يحمل غيره .

وتتابعت دويلات تحكم باسمها مستقلة عن الدولة العباسية ، كان

منهـا الدولـة السلجـوقية ، وحين انحلَّـت تلـك الـدولة نشـأت على أنقاضهـا دويلات أخـرى ، أولاها بالـذكر الـدولة الخوار زميـة التى تضرب إلى أصل تركى . أسَّس تلك الدولة الخوار زمية « بوشتكين » ، وكان أول أمره حاكماً للسلاجقة على هذا الإقليم ، يحمل لقب خوارزم شاه لقَّبـه به سلطان «السلاجقـة» وحين أنس فى نفسه القـوة وأنس في سادتـه الضعف ، خـرج عليهم مع الخارجين ، شـأنه شـأن ولاة ذلك العهد .

وما خلص ذلك الْمُلك لـ « بوشتكين » هيّنـا سهلاً ، بل لقد كان له خصوم وأعـداء ، وكان على رأس هـؤلاء الخصوم والأعـداء الدولـة السلجوقية نفسهـا على الرغم مما كـانت تعانى مـن ضعف وانحلال ، ولقـد مكَّن هـذا الضعف لـ «بوشتكين » مـن أن يطمع فى أن يستقـل بولايته أولاً ، ومكّـن له هذا الضعف أيضًا مـن أن يُحالف « الخطاى » السوداء للقضاء على تلك الدولة السلجوقية المحتضرة .

ويـؤول أمر « خـوارزم » إلى « تكش » فتكـون لـه مع « الخطـاى » السوداء حروب يخرج منها عـام ١١٩٧ وقد استولى على « بُخارَى » . ويرث الملك من بعد « تكش » ابنه « عـلاء الدين محمد » ، الذى مرَّ بنا شئٌ عنه . فلقد عرفنا كيف أعان علاء الدين « كشلو » على « الخطاى» السوداء ، وكيف تـمَّ لـ «كشلو » الاستئثار بالْمُلك ، ثـم قتله على يدى «شيبه نويون » .

وكان هناك فرق بين سياسة الأب وسياسة الابن ، فكان الأب يرى

التحالف مع الدولة الغورية * وممالأة الخلافة العباسية ، وكان الابن لا يرى هذا ولا ذاك . ولكن الأب قبل هـذا كان قد كفى ابنه شراً كبيراً . ففى أيامه كانت للإسماعيلية ثـورة بزعامة رجلهم « حسن الصباح » . فقضـى الأب «تكش» على تلـك الثورة ، وحـاصر قلعة الإسماعيليـة المنيعة ، وأرغم الإسماعيليين على الخضـوع له وأن يدفعوا لـه مائة ألف دينار .

ولكن الابـن « علاء الـدين » قد ورث عـن أبيه عبئًـا ثقيلاً وتـركة محوطة بالمصـاعب ، فلقد كانت الـدولة تسودها الفوضـى الداخلية ، والـدولـة الغوريـة على الحدود تنـاوئهـا وتثير القـلاقل مـن حـولها ، والخلافة العباسية تسعى سَعيها لتقضـى على تلك الدولة النـاشئة . فما هى إلاّ أيـام حتى هـبّ «شهاب الـدين » الملـك الغورى فضـم إقليم «خراسان » إلى ملكه ، ولكن «علاء الدين» سرعان ما أعدّ جيشه وشنّ الحرب على « شهاب الدين » ، فـآستردّ «خراسان » ، وأمعن فى أملاك الدولة الغورية فضمّ إليـه مدينَتَى «بَلْخ» و«هَراة » ثم إقليمى « كرمان و«مكران» . ومضى فى غـزوه إلى ساحل المحيط الهنـدى وإلى الأقاليم التـى تقع إلى غـرب « السنـد » ، وإذا هو يشرف على مـدينـة «غَزْنـة» حاضرة الدولة الغورية ويحاصرها ، ولا تمكـث المدينة طويلا حتى تقع

* سلالـة إسلامية خلفـت الغزنويين انتسبـت إلى بلاد غور فى أفغـانستان غلبتها سـلالة خوارزم شاه .

فى يديه عام ١٢١٥ ، ثم أستمر فى فتوحه فضمّ إليه كابُل .

وتقع فى يد « علاء الدين » كتب كَانَ الخليفة العباسى الناصر قد بعث بها إلى حكام الدولة الغورية يثيرهم إلى الاتحاد مع « الخطاى » السوداء ليكونوا حربًا على « علاء الدين » ، فحرّك هذا فى نفسه رغبته القديمة فى الاستيلاء على « بغداد » ومضى يشقّ طريقه إليها مستوليًا على « فارس » و«أذربيجان » و « العراق العجمى » ولكنه ما كان يبلغ «بغداد » حتى ثارت الطبيعة وأرغمته على أن يعود أدراجه .

كان هذا هو غاية ما وصلت إليه امبراطورية « خوارزم » ، فقد كانت حدودها تمتدّ من « العراق العجمى » غربًا إلى حدود الهند شرقًا، ومن شمالى بحرى « قزوين » و « آرال » شمالاً إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبًا .

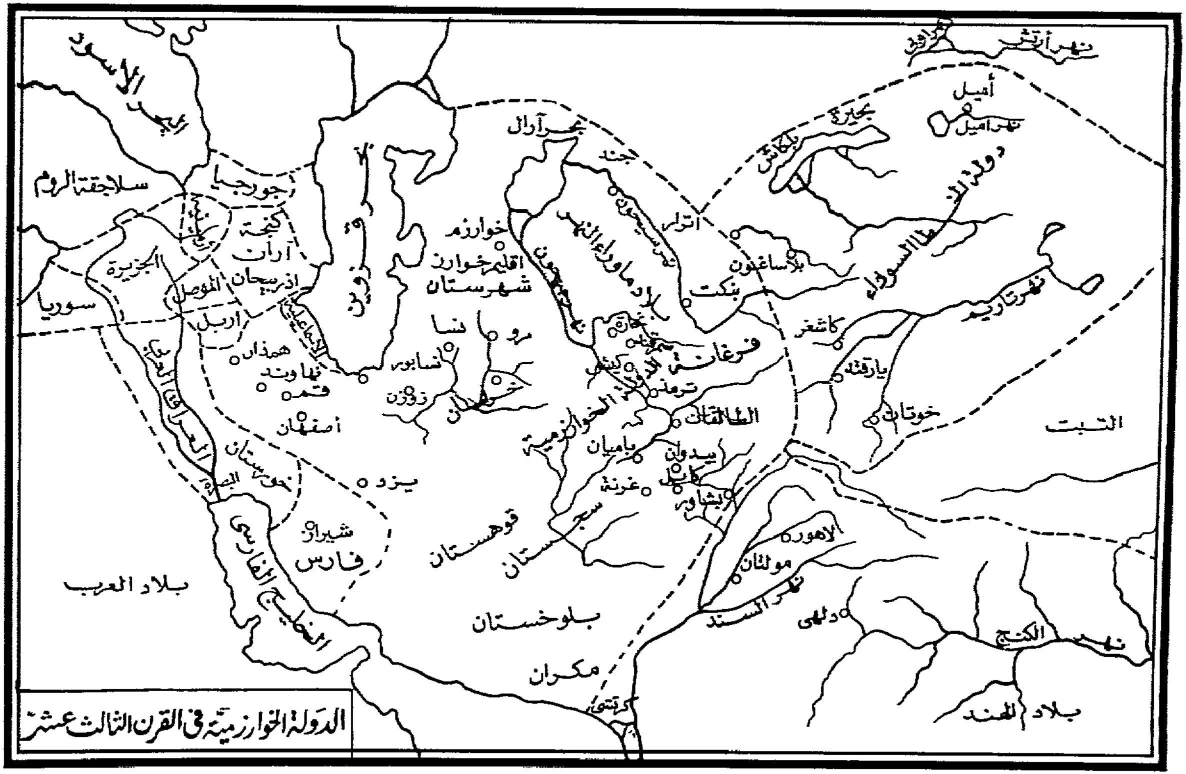
وفى تلك الرقعة الفسيحة كُتب للعلم والفكر الإسلامى أن ينبثق ويشيع ، وكُتب للمدنية والحضارة أن تزدهر وتتألق فتلفت إليها العالم كله . لقد خضع لسلطان « خوارزم » كل من حولها ، وكُتبت لها السيادة فى ذلك المكان من غرب آسيا . وكان يسيرًا على « خوارزم» فتح « بغداد » ودخول العالم الإسلامى بأسره تحت رايتها ، لولا أن الطبيعة قَسَتْ على تلك الجيوش الفاتحة فردَّتها عن أبواب « بغداد » متعثرة .

* * *

ولو أتيح لنا أن نوازن بين امبراطورية وامبراطورية ؛ بين امبراطورية الخان المغولى الوثنى وبين امبراطورية الشاه الخوارزمى المسلم ، لوجدنا الأمر يتباين جليًّا فى نظمهم السياسية وأساليبهم الحربية ومكوّنات شعوبهم.

فلقد أقام الخان المغولى امبراطوريته العظيمة فى الشرق معتمدًا على سلطان الجيش الذى درَّبه وجهَّزه ، ثم على « الياسة » التى ضمّنها تلك المبادئ العامة والخاصة ، والتى كان لها أثر فى جمع الناس على نظام أو شبه نظام ، ثم على ما كان يتمتع به الخان من بطش وجبروت وإرادة وعزيمة وحكمة وتدبّر . فى ظل هذه القوى الثلاث ـ الجيش و«الياسة» والامبراطور ـ عاشت تلك الدولة المغولية ، تَرهب ذلك الجيش فتنصاع خائفة وجلة ، وتنظر إلى تلك القوانين والمبادئ التى تضمنتها «الياسة » وتضمنت معها العقوبات المفروضة الصارمة على كل من يخالف أمرها ، فتلتزم تلك المبادئ وتلك التعاليم لا تحيد عنها ولا تفكر فى الخروج عليها ، ثم تتطلع إلى الامبراطور فى عزمه وحزمه ودهائه ثم آماله وأمانيه ، فترهبه لشىء وترغب فيه لشىء ؛ ترهبه لهذا العزم وذلك الحزم وذلك الدهاء ، وترغب فيه لما يمتلئ به قلبه من آمال لأمته وأمانىّ لبنى جلدته .

وعلى قدر ما أعطى « جنكيز خان » لجيشه أفاد منه ، فلقد نظّمه فأحسن تنظيمه ، وأخذه بالتدريب القاسى ، يخرج به كل عام مع الصيف إلى الفيافى فى سير طويل مُضنٍ على طرق غير مستوية بين



الدولة الخوارزمية فى القرن الثالث عشر

منخفضات ومرتفعات يقضون فترة طويلة فى تدريبات عنيفة شديدة . وألزمه بالطاعة لا يخرج أحدهم على أمره ، وأجزل له العطاء وأباح له ما يسلب وما ينهب . عاش أكثر ما عاش هذا الجيش فى البرارى بين الحيوان المفترس فى صراع دائم ، فَقَسَت طبيعة النفوس وغلظت الأكباد وتوحّشت الغرائز . ولم يعش هذا الجيش وراء الأسوار والجدران فترقّ طبيعته وتلين أكباده وتلطف غرائزه .

وهكذا خلق « جنكيز خان » جيشًا يُلقى الرعب فى القلوب ، ويبعث الفزع فى النفوس ، حيثما حلَّ حمل على جناحيه النِّقمة ، وحيثما نزل نزل البطش والدمار . هال الناسَ حديثُ هذا الجيش فظنّوا قُوَّته فى كثرة عدده ، وأطلقوا الأعنة لخيالهم فجعلوه عدد الحصى والرمال . وما ملَكَ « جنكيز خان» غير مائتين وخمسين ألفًا من الفرسان ؛ فعل بهم ما فعل ، فيما بين الصين والدنيبر ، من عجب عجيب .

وما كان « جنكيز خان» يستطيع أن يجنِّد من أمة « الجوبى » ، التى لم يزد عددها عن المليون والنصف ، جيشًا يضم أكثر مما ضَم ممن بهم قوة على حمل السلاح وجَلَد على خوض غمار الحرب . ولو كان يملك هذا العدد الكبير كما خال المتخيّلون ما وكَل إلى الصبيان أن يقوموا برعاية الخيل على محطات الطرق ، وما ألزم غيرهم من الصبيان ممن شبُّوا قليلا أن يشاركوا فى القتال . فهذا وذاك يدلُّك على أن جيش الخان لم يبلغ هذا العدد الذى تخيَّله المتخيلون ، وأنه لم يكن بين يديه من يكفى لتكوين مثل هذا الجيش الكبير .

ولكن « جنكيز خان » جعل من هذا الجيش القليل جيشًا يبدو كبيرًا بتنظيمه له فى فرق تنتشر هنا وهناك ، تملأ الأرض فتتراءى وكأنها جمٌّ غفير ، فجعلَ منه فرقة للحرس الامبراطورى قوامها عشرة آلاف فارس ، وجعل فى القلب فرقة قوامها مائة ألف وجعل ابنه « تولى » رئيسًا عليها ، وجعل للجيش جناحين ، أيمن وقوامه سبعة وأربعون ألفًا ، وجناحًا أيسر وقوامه اثنان وخمسون ألفًا . وبعد هذا فلقد كانت البقية الباقية من الجيش ــ وعددها تسعة وعشرون ألفًا ـ أخلاطًا من مقاتلى « الصين » و«الأويجور» و« المماليك » من « الخطاى السوداء » .

ولسوف نرى « جنكيز خان » يضرب الدولة الخوارزمية ، ويضرب غيرها من الدويلات الخاضعة للدولة العباسية ، بجيش كان قوامه دون ما ذكروا بكثير . فنحن نعلم أن « جنكيز خان » كان قد تخلىَّ عمّن فى جيشه من « الأويجور » و « المماليك » قبل أن يمضى إلى تلك الحروب خوفًا من أن ينقلبوا عليه ، أو أن يضارّوه فى حربه بثورة أوعصيان ، أو أن يمالئوا عليه عدوّه فيصبحوا عونًا له عليه .

ومن هنا نستطيع أن نعزو هذا الذى كُتب لقوات « جنكيز خان » من نصر وغلبة إلى تلك الروح العالية ، وإلى ذلك التدريب المتميز ، وإلى تلك المهارة الفائقة ، وإلى تلك الحنكة المكتسبة ؛ إلى هذه الأشياء كلها التى شاعت فى الجيش كله جندًا وقادة . لقد كانوا يجيدون حركة الالتفاف «التولوغما» وكان على ذلك اعتمادهم ، يُطبقون على العدو فإذا هم قد أخذوه من خلفه . وإذا لم يفلح القائد فى الالتفاف بعدوّه

انسحب أمامــه يجرّه وراءه ممعنًا فى البيداء ، فإذا مـا اطمأن إلى أن عدوّه قد ظـن به الضعف وظنـه يفرّ ، فأنسـى نفسه شيئًا ، انقـضّ عليه على حين غفلة وفى سرعة مفاجئة ، فقضى عليه وأباده .

ولا يظنن ظانٌّ أن هذا كله كان يتمّ فى يُسر يسير ، فلقد كان «جنكيز خان» قبـل أن يخرج لغزوة ما يجمـع إليه « الكورلتـاى » ، ويحضر هذا «الكورلتاى » الحكـام والنواب والأمراء ، لا يتخلف منهـم أحد سواء منهم القاصى والـدانى . فإذا ما انعقد هذا المجلـس أخذ يدرس الأمر من جميع نـواحيه ، فيُدْلى كلٌّ بـرأيه ، والخان من ورائهم جميعًـا يعقِّب على الرأى ، يـدفع رأيًـا ويأخـذ رأيًا ، حتـى إذا ما أنتهـوا إلى شىء ، أنتهوا إليه مدروسًا بكل ما يضمن له النجاح ، ثم يُوكَل إلى كلٍّ ما يقوم به .

ومـن قبل ذلـك يستأنـس « الكورلتـاى » بما أنتهى إليـه من أخبـار الجواسيس والعيون ، الذين كانـوا بين تجار جاسوا خلال أرض العدو يتظاهرون بالبيع والشراء ، وهمّهم تعرُّف ما عند الأعداء ، وبين فارّين من أرض العـدوّ ناقمين على حُكـامه . غير أن « الكـورلتاى » كـان لا يـأخذ بقـول هؤلاء وهـؤلاء قضيةً مسلّمـة ، بل كـان يقلِّبه على جميـع وجوهه ليعرف صحيحه من زيفه .

وبعد هذا وذاك ، فلقد كان « جنكيز خان » يفيد من حربه لخصمه ، يعرف ما عنـده من أساليب فى الـدفاع والهجوم ، ويعـرف مـا عـنده مـن حيلـة ومكـر ، ويعـرف مـا عنـده مـن سلاح وعـتاد . حـارب

«جنكيز خان» الصين فأفاد من مَناعة حصونها ، ومقاومة جيوشها ، وشاهد ما لهم من مدافع ذات مرمى بعيد ومَن حولها من رجال مَهَرة يرمون بقذائفها ، فضم هذا إلى جيشه ، وجعل من فِرَقه فرقة للمدفعية قوامها عشرة آلاف من المقاتلين كلهم من الصينيين وعلى رأسهم قائد صينى . سارع « جنكيز خان » بإدخال هذا التنظيم إلى جيشه ، لا يريد أن يمهل نفسه فيفوت التدريب رجاله . وكان إلى تلك الفرقة اختيار أماكن الرمى ، وإعداد المجانيق وإطلاقها . وكانت تلك المجانيق لا تُنقل إلى ميادين الحرب كاملة ، بل كانت تنقل إليها أجزاء لتركّب فى المواقع المختارة ، حتى إذا ما انتهت الحرب فُكّت لتُحمل مجزأةً إلى حيث تُخزن .

وكما أفاد الخان من الصين هذه الأشياء عنهم فى الحرب ، أفاد غيرَها عنهم فى السّلم . أفاد من علمهم وطبّهم ونقل معه فى خروجه عنهم جملة من الأطباء ؛ وكان من عادة المغول إذا مرض أحدهم ركز أمام قبته رمحًا ، فإذا ما رآه الطبيب سعى إلى علاجه ، كما أفاد عنهم نظام الإدارة فجلب موظفين مختصين ليلقَنَّ عنهم « المغول » .

وحارب جنكيز خان « خوارزم » فأفاد من أسلوبها فى التسليح ، فإذا هو ينشئ فرقته العاصفة التى جعل بعضهم الفضل الأوّل فى إنشائها إلى القادة الألمان فى القرن العشرين . فلقد درّع « جنكيز خان » الخيل بالجلد المقّوى ، وجعل لكل فارس قوسين ، قوسًا يستخدمها وهو راكب وقوسًا له وهو راجل . وجعل له جُعبتين للسهام تضم

كلتاهما أنواعًا ثلاثة من السهام ، منها ما هو للمسافات القريبة ، ومنها ما هو للمسافات البعيدة ، ومنها ما هو للمسافات التى بين بين ، يرجع الفارس إلى الجعبة الثانية حين تنفد سهام الجعبة الأولى . وكان على رأس كل فارس خوذة من الصلب لها ذيل ممتد على العنق لتحميه . هذا إلى درع قوية مكينة تحميه سهام الأعداء . وكان كل فارس من فرسان الوحدات الثقيلة مزوّدًا ببَلطة شُدَّت إلى منطقة فى وسطه ، وبحبل فى طرفه أُنشوطة لجرّ العربات وآلات الحصار ، وبكيس فيه علف جواده ، وبوعاء يستخدمه الفارس لطعامه ، وبمبرد لسَنّ الرماح والسهام . وكان الفارس يضع سلاحه كلّه فى قربة مستطيلة تكون لهذا الغرض ولغرض آخر ، فإذا ما اضطُرَّ لعبور نهر نفخها واتخذها وسيلة للعبور . وبعد هذا فقد كان كل فارس يحمل معه طعامًا للطوارئ من لحم قديد ولبن خاثر أو مجفف ، يعوزه قليل من الماء ليعود مع التسخين لبنًا سائغًا . وكانت لكل قائد الحرية أثناء القتال ، غير أنه كان مُلزمًا بالاتصال بالخان عن طريق الرسل أو الإشارات .

هذا هو الخان ، وهذا هو جيشه الذى غزا البلاد الإسلامية ، فهدم حصونها وقتل رجالها وهتك نساءها وقذف الرعب فى قلوب أهلها .

* * *

ولنترك الخان وجيشه لنعود إلى « خوارزم » فلقد كانت لمّا تزل بعدُ فتيَّةً حين اتجه المغول إليها غازين . كان النزاع فيها قائماً بين السلطتين الدينية والدنيوية ، وعمل أهل « خوارزم » على أن يكسبوا الخليفة

العباسى إلى جانبهم ليكسبوا تأييده الدينى فيكسبوا دنياهم ، وكان من حول السلطان وزراء بيدهم تصريف الأمور .

ولما كانت أيام «علاء الدين» ، وكان لا يثق بوزرائه ، أقام مجلسًا من كبار رجال الدولة للنظر فى شئونها ، على ألاّ يقضى فى أمر إلاّ إذا أجمعوا عليه . ثم جعل لكل غرض ديوانًا ؛ فكان للمال ديوان ، وللإنشاء ديوان ، وللجيش ديوان . وكان إلى هذا الديوان الأخير أمر الجيش وإمداده بالسلاح والذخيرة ، وكان هذا شيئًا يفارق به الجيش المغولى الجيش الخوارزمى . وثمة فرق آخر بين الجيشين ، فلقد كان للمغول جيش نظامى ثابت ، على حين لم يكن للخوارزميين جيش نظامى ثابت . غير أن الذى لا شك فيه أن سلاح الجيش الخوارزمى كان يفوق سلاح الجيش المغولى . فلقد كانت سيوفهم طويلة مقوّسة من صُلب متين ، وكانت سهامهم أقوى وكذلك أقواسهم . وكانت لهم مجانيق ترمى باللهب ، وقاذفات للحجارة الثقيلة ، وكانت لهم مهارة وحذق فى استخدام القار والزيت بعد إشعاله . غير أنه لم تكن بين هذه الجيوش الخوارزمية رابطة ، ولم تجتمع على أمل أو هدف ، تتباين فرَقها وتختلف طباعها وتتفرق لهجاتها وتتغاير أمزجتها وأهواؤها . من أجل ذلك فقد سلاطين « خوارزم » ثقتهم بجيوشهم ولم يطمئنوا إليها ، فأحاطوا أنفسهم بحرس خاص .

وكان هؤلاء القوم حديثى عهد بالإسلام ، فلم يبلغ الدين أن يؤلف بين قلوبهم وأهوائهم ، وكان كل فرد منهم يغلبه تعصُّبه لجنسه

على تعصُّبه لدينه ، فالفارسى يريد أن تكون له الكلمة على العربى ، والتركى يريد أن يذلّ له الفارسى ، والعربى يرى نفسه أولى بسيادة هؤلاء جميعًا . وهكذا تعرضت الدولة لفتن داخلية أفلتَ الزمام فيها من أيدى الحكام ، ولم يجدوا الجيوش تغنيهم ، فأقاموا الأبراج والقلاع ، وبَنَوْا قصورهم من وراء تلك الأبراج وهذه القلاع ليكونوا أشد أمنًا ، وجعلوا فيها المخازن ومساكن الجنود . وهكذا قنع الخوارزميون بأن يكون لهم جيش دفاع لا جيش هجوم ، على الرغم مما كانت لهذا الجيش من أسلحة مستحدثة ، ولكنهم على هذا لم يستطيعوا أن يصمدوا لهجمات الجيش المغولى المهاجم . وإمعانًا فى حرص الخلفاء على أنفسهم جعلوا لأنفسهم قلاعًا مختلفة فى مدن مختلفة ، فقلعة فى «مرو » ، وقلعة فى « سمرقند » وقلعة فى « خوارزم » . وتلك الحياة الحربية الوادعة صحبتها حياة للسلم وادعة ، أسرف فيها الخلفاء على أنفسهم وانغمسوا فى ترف واسع وغرقوا فى مباهج ذات ألوان .

وكان نظام الحكم عند الخوارزميين وراثيًا رعاه الخلفاء قبل « علاء الدين» ، فلما آل إليه جعله لابنه الأصغر « أزلاغ شاه » متخطيًا ابنه الأكبر «جلال الدين منكبرتى » تغريه بذلك أم ابنه الأصغر « تركان خاتون » ، غير أنه عندما أحسّ الموت عاد فأوصى بالخلافة لابنه «جلال الدين » .

ولقد مرّ بنا كيف أقصى « علاء الدين » الوزراء وأقام مكانهم مجلسًا من كبار رجال الدولة . ولك أن تعلم أن « خاتون » زوج « علاء

الديـن» كانـت تركيـة وأنها أقحمت فى هـذا المجلس كثيراً مـن رجالها الأتراك ، فـأفسد هؤلاء الأتـراك الحكم على الخوارزميين فاضطـربت أحوالهم .

وبهذا مَّهدت هذه الدولة الفتيّـة الناشئة السبيل إلى زوالها ، ولم يكد يشرف عليهـا « جنكيز خـان » بجيوشـه حتى انهارت حصـونها أمامـه وتمزقت وأصبحـت وكأنها لم تكن ، وذلك بما ملكـت مع مولدهـا من أسباب للفناء ومع نشأتها من بذور للهلاك .

مبعث الشّـــر

لقد رأينا كيف كانت نشـأة الدولتين الخوارزمية والمغولية ، كلتاهما اعتمدت على قـوتها الحربية تزيـد فيها وتهيـئ لها علّها تستطيع يـومًا أن تخضع ما حولها وتضم الشعوب المجـاورة إليها . وانفسح الطريق أمام «المغول » فضمّوا إليهـم « الخطاى » السوداء كما رأيت ، وباتـوا بعدها يُتاخمون الـدولة الخوارزمية لا يفصـل بينهما شئ . واجهت قُـوة قوة ، وجاورت دولـة فتية طامحة دولـة أخرى فتيـة طامحة ، فكان لا بُـد من صـدام بين تلـك القـوتين ، خسر فيـه « المغـول » شيئًـا ، وخسر فيـه «الخوارزميون » شيئًـا ، وكان لا بُد مـن أن يجرَّ هذا الصـدام إلى حرب عاتية تُكتب لإحداهما فيها الغلبة ، ولكن «جنكيز خان » كان فى شغل شاغل بحربه مع الصين ، ولم يشأ أن يفتح على نفسه بابين من الحرب ، فمال إلى أن يهادن الدولة الخوارزميـة ، وأرسل إلى الشاه رسالـة تفيض وُدًّا وتفيـض أُنسًا ، يَعنينـى أن أقتطف لـك منها شيئًـا ، فهى سـوف تـدلّك على مـا كـان لخوارزم مـن شأن ، حسبنـا عنـه أن أقـرَّ به خـان المغـول ، كما تـدلنا على خُلـق المحـاربين ونَهجهـم ، فهم كما يـؤمنـون بالبطش حين يـأمنون العاقبة ، يمَيلون إلى السلم حين لا يـأمنون تلك

العاقبة . على هـذا النحو جاءت رسالة الخان إلى الشاه يقـول له فيها : «ما غاب عنى ما بلغتَ من شأن ، وما أدركت من سلطان ، لك الملك المبسوط ، والحكـم النافـذ ، تدين بـه لك أقاليـم شتى ، ولقـد رأيت مسالمتك واجبًا من بين الواجبات ، إذ أراك بمنزلة أعز أبنائى إلىّ ، ولا إخالك تجهل أنى قد ملكت الصين وبسطت سلطانى على ما وراءها من بلاد الترك ، أذعنـت لى قبائلهم ، ودانـت لى عشائرهـم ، وإنـك لتعلم أنى أملك أرضًا تموج بالجند وبها معدن الفضة ، فإن رأيت أن نصل ما بين البلدين ونفتح الطريق أمـام التجار يختلفون إلى هنا إلى هناك ، عَمّ النفع بلَدينْا وشاع الغُنم».

وهكذا أعطـى « جنكيز خـان » للشاه حقـه من الإجـلال والإكبار ليستيمله إليـه ، لكنه لم يشـأ أن يهمل نفسه فـأحبّ أن يَـدل الشاهَ على شأنه ، مـن أجل ذلك أعطى للشاه صـورة صادقة عن قـوته وبطشه ، ليُكبره الشاه كما أكبره هو ، وليكـون الأمر بينهما ما بين ندٍّ ونـد ، لا ما بين رجـل كبير ورجل صغير . وحمّل الخان تلـك الـرسَالـة ثـلاثة مـن التجار المسلمين ، وحمّلهم معهـا جملة من الهدايا والعطـور ، وشيئًا من سبائك الفضة ، وشيئًـا من الأحجار الكريمة . وكان وصـول الرسل مع أوبة « علاء الـدين » من « بغداد » فاشلا . ولم يكـن رجوع « علاء الدين » من « بغداد » رجوع المنهـزم فيذل ويهون ، ولكنه كان قد رأى الأمـور فى يديـه وأباهـا عليـه القَدَر ، فلـم يهُن ولم يذل ، وعـاد يُحسّ إحسـاس المنتصر ويستشعر شعـور المغلـوب على أمـره ، فيزيـده هـذا

الشعور الثانى اعتزازًا بنفسه وثورةً على القَدَر الذى حال بينه وبين ما يريد . وإذا ثار الإنسان على القَدر ملأته هذه الثورة ضيقًا بما حوله وقُنوطًا وهمًّا . من أجل ذلك ما كادت رسالة « جنكيز خان» تقع فى يد «علاء الدين » حتى نظر إليها بعَيْنى ثورته وغضبه لا بعيْنى رضاه واطمئنانه ، فرآه شرًّا ما رآه « جنكيز خان» خيرا ، وعزَّ عليه أن يخاطبه المغولى فيُسمّيه ولده ، ورآه لونا من التهديد ما ذكره المغولى من إخضاعه للأتراك ، وما كان « علاء الدين » بعيدًا عن الأتراك نسبًا وأصلا .

والتفت «علاء الدين » إلى تاجر من التجار الثلاثة الذين حملوا الرسالة إليه يستوضحه مبلغ ما وصلت إليه قوة « جنكيز خان» وما وصف به نفسه ، فعْلَ الرجل الذى قضى فى أمره وقَضى أن يحارب خصمه فهو يستوثق قبل أن يُقدم . وما كذب التاجر الشاه ولا أراد أن يغرِّر به ، فلقد وصف الخانَ وما يملك ، لم يَغْل ولم يَنقْص . و لكنه على هذا أحس الغضب فى عينى «علاء الدين» ، وهكذا الملوك مهما كانوا ، وعلى أية حال وُجدوا ، لا يرون فى الدنيا خيرًا منهم ، ويُغضبهم أن يسمعوا أن فى الدنيا من هو خير منهم ، لهذا يعيشون ـ إلا القليل منهم ـ مخدوعين ، ويموتون مخدوعين ، تَصْلَى أُممهم بخداعهم أحياء وأمواتا . وما إن أحس التاجر غضبة « علاء الدين » حتى عدل عن الصدق إلى الكذب ، وعن الحق إلى الباطل ، فهوَّن من شأن المغولى ورفع من شأن الخوارزمى ، تهوينًا كاد يذهب فيه بكُل ما

للمغول ، ورفعـةً كادت تجاوز الحد عـن الخوارزميين . ولكن «عـلاء الدين » على هذا لم يكن بالغُرِّ ولم يكن بالغافل ، فلقد أرضى هذا نفسه ولكنـه لم يُـرض عقله ، ورأى الأمـر سـوف يُكلفـه شيئًا إن هـو تـرك للغضب أن يملـك زمامـه ، فأذعن للخـان فيما طلب ، وكـانت بينهما مُعاهدة تُظل التِّجـارة والتجار بالأمن والطمأنينة ، يَغْـدون ويروحون على الطريق بين «خوار زم » وبلاد المغول » فى حراسة الحراس .

وعلى حين كانت الأمـور تجرى صفواً طيّبة رخيَّة نـاعمة بين المغول والمسلمين فى « خوار رزم » ، كانـت تجرى عاصفة عاتية عكـرة قاسية بين المسلمين فى « خوار زم « والمسلمين فى « بغداد » . لم يقـو الشاه على الخليفة العبـاسى ، ولم يقـو الخليفة العباسـى على الشاه ، وكـان للشاه أمل فى أن يعـود فينتصر ، ولم يكن للخليفة أمـل فى أن يعود فينتصر ، من أجل ذلك لم يفكر الشاه فى أن يحالف على الخليفة ، ومن أجل ذلك فكر الخليفة فى أن يحالـف على الشاه ، وإذا يد الخليفة العبـاسى تمتدّ إلى المغولى يريد أن يجعل منه حليفًا على الشاه .

وأخذ الخليفة يدبّر لأمره ، فهـو لا يستطيع أن يرسل إلى المغولى إلا إذا اجتاز الرسول « خوار زم » ، وما أخوفَ الخليفة فى أن يقع الرسول فى يـد الشاه ومـن أن يفتضـح أمره فتفسُـد عليـه خطتـه ويضيع عليـه تدبيره . ولكن الحكام إذا أرادوا لم يَعْيَوا ، وإذا أعملوا فكرهم لم تَفُتْهم الحيلة ، فأرسل الخليفة إلى رجل من رجاله المُخلصين له وأعمل المُوسى فى شعره فأزاله ، وخَـطّ على جلد رأسه رسالته ثم تـرك شَعره لينمو ،

فكسا الشعرُ الرسالة ولم يعد يظهر منها شيء . عند ذلك أرسل الخليفة رسوله إلى الخان ، واخترق الرسول « خوارزم » دون أن تنكشف له حال ، وبلغ الخان آمنًا ، وكان هذا الرسول قد أُلزم بحفظ الرسالة فحفظها عن ظهر قلب ، وتلاها على الخان ، وكان الخان يشكّ فى أمره فأمر بأن يُحلق شعره فبان له صدقه حين وجد ما خُطّ على جلدة رأسه هو ما تلاه بلسانه . ولكن الخان لم يُرد أن يستجيب إلى الخليفة ، واكتفى بأنْ عَلِمَ من أمر الخليفة وأمر العالم الإسلامى شيئًا ، فأرجأ انضمامه إلى الخليفة وأرجأ إقحام نفسه فى تلك الحرب بين المسلمين إلى حين قدّره فى نفسه ليدرس ما حوله ، فإذا أقدم أقدم عن بيّنة وخبرة .

ويَفِد إلى بلاد الخان ثلاثة من التجار المسلمين يحملون بضاعة ثمينة ، ويعلم علم هذه البضاعة الثمينة الحافظون للطرق ، ويرون أنها بالخان جديرة ، فحملوا التجار ببضاعتهم إليه . ويسأل الخان واحدًا من هؤلاء التجار عن ثمن ما فى يديه من بضاعة ، فيجيب هذا التاجر ، وقد أُنسى شيئين ؛ أُنسى أن « المغول » على بصر بالتجارة يكادون يقدرون الأشياء قدرها لا تختلّ فى تقديرهم الأثمان ، وأُنسى أنَّ أبغض شىء إلى الخان أن يساومه إنسان على تجارة . أُنسى هذا التاجر هذين وأخذ يغلو فى تقدير بضاعته ويفرض لها ثمنًا يجاوز الخيال ، فثارت ثورة الخان وأباح بضاعة هذا التاجر لرجاله ينهبونها كما يشاءون ، وأمر فأُلقِىَ بالرجل فى السجن .

ومَثَل بين يدى الخان زميلاه ــ أعنى التاجرين الآخرين ـ وكان قد

انتهى إليهما مـا حلّ بزميلهما ، فَفطنا لأمـرهما وعرضا مـا يملكان على الخان هـدية . والهدايـا تفعل فى النفـوس فعلهـا ، تَعمرهـا بالأنـس ، وتقرّب مـا بينها ، وتزيل الـوحشة بين أصحابها . وهكـذا سُرَّ الخان بالهدايا . والمُلوك حين تُؤنسهم بالهدايا تجُرُّهم إلى أن يبذلوا أضعافها ، فهم لا يـرضَون أن يكونوا أصغـر من المُهدين . وهكـذا عوّض الخان هذين التاجرين أضعافًا مضاعفة عمّا قدّما . فكال لهما من الفضة كيلاً ، ورضى عنهما رضىً جرّه إلى العفو عن صاحبهما .

وعاش هـؤلاء التجار الثلاثة فى معسكـر المغولى راضين مطمئنين، حتى إذا حان حين رحيلهم ، أمر الخان فنُودى فى الناس بأن يبعث كُل أمير من دولته رجلا وكـل قائد من قواده جنديا ، يحملـون جميعًا سلعًا مغولية إلى غرب آسيا ، ليستبدلـوا بها غيرها مما يُعرض فى أسواق تلك البلاد . وأرسل مـع هؤلاء التجار رسالة إلى « علاء الـدين » ، يصف فيها له ما لقى هؤلاء التجار من أمن فى ظل الخان ، ويذكر له أنه أرسل فى معيته رجـالا من عنـده ببضاعـة مغوليـة ليحملوا عـوضًا عنهـا إليه بضاعـة خُوارزميـة . وكما بدأ الخان رسالتـه إلى « علاء الـدين » يـذكر الأمن الذى لقيه التجار المسلمون ختم رسالته طامعًا فى أن يلقى التجار المغوليون أمنًا مثله ، ليتأكد ما بين البلدين من حلف تجارى ، ويقضى على كل ما من شأنه أن يفرّق بينهما ، أو أن يدع مجالا للفُرقة .

وبلغت القـافلة مدينة « أوتـرار » على نهر « سيحون » وكان قـوامها أربعمائه وخمسين رجلا ومعهم خمسمائة جمل . ورأى القافلة أميرُ المدينة

«ينال » وكان قريبًا من أقرباء السلطان « علاء الدين » ، فهاله الأمر وظنها جيشًا غازيًا ، وكان يؤكد له ذلك ما رآه في إثرها من جند مسلحين . فخفّ يكتب إلى الشاه ما هو فاعل . وسرعان ما ردّ عليه الشاه « علاء الدين » دون أن يتروّى ودون أن يتدبّر ، يأمره بمصادرة ما معهم وقتلهم جميعًا .

وكأنّى بهذا الأمير لم يقل الحق فى كتابه إلى الشاه ، وكأنى به لا عهد له بمثل هذه القوافل التجارية ، وكأنى به لا يعلم ما بين الخان والشاه من حلف تجارى ، وكأنى به حين هاله الأمر خرج عن وعيه فوصف غير ما بين يديه . وما أظن « علاء الدين » مهما بلغ به الشطط ، وبلغ به النَّزَقُ ، وبلغ به الغضب ، يخرج عن حلف معقود دون مبرر ، ويقسو على الناس تلك القسوة دون إعذار أو إنذار .

ولكنى أعود فأقول : لعل « علاء الدين » ، ولعل ذلك الأمير من قبله ، كانا يعلمان ما للخان من سابقات فى التجسس ، يستعين فيها بإرسال التجار والجند عيونًا له يسبقوه إلى تلك البلاد التى يريد أن يغزوها ، وما أظنّ الأمير وما أظن « علاء الدين » غاب عنهما ما فعل الخان فى الصين من قبل من شىء كهذا .

من أجل ذلك اشتطّ الأمير فأنهى إلى الشاه الخبر كما كان على حقيقته ، نافذًا إلى باطنه غير مخدوع بمظاهره . ومن أجل ذلك استشاط الشاه غضبًا ، فأنهى إلى الأمير ما أنهى غاضبًا ، يرى الحق معه ، ويرى أنه إن أبطأ فى الخلاص من هؤلاء فتح على نفسه بابًا من الشر قد لا يستطيع غلقه .

ويبلغ « جنكيز خان » ما فعل الشاه برجاله فيَغضب ويَهيج ويخلق من الباطل حقًّا ، ويجعل من تلك السابقة - التى هو فيها ملوم - حليفَه ملوما ، وكأنه قد عزّ عليه أن يخفق فى وسيلته تلك فيَقلق . وكان إذا قلق صَعد فى الجبل ونزع عنه قَلنسوته وعلّق نطاقه فى عُنقه ، واتجه إلى خالق السماء ومُرسل السحب والرياح يسأله النصر على عدوّه الخُوارزمى هذه المرة .

هذا شىء كان يفعله الخان ، وسواءً أكان يصدر منه عن زَيف أو عن إيمان فقد ملك أن يحرّك به قلوب الناس معه ، وقد جرّبوه من قبل يدعو إله السماء فيَستجيب له إله السماء . ويحكُون أن الخان استقر على الجبل ثلاثة أيام لا يبرح ، صامتًا لا يتكلم . ويحكون أنه فى الليلة الثالثة رأى فيما يرى النائم شَبحًا فى جلباب أسود وبيمينه عصًا يُشير بها إليه وهو يقول : لا تخَش شيئًا فإنى ناصرك .

وهبّ الخان من نومه فزعًا ، يخالجه شىء من خوف ، ويخالجه شىء من فرح ، واختار رجلاً من المسلمين جعله رسوله إلى الشاه ، وأرسل معه رجلين من « المغول » ، وقد حمّل ذلك الرسول رسالة إلى «علاء الدين » يقول له فيها :

« لقد تنكّرتَ لحلفك ، ونقضت ما خطّت يمينك ، وإنها لكبيرة على الحليف أن يفعلَها ، فما بالك إذا كان ذلك الحليف مُسلما ، وإنْ عزّ لك أن تزعم أن ما فعله الأمير « بنال » كان عن غير أمر منك ، فسلّم إلينا الأمير تَسْلم ، وخلّ بينى وبينه أجْزِه بالذى فعل ، حَقْنا

للدماء أن تُراق ، وتسكينًا للنفوس أن تثور ، وإلا فآذن بحَرْب تذهب بالرخيص والغال وتترك بلادك وما عليها عرضة للسلب والنهب والخراب » .

وكان الأمير « ينال » يمُتُّ بصلة القربى إلى أُمّ الشاه « تركان خاتون» وهى تركية ـ كما مرّ بك ـ وكان لها نفوذ يصغر معه نفوذ الشاه ، وكان الأمر أمرها والنهى نهيها ؛ من أجل ذلك لم يستطع الشاه أن يُسلم الأمير «ينال » إلى الخان فيخالف أمر أمه ، بل لقد غلا الشاه فقتل الرسول المسلم ، وأمر بالمغوليّين فحُلقت لحاَهُمًا وشُهِّر بهما .

ومن فعل هذا كان عليه أن يستعد لحربٍ ، لهذا ما نفض الشاه يده مما فعل برُسل المغولى حتى أخذ يحشد الجيوش ويقيم الحصون ويَبنى الأسوار حول المدن ، ثم جمع إليه رجاله ممن لهم بالحرب خِبرة ، فأخذ يناقشهم ليرَوا معه الرأى النافع والخطة السليمة .

وعاد المغوليّان إلى الخان على حال يُرثى لها ، فحزّ فى نفسه ما رأى من شأنهما ، وقصّ المغوليان على الخان ما كان من أمر الشاه وما رأيا ، فازداد غضبًا وعزم على أن ينتقم من الشاه ، وألا يدع الشاه يعبث برجاله وبُرسله هذا العبث المهين . وكما عوّدنا الخان أن يفعل ، سبق فبعث عُيونه والكاشفين يَسبقون الجنود ويجوسون خلال الجبال ، يتعرّفون الطرق ويتحسّسون الأخبار .

وأحسّ الشاه ما بدأ به الخان ، فأرسل هو الآخر عيونه يتعرفون أخبار جيوش « المغول » . وهكذا سبقت الحرب نُذرها وبدت فى

الأفق رُعـودها ، ولم يبـق إلاّ أن يَنْشب القتـال وتراُق الـدماء ويـأخذ الرجال بأعناق الرجال ، حتى تُكتب لأحدهما الغلبة على الآخر .

ومن هنـا جرّت حادثـة « أوترار » على المسلمين الخطوب الفـادحة والكوارث البـالغة ، حتى لقد قيـل : « لقد ضحّى المسلمون عـن كل قطرة من دماء أولئك « المغول » بسيل من الدماء ، وتقاضى « المغول » عن كـل شَعرة فى رءوس هـؤلاء التجار أضعافهـا مضاعفـة من أرواح المسلمين » .

صراع الطبيعة

وهكذا صحَّ عزم الخان أن ينتقم من الشاه ، وأن يُلقى عليه درسًا لا ينساه ، فأرسل يجمع إليه الحكام والأمراء الذين يخشى منهم الغدر ويخشاهم على مملكته فى غَيبته ، فطلب إليهم أن يخرجوا معه وأن ينضموا إليه فى حرب الشاه ، ونظر الخان فإذا قوّاته لا تزيد عن المائة ألف . فأرسل يدعو قوّاده أن يلقوه بجيوشهم على ضفة من ضفاف تلك الأنهار التى إلى الجنوب الغربى من صحراء « جوبى » حيث السهول المنبسطة والمراعى الممتدة ، فخفّوا إليها يسوقون بين أيديهم قطعانًا لا تُعدّ ولا تُحصى ليتركوها فى تلك السهول وعلى تلك المراعى فصل الصيف الخصيب فتسمن وتكبر ، وأمر فخرجت النساء بالخيام ينصبنها لاستقبال المحاربين ، ولتكون مثوى لمن يفَدُ عليهن من القواد ليلا .

واجتمع إليه قواده فى مؤتمر عام ودرسوا الخطط ووضعوا الوسائل وأعدّوا ما هم فى حاجة إليه لمثل تل الغزوة . وخرج الخان على جواده الأبيض وفى قلنسوته ريشات من ريش النسر ، مُتمنطقًا بمنطقة عريضة مرصّعة بالذهب ، يلبس حُلة من الجلد ذات فراء أسود وأكمام

طويلـة ، ومرَّ يستعـرض جنده . وكـان أحرص مـا يكون حين يخرج لحرب ، على أن يتفقد الجيـاد بعُدَّتها ، ويتفقـد الأسلحة كلهـا ، فلقد كان محاربًا يَعرف أن الفـارس بجواده وعُدّته ، فإذا هو فقـد جواده من تحته ولم يصلُح له سلاحه الذى فوق كتفه لم يُغن فى الحرب شيئًا .

وما إن استعـرض الجند حتى وقف فى وسـط الساحة وقـد اصطف الجنود صفـوفًا فى سُكون ، وإذا هـو يصيح فيهم : سنسير معًـا لنكيل لخصمنا الصاع بـالصاع ، ولنعاقبه على ما فَرط منـه فى حقنا ، ولنَنتقم لمن قُتـل مـن رجـالنـا ، وستكـونـون شركـائى فى السرّاء والضرّاء ، واعلموا أنه لا نَصر لجنـد إلا مع الطاعـة ، وإلا مـع النظـام ، فَلْيُطـعْ الجندىُّ قـائدَه ، ولْيُطـع القـائدُ أمـيرَه ، واعلموا أن جـزاء من قَصَّـر الموت ، ليس له وحده ، وبـل لنسائه وأولاده .

* * *

وإن نظرة إلى خريطـة آسيا وإلى ذلك اللون البُنىّ القاتـم الذى يُظل تلك البقعة ، لتدلّ على ما يقوم فوق هذه الأرض من جبال شامخة وما يفترش أرضها من هضاب وتلال . وأرضٌ هذا شأنها لكفيلةٌ بأن تعوق الجيوش وتقوم حاجزًا منيعًا فى سبيلهـا ، تفوّت تقُّدمها وتمكِّن لنفسها مـن أن تَنـال منهـا . هـذا إلى أن طبيعتها الممحلـة وأرضهـا المُجدبـة ونضوب المياه فيها أمر آخر له خَطره على الجيوش .

لذلـك كان لزامًـا على الخان أن يتدبّـر أمره بين تلك الجبـال ووسط تلـك المتاهـات ، وأن يعرف أى سبيـل هـو مُختَرق وأية أرض سـوف

يَدوسها ، فلقد كان لزامًا عليـه وعلى جنده أن يقطعوا تلك المرحلة من غرب بحيرة « بيقـول » إلى بلاد « فـارس » ، صاعـدين فى الجبـال مرة هـابطين إلى السفوح أخـرى ، ضاربين فى الـوديـان مجتازيـن المضايـق خائضين فى الأخاديد والأخوار ، سابحين فى الأنهار . وهكذا ضُـرب على هذا الجيش المغولى بهذه الحرب رحلة من أقسى الرحلات وأشقِّها ، إنْ قَوِى على الجوع لم يَقْـو على السير ، وإن قوى على السير لم يَقْـو على الريح العاتية والبرد القارس الـذى تجمد معه الأطراف ، ولا يستطيع الإنسان معه حركة .

ما غاب عـن الخان هذا كله . ولقد دبّر لهذا كلـه ، وكان ذا عزم لا يثنيه عنه إلا الموت ، عَزم الرجل البُدائى الذى لا يملك فى ثورته عقله ولا وُجدانه ولا قلبه ، ويَمضى هائجًا هيجان الوحش المفترس لا يَردُّه عن قصـده إلا أن يموت أو يُميـت . دَعك مـن إيمان « جنكيز خـان » بنفسه وإيمانه بقوة جُنده ، فلقد كان هذا الإيمان وذاك شيئًا تَنطوى عليه النفوس ، ويجرى به الدم ، وينبض به القلـب ، فإذا صاحبه قد أنسى نفسه وأنسى الموت الـذى يستقبله ، وذكر شيئًا واحدًا هـو أنه لا بد أن ينتصر .

ويهُلُّ الفجر ، ومع إهلال الفجر كانت تحركات « المغول » . فَدقَّت الطبول ، واندفعـت بين أيديهم قطعان الماشية ، تلـك القطعان التى لا تقع تحت حصر ولا يشملهـا عدٌّ ، والتى شبّـت وترعرعـت ونَمَتْ فى تلـك المراعى الخصبـة ، وأصبحت وكـأنها جيش يسبـق جيشًا ، مـن

ورائها سار المقاتلون فى مركباتهم وعلى دوابهم .

ومضى ذلك الزحف فى سيره يلقى عناء بعد عناء ويبذل جهداً بعد جهد، يَصعد ويهبط . وكان الشتاء قد حلّ وكست الثلوج الأرض ، وبدت من تحت أرجلهم بيضاء ناصعة ، الشىء الذى اضطرّ القوم إلى أن يستبدلوا بمركباتهم زاحفات تَنقلهم فوق تلك الأرض الجليدية وكنت تستطيع أن تتعرف مسار القوم على تلك الصفحة الجليدية بما يخلّفون وراءهم من عظام على منعرجات الطريق .

صعد « جوشى » بفرقته فى جبال « تيان شاه » كما صعد « شيبه نويون» ، كلاهما قد بلغ القمة التى تناطح السماء ، ثم هبطا منحدرين نحو الجنوب يسلكان بجيوشهما الطريق الشمالى الرئيسى المُفْضى إلى بلاد الشاه ؛ على حين بقيت القوات الأخرى من الجيوش المغولية تزحف وئيدة ، تخوض الأغوار وتجتاز البحيرات المُتجمدة إلى أن بلغت بوابة « سنجريان » أو بوابة الريح - كما كانوا يسمونها - وهناك هبّت عليهم رياح عاصفة عاتية فنفقت الماشية . وكان الجيش من قبل ذلك قد استنفد الكثير مما يملك من طعام ، واستنفد الكثير مما يحمل من علف الدواب . فلم تقو بعدُ على أن تجرّ المركبات ، فاضطروا إلى ترك تلك المركبات فى الطرق ؛ وخلّوا بينها وبين الخيل ؛ ولكن الخيل على هذا قد أصيبت بالإعياء من قلة الغذاء . وكان البرد يصيب حوافرها بالعَطب ؛ فكانوا يلفُّون تلك الحوافر بسيور من الجلد لوقايتها ؛ وحين فرغ الزاد ولم يبق مع القوم ما يتبلغون به كان الرجل منهم يفزع إلى

جواده فيقطع شريـانًا من شرايينه ليمتص شيئًـا من دمه ، يدفـع بذلك عن نفسـه شيئًا من غـائلة الجوع وشيئًا مـن حر العطش . وهكـذا كاد البرد وكـاد الجوع لهؤلاء الجنود كيـدًا عظيما ؛ وقَسَت عليهـم الأرض وعنفت بهم الجبال. فكـانت رحلة من أشق الرحـلات لا تقوى عليها الجيـوش ؛ ولكن قـد قـوى عليها جيـش « المغـول » وصَمد لصعـابها كلها ؛ وتلقّى شدائدها جميعها .

وكـأنـى بهذه المصاعـب وتلـك الشـدائد التـى تُـوهن مـن قلـوب الرجـال ، قد زادت قلوب هـؤلاء الرجـال قسوة وعُنفًا فـوق قسوتهم وعنفهم ، وغَدوا كـالوحوش الضاريـة يزيد الجوع وتزيـد القسوة من ضراوتها ؛ فإذا هى أكثر ما تكـون وحشية حين تجوع ؛ وأكثر ما تكون ضراوةً حين تقسوعليها الطبيعـة ؛ فاندفع هؤلاء المحاربـون المغوليون حين بلغوا الهضـاب الغربيـة وحين أصبحوا خلف بـوابة الـريح ، إلى غابـات الصنوبر التـى راعتهم أشجارها الفـارعة الطويلـة الضخمة ، يقطعـون الغصـون ويـوقـدون عليهـا مـع الليـل ليبعثـوا الـدفء فى أوصالهم ، وإذا هم حين أنسُوا بالدفء قـد أُنْسُوا ما مرَّ بهم من شدة ، فجلسـوا حول مـدافئهم يَضحكـون ويسمرون وكـأنهم لم يبعدوا عـن مراعيهم وقبابهم فى صحراء « الجوبـى » ، وانتشروا هنا وهناك فى تلك الغابات الصنوبرية يَصيدون الدببـة والثعالب ، يقذفون بها إلى النار ثم يلتهمونها نهمين شرهين ، تاركين حين رحلـوا من خلفهم عظامهـا مع عظام ما بقى من حيوانهم لتدلّ على آثارهم .

وانتهت الجيوش بعـد ما جازت من جبال ومرت بـوديان وسلكت من غابـات ، إلى السهول التى على حـدود الامبراطورية الإسـلامية ، وأخذت فرق الجيش يـدنو بعضها من بعض ، يلحق المتـأخر بالمتقدم ويتلبّث المتقدم ليلحـق به المتخلف ، حتى إذا مـا تجمعت أخذت تعبر نهر « سيحون » وكان عندها فى إبان فيضانه ، وكلما مرت تلك الجيوش بقريـة من تلك القرى المنتشرة على ضفـاف النهر أغارت عليهـا فنهبت وسلبت وأهلكـت الحرث والنسل ، وحملت معهـا ما يخفّ ومـا هى فى حاجة إليـه من طعام وكسوة وعلَـف للدواب ، يسترون هجماتهم على تلك القرى الآمنة الوادعة بالحرائق يُشعلونها ليشغلوا الناس بها فينسوا المهاجمين .

وكان الشاه عندما بلغت تلك الجيوش حدود بلاده قد عاد لتَوّه من الهنـد منتصراً فانتهـى إليه خبر هـذا الغزو ، وكـان جيشه لا يـزال على أُهْبَته لم يخلع عنه لباس الحرب فخرج بـه للقاء « المغول » ، وكان قوامه أربعمائه ألف مقاتل ، فاندفـع إلى الشمال لكى يدرك هذا الجيش المغولى قبـل أن يلتئـم شملـه ، فيقضـى عليه . وكـان الشـاه يـرى أن قـوات «المغول» لن تصمد لقـواته ، عقيدةً عَمر بها قلبُه يُذكيهـا فى هذا القلب أنـه مُسلـم وأن خصمـه وَثَنـىّ . ومـا كاد الشـاه يبلـغ قـريبًا مـن نهر «سيحون» حتى ترك الشطرَ الأكبر من جيشه هناك ومضى هو فى البقية الباقية منه مُنحدراً إلى مصب النهر .

لقد قدّر شيئًا وساق القدر إليـه شيئًا آخر . فلقد قدّر أن « المغول »

بعيدون عن هذا الطريق الذى سلكه وأنه سوف يلقاهم فى مكان آخر. فإذا هو أمامهم وجهًا لوجه فى واد طويل ، تكتنفه الغابات الكثيفة وعلى جانبه المنحدرات . وكانت جيوش الشاه تفوق جيوش «المغول»، تفوقهم عددًا وتفوقهم قوة، وكانت الرحلة الطويلة الشاقة قد أنهكت « المغول » ، وكان جنود الشاه قد نالوا حظًّا من راحة . ولذلك أراد الشاه أن ينتهز الفرصة ويأخذ «المغول» على غرّة ، فسرعان ما نُفخ فى الصور ودقّت الطبول ، فإذا الجيش قد اصطف، وإذا هو على أُهبة بأن يخوض معركة فاصلة .

وفزع « شيبه نويون » لما رأى من تلك الحشود فى نظامها وعددها وسلاحها . وعلم أنه لن يقوى لها إذا وقف أمامها وجهًا لوجه وأملى عليه تدبيره السريع أن يأخذ فى الحيلة . وحيلة « المغول » معروفة ، لكنها جازت على المسلمين . فحين رأى « شيبه نويون » أن لا حيلة له فى نصر إذا واجه خصمه فكر فى خداعه . وطلب إلى زميله « جوشى » أن ينسحب بفرقته أمام العدو ليغريه باللحاق به . خدعة قديمة للمغول مرَّ بك شىء عنها . ولكن « جوشى » ابن الخان أَبَى على صديقه هذا وأصدر أمره إلى جنده أن يهجموا . وامتطى المغول خيولهم وسيوفهم القصيرة فى أيديهم القابضة على أعنّة الخيل والرماح المشرعة فى أيديهم الأخرى ، واندفعوا نحو أعدائهم. ونَشبت الحرب وكان نصيب المسلمين فيها غُرمًا كبيرًا ، وتعرّض الشاه لمحنة من المحن القاسية ، كاد يذهب فيها ضحية حين أحاط به « المغول » لولا أن

استبسل فى الدفاع عنه حرسه الأشداء . وكرَّ « جلال الدين » أكبر أبناء الشاه على قلب « المغول » كرة ضعفوا أمامها ولم يصمدوا لها فارتدوا بألويتهم .

وحل المساء فترك « المغول » معسكرهم بنيرانه المشتعلة . وامتطوا خيلهم ينسحبون ، فقطعوا فى ليلة واحدة ما كانوا يقطعونه فى ليلتين . وأشرقت الشمس على ذلك الوادى فإذا هو مملوء بجثث القتلى ومن حولها كتائب الشاه ، وقد نالها ما نالها ، ولا أثر لمغولى فى الميدان . فقد اختفوا وكأنهم لم يكونوا . وكانت المنطقة قد تعرّت هى الأخرى مما على سطحها من نبات . فلم تجد الخيل ما تقتات به . ولم يجد الجيش هو الآخر طعامًا يكفيه . من أجل ذلك رأى الشاه أن يتراجع إلى مُدنه ليكون وراء أسواره المنيعة ، فيأمن هجمات «المغول » الخاطفة . ومرّت هذه الموقعة بعد أن تركت فى نفوس المسلمين أثرًا أى أثر . لقد هالتهم الخسائر التى خسروها ، وشق على نفوسهم أن تنال منهم تلك الشراذم المغولية ، وأذهلتهم تلك الشجاعة الخارقة للمغول . لم ينجُ من ذلك الشاه نفسه ، فلقد أصابه هَمٌّ لا يفارقه كاد يُقضُّ عليه مضجعه ويهيج نفسه ، ولكنه على هذا خرج من تلك الحرب وهو يُكْبِر أعداءه ويرى فيهم خير جند وخير قادة ؛ صبرًا وقوة احتمال وتسديدَ ضَربات .

وكان الخان فى إثر تلك الطلائع التى التحمت بجنود الشاه . وبلغه وهو على حدود الدولة الخوارزمية ما قام به ابنه « جوشى » فأرسل إليه مَدَدًا من الجند ، وأمره أن يعود فيتعقب الشاه .

فيما وراء النهر

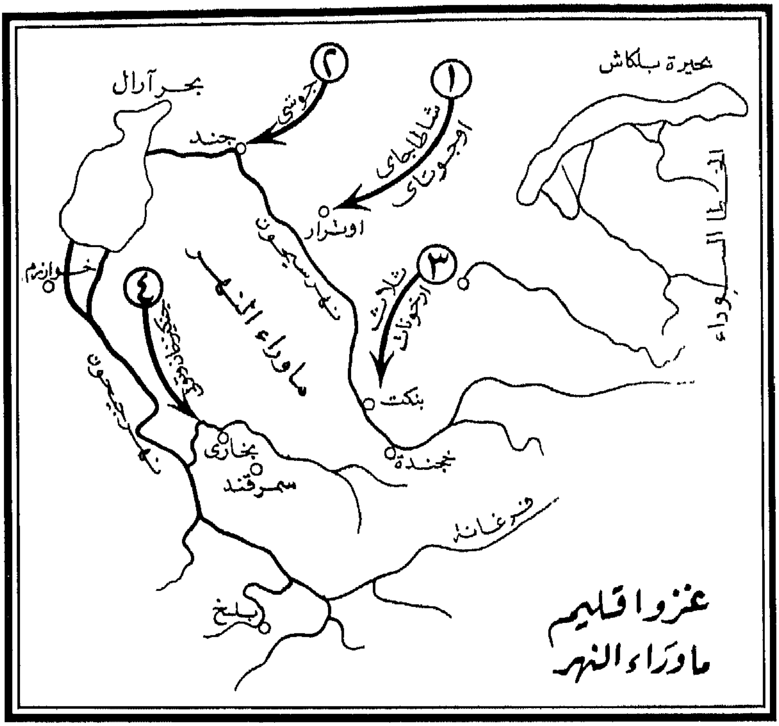
كان أول ما يطالع « المغول » الراجعين من الأقاليم الإسلامية إقليم «ماوراء النهر » ، وكان ذا شقَّين متباينين يفصل ما بينهما بحر «آرال » ؛ فإلى الجنوب والغرب من هذا البحر المالح كان الشق الأول ، وهو هضبة جرداء قاحلة تكسو بعضها طبقات من الطَّفل الأحمر ويعلو بعضها الآخر رمال وتراب ، وإلى الشرق من هذا البحر كان الشق الثانى من هذا الإقليم يخترقه نهران « سيحون » و « جيحون » . يجرى «سيحون » من الجنوب الشرقى إلى الشمال حيث يصب شمالى بحر «آرال » ، ويجرى « جيحون » جنوبًا حيث يصب جنوبى هذا البحر ، يضم هذا النهر وذاك بينهما واديًا خصبًا مُونعًا مخضراً . وعلى «سيحون» قد أُنشئ الكثير من المدن الإسلامَية ، شَىء منها على ضفته اليمنى وشىء منها عى ضفته اليسرى ، تصل هذه المدن بعضها بعضا طرق القوافل ، فكانت كحلقات فى سلسلة متصلة تمتد فى هذا الوادى الذى تكتنفه الصحراء . وعلى « جيحون » كانت تقوم قلعتا الإسلام المنيعتان « بخارى » و «سمر قند » .

* * *

وحين زحف « المغـول » إلى « خوارزم » ولّـوْا وجوهـم شطرَ هـذا الشـقّ الخصيب ، وإليـه انحـدر الشاه ليلقـاهم بجيـش بلغـت عدّتـه أربعمائه ألف مقاتل . ولبث الشاه إلى الجنوب من نهر « سيحون » يرقب خصمه يريد أن يدهم جيوشه وهى تعبر النهر . وطال به الانتظار فترك مكانه ليبحث عن عدوّه ، فإذ هو يلقاه وجهًا لوجه فى وادٍ من الوديان ـ كما مرّ بنـا ـ وإذا عدوُّه يلـوذ بالفـرار ، ويدرك الخان جيوشـه المنسحبة فيعجـب بما كـان لها من جـولات صـادقـة ، ويعجب بما كـان لها مـن انسحاب خادع ، فيزوّدها بمَدَد من الـرجال ومَدَد من العتاد ومدد من الرأى والتدبير ، لتعود فتهاجم جيوش الشاه .

وأطبقـت جيوش المغـولى على ميدان المعـركة تحيـط به مـن جهاتـه الأربع ، فكـان ولداه « أوجتاى » و « شـاطاجـاى » على رأس الجيش الأول الذى قصد « أوتـرار » ، تلك المدينة الإسلامية التـى قتل أميرها البعثة التجارية ، وكان ابنه « جـوشى » على رأس جيش ثان ، وكانت وجهته « جَنَد » القريبة من مصب « سيحون » للاستيلاء عليها ، وكان على رأس جيشه الثالـث ثلاثة من قواده ، وانحدر هـذا الجيش يستولى على « خجنده » و « بنكت » ، وجعل الخان قيادة الجيش الرابع إليه بعد أن ضمَّ إليه ولده « تولى » .

وبـدأت الجيوش المغـوليـة زحفهـا معًا تسبقهـا الأنبـاء لتبلغ سمع الشـاه ، فنبأ مـن « أوتـرار » بأن « المغـول » على أبـوابها ، ونبأ من «خوارزم» بأن «شيبه نويون » قـد انفصل عن « جوشى » بفرقة عبر بها


غزو اقليم
ما وراء النهر
بحر آرال
بحيرة بلكاش
١
اوجوتاى
٢
جوشي
٣
٤
جند
اوترار
نهر سيحون
ما وراء النهر
خوارزم
بنكت
خجندة
بخارى
سمرقند
فرغانة
بلخ

الجبال وهو فى طريقه إليها ، ونبأ من « خجنده » بأن الخان بجيشه أصبح على قاب قوسين أو أدنى منها . وهكذا تزاحمت الأنباء على الشاه فبَلْبَلَت فكره وأوقعته فى حيرة ، ورأى إن هو ظلّ فى مكانه خلف نهر « سيحون » تعرض لشيئين : انفصال عن مراكز الإمداد ، ثم قطع الطريق عليه إلى « جيحون » وهو خط دفاعه الرئيسى . من أجل ذلك لم يصدر الشاه عن رأى سديد ، ولا ملك فكره ليتدبرّ ، ولا اطمأن ليتروَّى ؛ وإذا هو ثائر طائش اللب ، وإذا هو مع تلك الثورة وذلك الطيش يفرّق جنده على المدن ليلقى العدوَّ أشتاتًا . وقد أُنسى أنه قد مكّن بذلك لعدوّه وأعطاه ما يريد . فلقد أراد الخان أن يشتت قوى الشاه بهذا الهجوم وأن يفوّت عليه التجمع ، فيسهل عليه النيل منه قوة قوة وفرقة فرقة . وقد تمَّ للخان ما أراد فإذا الشاه يرسل بأربعين ألفا من المقاتلين لتشدَّ أزر الحصون الممتدة على نهر « سيحون » ويخصّ «بخارى» بثلاثين ألفًا ، ثم يمضى بسائر ما بقى معه إلى « سمرقند » وكان العدو قد أشرف عليها .

ولقد ظن الشاه أن قلاعه ستغنى عنه شيئًا وسوف تردّ المغول على أعقابهم ، وأنهم لن يقووا على اقتحامها وأنهم لن يظلوا وراءها طويلا وسوف يعودون أدراجهم بعد أن يسلبوا ويغنموا من الزرع والماشية وغير الزرع والماشية ، لا هَمَّ لهم غير ذلك . ظن هذا الشاه فبرّر به ما فعل من تشتيت قواته على القلاع والحصون ، لكن هذا كان ظنًّا يُمليه الجهل بحياة «المغول» ، ويُمليه الجهل بسيرة هذا الغازى الجديد

«جنكيز خان» . ومـا نخال الشاه كان يجهـل هذا كله ، ولكنها كـانت زلّة حربية ، وكم لكل زلّة مـن تبرير ، ولكن التبرير إذا لم يسانده شيء ضم إلى الزلّة زلّة .

وكانت « أوترار » على الأطراف ، وكانـت المفتاح إلى تلك الأقاليم الإسلامية، وكـان حاكمها « ينال » خصـم « المغول » الأول ، وهم لا ينسون له ما فعـل . من أجل ذلك أسرعت « أوترار » تعـدّ نفسها قبل غيرها وتُدعّم حصـونها وقلاعها . ووقفت « أوترار »تدفـع عن نفسها أشهـرًا خمسـة ذاقت فيهـا ويـلات كثيرة حتـى خـارت قوى الـرجـال واختفت بطـولة الأبطـال . وبقى « ينال » فى الميـدان يمطر المغـول من فوق الأبـراج بوابل من السهـام ، حتى إذا ما انكشف رمـى بنفسه إلى سطـح من السطـوح ، وأخذ يـرمى « المغـول » بالحجـارة يناولها إيـاه النسوة إلى أن وقع أسيرًا ، فلقد كان هـو المقصود قبل « أوترار ». فهو يدافع عن نفســه مع دفاعه عن « أوترار » ولا غرو فهو يـدافع عن جاه وإمارة . ولا ندرى مـا الذى أبطأ به عـن أن ينجو بنفسه هاربًـا بعد أن فقد قواته المدافعة . لعله آثر أن يموت كريماً ، ولعله كان على يقين من أن فراره لـن يغنيه شيئًا ، فهو لـن يستطيع أن يخرج من مـدينة محاصرة يحيط بها الأعداء من جميع جهاتها . ووقع » ينال » فى يد الخان المغولى ، فأمر بأن تصـبّ فى عينيه وأُذنيه فضّةٌ مصهورة إمعانًـا منه فى التنكيل به وإمعانًا منه فى تعذيبه .

وفيما كان الجيش الأول يـدخل « أوترار » كان الجيش الثـالـث يجتاز

الـوادى الخصيب فى طـريقـه إلى « بنكـت » و « خجنده » ، ينتقـل بين بساتين نضرة ، فيها أشجار الفاكهة تتدلى منها ثمارها الطيبة ، يتميز من بينها الـرمان بحجمه الكبير الـذى تملأ الواحـدة منه قبضتى الـرجل ، وكان للقوم منه شراب لذيد مرىء . وتمتد على شاطئ النهر من ورائها حقول فسيحة تفيض بألوان من الزرع ، ويفترش البطيخ أرضها ، كل بطيخة تزن مـا يقرب من خمسين رطلا ، وبها الأراضى المنبسطـة تزخر بالأنعام والإبـل والخيل ، ومن وراء هذا كله القرى تحيـط بها أسوارها إحاطة السوار بالمعصم .

لم يغرّ هذا النعيم ذلك الجيش الجائع العطـش ، بل مضى فى طريقه لا يتلبّث ، ومـا نعنى أنـه لم يصب مـن ذلك شيئًـا ، وإنما نعنى أنـه مرّ زاحفًا إلى هدفه الأكبر فى ممرات جبـال « تيان شان » ذات البرد القارس ليبلغ « بنكت » و « خجنده » . وتهون « بنكت » فلا تقوى على مقاومة وتسلم أمرها إلى «المغول » فيدخلونها دون حرب . وكان على «المغول» أن يرعوا هـذا لهؤلاء القوم المسالمين ، وكان عليهـم أن يحسنوا إليهم ، وأن يحتاطـوا منهم ، ولكن المغـول كانوا غـادرين تُـملى عليهـم ذلك الغدر طبيعة النفس وطبيعة الأرض . لقد قست عليهم الأرض فقسوا على أنفسهم ، ثم قسوا على الناس مع أنفسهم .

وإنـا لنعجـب لهؤلاء « المغـول» بعـد أن فتـح لهم أهـل « بنكـت » الأبـواب ، وبعـد أن مكّنوهـم مـن الـدخـول حين لم يرعـوا لهـؤلاء المسـالمين سلمهم ، فقد جمعوا إليهم المحاربين لم يستثنوا منهم أحـدًا ،

وقتلوهم عن آخرهم لم يُبقوا منهم أحداً . وهكذا يؤمِّن المغوليون أنفسهم ؛ ويحموا ظهورهم ؛ لا يعنيهم ماذا يصيب الناس ولا يقدّرون ما يفعلون .

غير أن « خجندة » وقفت لهم تحميها أسوارها العالية وأبراجها السامقة المكينة ، ومن وراء تلك البروج وقف الجنود ووقف القائد «تيمور ملك» يدافعون عنها دفاع المستميتين . غير أن زحف « المغول » كان عنيفًا ، وهجومهم كان قاسيا فلم تصمد المدينة كثيرا وخرج عنها قائدها « تيمور » إلى جزيرة وسط النهر ، ومعه ألف من جنوده تنقلهم القوارب إلى تلك الجزيرة التى أخذوا فى تحصينها . واتجه إليهم «المغول» يضيّقون عليهم الخناق . وكانت المياه تفصل ما بين هؤلاء وما بين هؤلاء ، ولا يستطيع «المغول » بلوغ أعدائهم إلا إذا أقاموا جسراً يعبرون عليه ، وإن لم يفعلوا فسيظل ما بين القوم بعيداً وسيطول الحصار .

وشرع « المغول » يقيمون هذا الجسر يسخّرون له الأسرى من أهل «أوترار » و « بنكت » ، ينقلون الحجارة ويلقونها فى النهر . وأخذ الجسر يمتد يومًا بعد يوم تحت إشراف نفر من مهندسى الصين .

هذا على الرغم مما فعل القائد « تيمور » ، فهو لم يترك أعداءه يمضون فى إقامة الجسر ، ولم يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين . فلقد هيّأ من مراكبه أسطولا وحاط كل مركب بمتاريس خشبية تدفع عن رماة السهام الذين بها ، وبعد أن مكّن لهذه المراكب أطلقها فى النهر تقذف

«المغول» والعاملين فى إقامة الجسر بسهام دقيقة . وما سكت رجال المدفعية فى جيش « المغول » على هذه ، فراحوا يقذفون تلك القوارب بأوعية حَشوها النار والكبريت .

وما يئس «تيمور » ولافتّ ذلك فى عَضُده ، بل راح هو الآخر يقيم لتلك القوارب حواجز وسقوفا ذات ميل يكسوها بالطين لتنزلق عليها النار ولا تَعْلَق بها . وهكذا كان مكر « المغول » ومكر « تيمور » ، يغلب مكرٌ مكرًا ، ولكن ماذا يُغنى المكرُ أمام أيد عاملة لا يَقْوَى عليها هذا الفناء البطىء ، وأمام جيش جرَّار للمغول لا يملّ و لا يسأم ؟ وما هى إلا أيام أخرى حتى تمَّ الجسر وامتد إلى الجزيرة . وأحس « تيمور » أن عدوَّه مُدركه ، فخرج عن الجزيرة مع الليل فى رجاله تحملهم اثنا عشر مركبًا قاصدين الجنوب ، وذلك بعد أن حطم هذا الحاجز الذى أقامه « المغول » فى النهر يمنعون به العبور . وجرى « المغول » فى إثر «تيمور » يتابعونه على الشاطىء ، وسبق «جوشى » وسبق معه المهندسون ، فأقاموا المجانيق على الشاطئ يريدون أن يستقبلوا «تيمور» فى أسطوله الصغير فيبيدوه إغراقًا .

وفطن « تيمور » لما أراده أعداؤه ، فلم يُمعن فى السير نحو الجنوب ؛ ومع الليل أَرْسَى سفنه عند مكان مهجور من الشاطئ ، ونزل برجاله يظنُّ أنه فى مأمن وأن أعداءه عنه بعيدون . ولكنه ما إن وطئت قدماه الأرض ، ووطئتها معه أقدام رجاله حتى وجدوا «المغول» من حولهم يُعملون فيهم السيوف والحراب حتى أَفْنَوْهم جميعًا

لم ينجُ منهم غير « تيمور » الذى لاذ بالفرار . وجرى فى إثر «تيمور» ثلاثة من المغول استطاع « تيمور » أن يرمى أحدهم بسهم فيرديه قتيلا ، واستطاع أن يلوِّح للآخرَيْن مهدداً فرجعا عنه بعد ما رأيا من إحكامه للرمى بالسهم . ومضى « تيمور» فى فراره حتى أدرك الأمير «جلال الدين » ابن الشاه فى أقصى الجنوب .

وهكذا أفلح « تيمور » فى أن يشغل جيشًا للمغول شهوراً عدَّة ، أثبت فيها شيئًا من الشجاعة وشيئًا من الحيلة ، لا يعنينا ما انتهى إليه أمره ، فلقد فعل ما لو فعله غيره وصبر له لعوّقوا تلك الجيوش المغولية تعويقًا قد يبعث فيها الملل وقد يتيح للمسلمين فرصة .

* * *

ومضى الجيش المغولى الثانى بقيادة « جوشى » يطوى بين يديه القطاع الشمالى من نهر « سيحون » مستوليًا على تلك المدن الصغيرة التى يمرُّ بها ، وتخلّت الحامية التركية عن « جند » وتركتها له . وحين تم «لجوشى» الاستيلاء على الإقليم الشمالى واستخلاصه كله من أيدى أربابه المسلمين انحدر جنوبًا نحوالجنوب يؤازر الجيش الثالث عند «خجنده » . ولقد مرَّ بنا انفصال «شيبه نويون » عنه بفرقه قاصداً «خوارزم» إلى سمرقند . وما خرجت الجيوش المغولية فى فتحها هذا عن مألوفها الفظ وطبيعتها القاسية ، من قتل للمحاربين بعد استيلائهم على المدن ، ومن تسخير للأسرى فى أشق الأعمال .

عرف لهم الخوارزميون هذا فاستبشعوه منهم أولا ، ثم ألفوه عنهم

ثانيًا ، وسرعان ما يألف الناس القسوة إلفهم للرحمة ، يصبرون لذلك مغلوبين عليه ، لا يجدون فى يومهم جديدًا من ضيق ولا جديدًا من همّ . وإذا هم ذات يوم يجدون « المغول » قد جاوزوا قديمهم المألوف إلى جديد غير مألوف . لم يكن جديدًا يتصف بالرحمة فيخفف عن النفوس ، ولكنه كان جديدًا يتميّز بالإفراط فى القسوة ، فضجّت تلك النفوس المتألمة بألم جديد وذابت تلك القلوب التى تحجَّرت ألمًا لتجرى ألمًا .

فلقد حدث أن بعث المغول برسول لهم من التجار المسلمين إلى مدينة من المدن ، وكان الناس فى كل مدينة من تلك المدن الإسلامية ضيقة صدورهم بالمغول يضيقون بهم ذرعا ، وهم أكثر ضيقًا بمن يعاونهم ، لا سيما إذا كان ذلك المعين مسلمًا . فما إن وقعت أيديهم على ذلك التاجر المسلم حتى قتلوه ومزّقوه إرْبًا . وانتهى خبر ذلك إلى «المغول» وعدّه المغول امتهانًا لهم وتهوينًا من شأنهم ، وهم قساة وإن لم يُمتهنوا أو يهُانوا ، فما بالك لو أحسوا أنهم امتهنوا أو أهينوا ، فثارت ثائرتهم ، وأقبلت جيوشهم على تلك المدينة الظالمة المظلومة تحصد السكان حصدًا ، وإذا هم فى عشية وضحاها صرعى لا تجد من بينهم حيًّا ولا تجد من بينهم ساعيًا .

* * *

ولقد أنسانا الحديث عن تلك المجازر الدامية التى تلطخت بها أيدى المغول أن نسوق إليك حديث جيوشهم وحديث الجيش الرابع ،

خاصة الـذى كان يقوده الخان نفسه . فلقد انطوت أخبـار هذا الجيش عن المسلمين وعـن «المغول» ، وظـل هؤلاء وهـؤلاء لا يعلمون عنـه شيئًا . وأمعن الخان فى الاختفاء فكان يعمِّى آثاره على الطريق فلا يترك ما يدل عليه ، وإذا بـه يظهر فجأة على حافة الباديـة القاحلة وهو يسرع السير إلى « بخارى » من الغرب وكأنـه أراد بذلك أن يقطع ما بين المدن المحاصرة وما بين مراكـز إمدادها فيشطر الإقليم شطريـن ؛ وكأنه أراد أن يتم له الاستيلاء على القلب ليضرب ضربتـه الأخيرة ويقطع الطريق على الشـاه فيحـول بينـه وبين أن يسعـف مُدنـه المحـاصرة على نهر «سيحون» .

وأصبح الشـاه مطوّقًا تحدق القوى المغـولية بجانبيه ، وتكـاد تقطع عليه الطـريق إلى الجنوب حيـث جيوشه وابنـه جلال الديـن ، وحيث الإمدادات . وحيث « خـراسان » و « فارس » بمواردهـا الغنية ، وها هو ذا « شيبـه نويـون» يزحـف إليه مـن الشرق و « جنكيز خـان » من الغـرب . وأحسّ الشـاه الشر ، وأحسّ الشرَك الممـدود لـه ، فأرسـل جـزءًا من جيشـه إلى « بخـارى » و«سمرقنـد » ، وأرسـل جزءًا آخـر للدفاع عن « بلخ » و«كندور » ، وخـرج من «سمرقند » لا يصحبه إلاّ نفر من النبـلاء ورجال حرسه وجماعات مـن الفيلة والجمال ، وقد حمل معه كنوزه وكنوز أسرته ، وكأنه كـان قد يئس من تلك الموقعة فأراد أن يهيئ لموقعة أخرى .

ولكن الشـاه الذى عجـز عن هـذه عجز عـن غيرها ، وأتـاح لهذا

المغولى أن يقهره فى ميدان البطولة وأن يمحو اسمه من سجل الأبطال . فمن قبل هذه كان رعايا الشاه يلقبونــه بالإسكندر الثانى ، فإذا هم مع هذه التجربة القاسية ـ التى مُنى فيها الشاه بالفشل ولم يكسب نصرًا ما ـ يسيئون بــه الظن ، وتنطـوى قلوبهم على حسرة حين خـاب رجاؤهــم فيه ، وهو رجاء العالم الإسلامى كله حينذاك .

* * *

وكـان الخان عَجِـلاً مَشـوقًـا إلى أن يضرب ضربتـه الأخيرة ، فلـم يتلبث أمام تلك المدن الصغيرة التى مّر بها إلاّ ريثما يتزود بماء أو طعام ، إذ كان همّه أن يفـاجئ «عـلاء الديـن » فى « بخارى » . وكـان الظن أن يثبت « علاء الدين » للقاء الخان ، وكـان الظن أن ينتفع بقلعة المدينة ، يكيـل لخصمه مـن ورائهـا ويكلفه ثمنًـا ما قبـل دخـولها ، ولا يدعـه يدخلهـا دون جهد مـا ، فحاميتهـا لم تكن تقـل عن عشريـن ألفًا مـن المقاتلين بين فُرس وأتراك .

ولم تُثْبت « بخارى » وجودها أمام هــذا الفتح ، وفرّ « علاء الدين » عنها خـائفًا ينجو بنفسه . ودخلهـا « جنكيز خان » شـامخًا . ولا غرو فلقد كانت قلعة الإسلام الضخمة ومدينة الجامعات الإسلامية ، يضم ذلك كله سور يحيط بالمدينة وما حولها من قرى ومزارع يبلغ طوله نحواً من اثنى عشر فرسخًا ، تشرف مـن فوقه أنّى مددتَ البصر على خضرة واسعـة تنعقد مـع خضرة السماء ، فإذا أنــت بين قُبـة أرضها وسمائهـا سواء ، تلـوح القصور البيضـاء على رقعتها وكـأنها الكَواكـب ، والماء

ينساب بينها تحمله إليها القَنَوات من نهر « سمر قند » .

ومن عجب أن تُـذعن تلك المدينة المنيعة بحصونها ، الغنيـة بالرأى والفكـر ، والتـى كانـت على رأس البـلاد الإسـلامية يستملـون منهـا ويقتدون بها ، من عجب أن تذعن تلك المدينة « للمغول » فى هذا اليسر اليسير ، وتتيح للقـائد المغولى أن يسخـر بأهلهـا حين قال : « ليسـت الأسوار فى مناعتها بمُغنية شيئًا عن أهلها إن فقدوا شجاعتهم ووهنت قوتهم » .

ولكنا نعـود فنسأل : من كـانوا هـؤلاء المدافعين عنها ؟ لقد كـانوا جنودًا مأجورين من « الأتراك » الذين دخلوا على الدولة الإسلامية من طرق شتى ، همّهم المناصب ، وهمّهم الجاه ، وهمّهم الرزق ، شركاء فى اليُسر ، عونٌ للأعداء فى العُسر ، يعنيهـم أن يعيشوا ويموت الناس ، وإن استشعروا البـأس ولّوا الأدبار وتركـوا الناس يصلون هـذا البأس ويذوقون ويلاته .

هكذا فعـل الأتراك حماة » بخارى » ، لم يكلفـوا أنفسهم كثيراً ولا قليلا . وحين أشرفت على الأسوار جيوش « المغول » تركوا المدينة لهذه الجيوش فى جنح الظـلام آمنين ، وهجروا المدينة بأهليهـا رجالاً ونساء وأطفالا يلقون البأس والهلاك .

غير أن هـؤلاء الأتراك الـذيـن فـرّوا من الموت لقـوا الموت جبنـاء وماتوا فى ساحته جبناء . فلقد سكت عنهم « المغول » حين خرجوا من الأبواب الخلفية ، وأغضوا عنهم حين مـرُّوا تحت أعينهم ، حتى إذا ما

كانوا فى العراء لا يسترهم بنيان ولا يحميهم انقضُّوا عليهم فأفنوهم عن آخرهم .

وخرج شيوخ المدينة وقُضاتها وأئمّتها ليلقوا الخان ويسلموا إليه مفاتيحها ، ليؤمنوا الأهلين الويلات وليقوا المدينة شر الخراب . فما كان فى مقدورهم ولا فى مقدور الأهلين من خلفهم أن يفعلوا شيئًا ، ورأوا الأمن والسلامة فيما فعلوا ، ففعلوا .

ولكن المغول هم المغول ، يطربون للدماء ويهشّون للدمار ، ويستخفّهم أن يقتلوا وأن يسلبوا وأن ينتهكوا الحرمات ؛ لا يعرفون للحرب قانونًا ، قانونهم فيها هواهم ، وهواهم فيها هوى جرىء لا يعرف الحدود ولا يضبطه ضابط . وهكذا لم يؤمِّن « المغول » من استأمنوهم . ودخلوا المدينة وأهلها وادعون ، فنهبوا ما بين أيديهم ، واقتحموا المكتبات فبعثروا ما فى القماطر من كتب ، وتركوها تحت سنابك الخيل تدوسها ، ومن بينها المصاحف ، واندفعوا إلى المساجد وبيوت الله بخيلهم يتخذون من أبهائها مجالس للشراب يسكرون فيها ويعربدون .

هذا ما فعله جنود « المغول » ، وقد نلتمس لهم شيئًا من عذر لأنهم جفاة بدائيون لم يؤخذوا بحظ من تأديب ، ولكنا لا نستطيع أن نلتمس لمثل هذا الفعل عذرًا إذا وقع من رجل مثل الخان قيل عنه إنه تأدب ، وقيل عنه إنه أخذ الحكمة عن مشايخ قومه ، فلقد رووا له أنه نظر فرأى بناء يعلو المبانى ويكبرها ، فسأل عنه وهو يظنه قصر الشاه ،

فقيل لـه : هذا الجامع الأكبر ، فقصـد إليه على ظهر جـواده ، وصعد درجاتـه ، حتى إذا ما أدرك صحنه تـرجَّل عن جـواده وارتقى المنبر ، ونظر إليه المسلمون واجمين ، وكان ظنهم أن الرجل سيقول شيئًا ، فإذا هو يقول من على هذا المنبر المقدس ، ومـن ذلك المكان الطاهر الذى لا يباح فيـه لغو ولا يسمـح بلهـو : « لقـد نفد العلـف . . . . هيّا فاجمعوا للخيل علفها » !

ونزل الخان بعـد أن ملأ القلوب اشمئـزازًا وبعد أن ملأهـا جنوده ضغنًا وكـراهية . ولكنـه أحسّ أن القـوم لهم دين يحضّ على الـورع ، ولهم تقـوى تنهى عـن الفحش ، ولهم إسـلام يبـدو فيما يقولـون وفيما يفعلون ؛ فلان لهم والتفت إليهم يسائلهم عن دينهم وعن نبيِّهم فآمن بشئ وكفـر بأشيـاء ، وإذا كُفره يُـرْبى على إيمانـه ، وإذا هو آخـر الأمر جرىءٌ على الـدين وأهلـه ، ونسى مـا كان قـد بدأ فيـه ، وعاد يـذكر الحرب ومـا كـان عنها ؛ يغـريـه النصر ، ويمُعـن فى الاعتزاز بقـوّتـه وجبروته ، ويسخر بهؤلاء النـاس الذين سوّلت لهم أنفسهـم الوقوف أمامه والـدخول معه فى حرب . لام الأهالى لأنهم شاركـوا فى حربه ، ولا م الرؤسـاء فأكثـر ، لأنهم أثاروا هـؤلاء الناس لحربـه ، وإذا كان هـؤلاء وهؤلاء مَلُـومين مجرمين فقـد عَـدَّ نفسه « نقمـة الله » أرسلهـا عليهم ، يسوق الدليل على ما يقـول بأنه المنتصر ، ولو لم يكن نقمة الله ما انتصر . .

وكما أفاد الخان من الصينيين أفاد مـن المسلمين ، فقد كان المسلمون

لا يقلُّون عن الصينيين حضارةً وتمدينًا ، لهم المدن المشيدة ولهم الحضارة التليدة ومن بينهم العلماء والفنانون ، وبين أيديهم كتب ومؤلفات يتناقلها عنهم الناس . هذا الملك الواسع لم يفت « جنكيز خان » أن يأخذ عنه ويفيد منه ، وكما أخذ عن الصينيين أخذ عن المسلمين ؛ أخذ عنهم فنونهم وعلومهم وأخذ منهم رجالهم وصنّاعهم، وهكذا انتفعت صحراء «الجوبى» بشىء جديد عن المسلمين بعد هذا الشىء القديم الذى أخذته عن الصينيين .

وقد حدثنا حديث الخان حين صعد إلى المنبر وقال ما قال . وما قصَّر أهل « بخارى » فى إمداد الخيل بالعلف وإمداد الجند بالغذاء . وكان أهل «بخارى» يظنون أن أمر الخان سينتهى بينهم وبينه عند هذا الحد ، ولكنهم فاتهم أنه غاز شرّه ، وما تكبد تلك الرحلةا لطويلة ليقنع بعلف للدواب وغذاء للجند ، وفاتهم أنه ما دخل بلدًا إلاّ حمل منها أنفس ما فيها من جواهر كريمة وكنوز ثمينة . من أجل هذا وقف الخان مرة ثانية إلى أهل «بخارى» يقول لهم : « والآن فلتكشفوا لى عن كل ما خبأتموه من شىء ثمين ، ولا تعنوا أنفسكم بما هو تحت أعيننا فى بيوتكم فهذا أمر معروف لنا» .

ولكى يتمَّ للخان ما أراد من الاستيلاء على الثروات المخفية ، ولكيلا يقف هؤلاء الأثرياء فى وجه « جنكيز خان » ويفوّتوا عليه جمع هذه الثروات أو يعملوا على إخفائها عنه ، ساق « جنكيز خان » هؤلاء الأثرياء جملة فى حراسة الجنود ليدلّوا على ثرواتهم ، منهم من استجاب

فنجى من العذاب ، ومنهم من عـزَّ عليه أن يكشف عما بين يديه فذاق من العـذاب أصنافًا وألـوانًا ، فإذا هو آخـر الأمر يكشف عما بين يـديه تحت هذا الإرهـاب وتحت هذا التنكيـل . وتمَّ « للمغـول » الاستيلاء على ما أرادوا مـا أظنهم فاتهم شىء ، فقـد وقعوا على ما كان مـن تلك الثروات فى المخابئ وما دفنه الأهلون فى الآبار .

وما قنع « المغول » من القوم بهذا الـذى نالوه من ثرواتهم ، وكأنهم عزَّ عليهم أن يخفـى القوم شيئًا ولا يعطوه عن رضـى ، فإذا « المغول » بعد أن تحقق لهم مـا أرادوا يسوقون الأهلين جميعًا إلى العـراء ليقتلوهم على مرأى مـن نسائهم وأولادهـم ، لا يحرك قلوبهم عويـل النساء ولا صراخ الأطفـال . ومـا قنعـوا بهذه ، كما لم يقنعـوا بتلـك ؛ فـإذا هـم يغتصبون النساء على مرأى من رجال لهم كانوا لا يزالون أحياء ، منهم مَن أغمض عينيه على أسى وحزن ، ومنهم من عزَّ عليه عرضُه فاندفع كالمجنـون يدافع عـن هذا العرض المسلـوب ، وهو يعلم أن دفـاعه لا يُغنى عنه شيئًا ولا يعرّضه إلاّ للموت الأكيد .

وتثور الوحشية ثورتها الأخيرة فى قلوب هؤلاء البرابرة المتوحشين ، لا يـرضى نفـوسهـم أنهم سلبـوا القوم أمـوالهم وسلبـوهـم نساءهـم وسلبوهـم حياتهم ، فـإذا هم يشعلون المدينـة نارًا ، وتشتعـل النار فى جميع الأحياء تلتهمها حيًّا بعد حىّ ، وتبقـى النار مشتعلة عامًا وبعض عام حتى تأتى عليها كلها فلا تتركها إلا خرابًا .

وبقى فى المدينـة بعد هذا كلـه قليل مـن الرجال والنسـاء والأطفال

ساقَهم أمامهم المغول أسرى إلى « سمرقند » ، وكانوا مشاة والمغول راكبين ، وعلى هؤلاء المشاة أن يجاروا الراكبين ليلحق عَدو بعدو ، وأنَّى للراجل المتعب المكدود أن يجارى الفرس النشيط السريع ، وكان منهم من ينكبُّ على وجوهم إعياءً فينهال عليهم الراكبون بالسياط يشبعونهم ضربًا لينهضوا ، فمنهم من قضى نحبه ولم ينهض ، ومنهم من هاله الضرب فوقف على رجليه ليمضى مع الركب ، وكثير منهم سقط فى الطريق ولم يبلغ «سمرقند».

* * *

وترك « جنكيز خان » بخارى « مسرعا للحاق بالشاه فى «سمرقند»، وبينما هو فى طريقه التقى بفرق من جيشه بعد أن نفضت يدها من «سيحون» تزفُّ إليه نبأ استيلاء جيوشه على مدن القطاع الشمالى .

ويعنينا أن نحدثك عن « سمرقند » ، فلقد كانت مدينةعظيمة أقيمت على ربوة ، تقوم هذه الربوة على حافةالوادى ، يحيط بسُورها خندق عظيم ، تدخل إليها المياه على جسر شيّد على عُمد . ومن تحت هذه المدينة ينبسط واد يانع بالأشجار الخضراء تنتشر فيه هنا وهناك قصور سامقة ومجار للمياه تنساب على تلك الأرض المنبسطة . ولقد كانت مدينة كتلك المدن العظيمة مليئة بالأسواق العامرة والحمامات الكثيرة والفنادق الضخمة والمساكن المتعددة ، مرصوفة طرقها بالحجارة .

وكانت « سمر قند » كما مرّ بنا من أمنع المدن يحميها سُورها الملتف بها ، هذا السور الذى كان الشاه قد أمر ببنائه حين أراد أن يجعل منها حصنه الأخير ، غير أنه مما يؤسف له أن الخان أدركها بجيوشه ولم يتمّ بناء هذا السور ، إلا أنها على الرغم من ذلك كانت تقوم فيها مواقع للدفاع قوية منيعة لها مداخل اثنا عشر ، يقوم على كل مدخل أبراج حصينة ، وكانت بها حامية قوامها مائة وعشرة آلاف من المحاربين الترك والفرس . وما من شك فى أن هذه الحامية كانت تفوق الجيوش المغولية المهاجمة ، ولكن « جنكيز خان » كان قد هيّأ نفسه لحصار طويل ، فجمع سكان البلاد المجاورة وأسرى « بخارى » وسخّرهم جميعًا ليعاونوه فى التضييق على المدينة . ولو قد أُتيح لتلك المدينة قائد شجاع مثل « تيمور » يحُكم التدبير لاستطاعت هذه المدينة أن تصدّ غارة المعتدين أو أن تصمد لهم أمدًا طويلا على الأقل .

ولكن الهجوم الخاطف الذى قام به « المغول » قد ألقى الذعر فى قلوب جنود المسلمين ، هذا إلى شىء آخر خدع به « الخان » تلك الجيوش المسلمة وجعلها تظن أنه يسوق لهم عددًا لا قِبَل لهم به ، ذلك أنه حمّل الأسرى أعلامًا مغولية ودفعهم أمامه ، فإذا المسلمون يهولهم ذلك ، ويظنون أنهم أمام جيوش لا قِبَل لهم بها ، وإذا هم مستسلمون كما استسلم إخوان لهم من قبل ، وإذا الأئمة والقضاة فى هذه المدينة يخرجون إلى لقاء الغازى كما خرج إخوان لهم من قبل فى « بخارى » يسلمون مدينتهم . وكما خان الأتراك « بخارى » من قبل خان هؤلاء

الأتـراك « سمرقنـد » ، فإذا ثـلاثون ألفًـا من مقـاتليهم ينضمـون إلى «المغول » زاعمين أنهم وإياهـم ينحدرون من أرومة واحـدة . وأحسن «المغول » استقبالهم يستدرجونهم ، وخلعوا عليهم كسوات عسكرية ؛ حتـى إذا اطمأنـوا إلى أنهم آمنـون قـام إليهم المغـول فـذبحـوهم عـن آخـرهم . فلنسـمِّ ذلـك غـدرًا إن شئنا ، ولكنـا لا نتردد فى أن نسميّـه حيطة ، فما كـان للمغولى ـ وهو هـذا الرجل الفطـرى الذى يُملى عماّ فى طبعه من جفوة وعماّ فى طبعه من بداوة ـ إلا أن يؤمن بالحكمة القائلة : إن من خانك خان غيرك . ولقد خان » الأتراك » « الشاه » فليس ببعيد عليهـم أن يخونـوا « الخان» . وسخّـر المغـول العمال والأهلين فيما يشاءون ، ثم ضمـوا إليهم من كان من الـرجال قويًا جلـدًا يريدون أن يفيدوا منه فى أعمال كثيرة .

وكان الشاه قـد ترك المدينة واتجه إلى الجنوب ، وكـان الخان لا يريد أن يفلت الشـاه منه ، ويريد أن يقبـض عليه حتى لا يترك له فـرصه فى تعبئة جيش جديد . من أجل ذلك دعا الخان إليه قائدَيْه « شيبة نويون » و«سابـوتاى » وأمرهما أن يمضيا فى إثـره على أن يأتياه به حيًـا أو ميتا . والغريب أن « الخان » كان هنا يُملى عن طبيعة أخرى ، طبيعة طيبة غير تلك الطبيعة القاسية ؛ فقد أمر قائديه أن يعطيا الأمان لكل مدينة تفتح لهما أبـوابها وألاّ يفتكا إلا بـالمدن التـى تمتنع عليهما ، ووضـع « الخان » تحت إمرة هـذين القائديـن فرقتين قـوامهما عشرون ألفًا من الـرجال ، ومضى القائدان وراء « الشاه » ينحدران نحو الجنوب فى أبريل من عام ١٢٢٠

كان « علاء الدين» قد ولىّ وجهه شطر الجنوب يقصد « بَلْخ » التى تقع على مرتفعات « أفغانستان » الشاهقة ، وكان « جلال الدين » حينذاك فى الشمال مشغولا بتعبئة جيش جديد من محاربى الصحراوات التى تحفُّ ببحر « آرال » . غير أننا لا ننسى أن استيلاء الخان على «بخارى » كان حائلا دون الشاه ودون الاتصال برجاله فى الشمال . وخُيِّل للشاه أنه مستطيعٌ أن يدخل إلى الأراضى الأفغانية فيجمع من قبائل الحدود رجالا من المحاربين يكوّن بهم جيشًا جديدًا . وتردّد «الشاه » طويلا فيما يفعل ، ثم اتجه صوب الغرب عابرًا الصحارى القاحلة ، يقصد تلك المنطقة الجبلية الواقعة إلى الشمال من « فارس » . وحين انتهى إلى « نيسابور » خيِّل إليه أن أصبح فى مأمن ، إذ كان بينه وبين الغزاة من « المغول » ما يقرب من خمسمائة ميل .

وأدرك « شيبه » و « سابوتاى » مدينة « بلخ » التى كانت سدًّا منيعا ، تصدّ « المغول » عن عبور نهر « جيحون » فأمرا مَن معهما من الرجال أن يعبروا النهر سابحين بخَيلهم ، واصطنع المغول أحواضًا كبيرة من الخشب غَشَّوْها بجلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ، ثم وضعوا فيها سلاحهم وعتادهم وساقوا الخيل أمامهم إلى الماء ممسكين بأذنابهم ، وقد أمسكوا هم بتلك الحياض ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض . هكذا عبروا جميعهم النهر بعتادهم وسلاحهم .

وحين أدركت الجيوش المغولية « بَلْـخ » وجدت « الشاه » قد خلَّف

هذه المدينة أيضًا ، فمضى فى إثره « شيبـه » و « سابوتاى » نحوالغرب مسرعين لا يبـاليـان عنـاء ولا يـأبهان بطعـام ، يقطعـان الصحـارى والفيافى ، إلى أن انتهيـا إلى الوديـان المزهرة التى تحيـط بمدينـة « مَرْو » البيضـاء ، وكـانـا يظنـان أن «الشاه » قـد استقـرَّ بها ولكنهما مـا كـادا يقتحمان المدينة حتى علما أن الشـاه قد تركها إلى «نيسابـور » فلم يستقر لهما مقام » بمرْو » ، ومضيا فى إثر «الشـاه » الفارّ إلى « نيسابور » ، وما إن بلغاها حتى علما أنه تركها . وكـانت الأنباء قد سبقت « المغول » إلى «نيسابـور » بالنـذر والوعيد تشيـع عنهم القسوة والـوحشية ، فـألقى ذلك الذعـر فى قلوب الناس وشاع الفزع فى المدينة . مـن أجل ذلك لم تجد جيوش « المغول » عناء كبيرًا فى الاستيلاء على المدينة .

وخرج « سابوتاى » و « شيبه » باحثين عن الشاه حتى بلغا «الرىّ» . وفيما هما يسيران لَقِيَـا « تـركـان خـاتـون » أم « الشـاه » فى مـدينـة «مازندران» ، فأسراهـا وبناتها ومن معها من الإماء ، واستـوليا على ما كان فى حـوزتها من حلى وجـواهر وثيـاب ، وأرسلاهـا مع إمائها إلى «الخان» . وقد بقيت فى حوزة « المغول » إلى أن عادوا بها إلى بلادهم فى صحراء « الجوبـى » . وهناك تزوج «شاطـا جاى » إحدى بنـاتها ، أما أبنـاء « الشاه » فقـد أمر «الخان» بقتلهـم جميعًا على الـرغم مـن حداثـة سنهم .

ومما يؤسف له أن نذكر شيئًا وقع فى مدينة« الرَّى » ، فقد كان هناك فى تلك المدينة مذاهب أربعة : الشافعى والحنفى ثم المالكى والحنبلى ،

وكان بين أصحاب المذهبين الأولين وأصحاب المذهبين الثانيين خلاف شديد. يجوز هذا بين الناس فى وقت السّلم ولكنه غير معقول أن يجوز فى وقت الحروب والعدوُّ على الأبواب ، وغير معقول أيضًا أن يستعين أصحاب مذهب من هذه المذاهب على غيره بأجنبى ، لا سيما إذا كان ذلك الأجنبى على غير دين . فلقد رأينا أن قاضى القضاة الشافعى ـ انتقامًا من خصومه الذين هم على دينه لا يفرِّق بينهم غير اختلاف فى المذهب ـ يُسرع فينضمّ إلى « الخان » ويفتح له الأبواب ليستعين به على أهله وذويه . وهكذا دخل «المغول» المدينة لم يرحموا رجلا من رجال هذه المذاهب كلها ، وسلّطوا السيوف على الرقاب ، فقتلوا خصوم المذهب الشافعى أولاً ليرُضوا هذا الخائن بعض الرضى ، ثم انقلبوا فقتلوا أتباع المذهب الشافعى ثانيًا ليخلصوا من هؤلاء وهؤلاء ، فهم كما علمت قوم على بداوتهم لا يؤمنون بالخيانة ولا يثقون بالخائن .

وخلّف « الشاه » كنوزًا لم يلبث « المغول » أن عثروا عليها ، وكان ثَمّ كنوز له أخرى ساقها أمامها لتسبقه إلى بغداد مع أسرته . وكأن «الشاه» قد أُنسى أنه كان منذ أمد قريب خصما للخليفة ، ولكنه لم يجد أمامه ملجأ غير هذا ففزع إليه ، وأخذ فى طريقه يجمع إليه الرجال من هنا ومن هناك فإذا حوله بضع مئات ، ومضى فى الطريق المفضى إلى «بغداد » حتى إذا ما أدرك « همذان » وجد « المغول » من خلفه فتفرَّق عنه رجاله ، وكادت أن تدركه سهام « المغول » لولا أنه فرّ متجها إلى بحر « قزوين » ومعه نفر من الأتراك الذين عنّ لهم أن يخونوه فى محنته

تلك ، فتركوه حتى نام ورشقوا خيمته بالسهام يريدون القضاء عليه والخلاص منه .

أصبح « الشاه » فرأى هذا ممن كان يتخذهم حاميته ، فقال واليأس يملى عليه : « أمَا من بقعة فوق الأرض أجد فيها الأمن والسلامة ! » ، وأقبل إليه رجل من خلصائه يشير عليه أن يركب بحر « قزوين » ويقصد إحدى الجزر ، وهناك سوف يجد مكانًا آمنًا يقبع فيه إلى حين حتى يتمكن أبناؤه من تعبئة جيش قوى يستطيع به أن يردّ الغزاة . واستجاب « الشاه » وخرج متنكرًا ، واجتاز المفازة قاصدًا بلدة صغيرة على الشاطئ الغربى لبحر « قزوين » . ولكنه كان ملكًا قبل كل شىء ، وكان عزيزًا عليه أن يخرج عن مُلكه على تلك الصورة المشينة ، وأصرَّ على أن يؤمّ الناس للصلاة فى المسجد الجامع .

ولم يعدم « الشاه » أن يجد رجلا من رجاله حاقدًا عليه إذ كان قد أصابه بسوء ، فمضى هذا الرجل إلى « المغول » ووشى بالشاه ، فأسرع «المغول» إلى تلك القرية يمطرونها وابلا من السهام التى انصبّت عليها انصباب المطر ، وكان المركب الذى يحمل « الشاه » قد أبعد عن الشاطئ فاندفع بعض الفرسان من « المغول » على ظهور خيلهم فى اليمّ يريدون أن يلحقوا بالشاه ، ولكن الأمواج طوَتهم ، ونجا « الشاه » منهم .

وعلى الرغم من أن « المغول » لم تقع أيديهم على « الشاه » ، إلا أن «الشاه» كان قد بلغ به المرض والإعياء والضعف حدًّا بعيدًا فقضى

نَحْبَه وحيداً بإحدى الجزر التى لا تبعد كثيراً عن ساحل « مازندران » ، ويحكون أنه لم يجد كفنًا يكفّن فيه ، فخلع عليه أحد المقربين إليه قميصه وكفَّنه فيه . وقبل أن يمضى « الشاه » للقاء ربه كان قد أوصى لولده «جلال الدين » بولاية المُلك ، وقال فى رسالة له إلى أولاده : « لقد انفصمت عُرَى المملكة ، وانحلّت قُواها ، ووهنت أسبابها ، وتهدمت قواعدها ؛ وهذا العدوُّ قد أنشب أظفاره فيها وقَويَت كلمته ، وما أظن مَن يقدر على الأخذ بالثأر منه إلاّ ولدى منكبرتى جلال الدين . وإنى على هذا مُولّيه عهدى من بعدى ؛ فالزموا طاعته » .

جـــوّالة المغول

ما علـم القائدان المغوليـان « شيبه » و « سـابوتاى » أن الشـاه الذى يبحثان عنـه ويفتشان فى منـاكب الأرض قـد قضى نَحْبَـه وحيداً فقيراً بائسًـا فى تلك الجزيرة النائيـة . وحين يئسا من العثور عليـه أرسلا إلى الخان بما وقعت عليه أيديهما من كنوز للشاه عثرا عليها من هنا وهناك ، كما أرسلا إليه بمن وقعت عليه أيديهما من أمراء تلك الأسرة المنكوبة ، وأرسلا مع هذا وذاك رسالة إلى الخان يقـولان فيها : « لقد أبحر الشاه على ظهر سفينة يقصد الشرق ، وقد فقدنا الأمل فى وجوده » .

وحسب « الخان » أيضًا أن « الشاه » لا يزال حيًّا ، وخشى أن يكون قـد قصـد إلى الشرق يحاول أن يلقى ابنـه « جـلال الـدين » فى مـدينـة «أورجنش» ، وما إن قرّ فى ذهنه هذا حتـى بعث جيشًا ليلقى « الشاه » حيث فرّ وحيث قصد .

وقضى « سـابوتاى » الشتـاء يتنقل فى مراعـى « قزوين » التـى كان الجليد يكسوها ، ثم خطر له بعد ذلك أن يزحف إلى الشمال ملتفًّا حول البحـر ليلتقى بـالخان ، ولكنه قبـل أن يفعل أرسـل رسولـه إلى الخان يطلب إذنه ، وأقَّر الخان « سابوتاى » على ما طلب ، وبعث إليه ببضعة

آلاف من محاربى « التركمان » ليعزِّز بها جيشه . وكـان « سابوتاى » قد سبق فاختار مـن قبائل « الأكراد » ـ وهم جُفاة متوحشون ـ من يأنس فيه أن يكـون جنديًّا ، فـاجتمع له بمـن جنَّد وبمن أرسلهـم إليه الخان وبمن كان فى يده عدد كبير .

وكان « المغول » بعد أن فرغوا مـن الجنوب قد اتجهوا شمالا صوب «القوقـاز » ، فأغـاروا على إقليم « الكـرج » بعد معـارك دامية نشبـت بينهم وبين الجنود الكرجيين الشجعان ، وكاد « المغول » أن يرتدُّوا عن هـذا الإقليم ، و « المغـول » إذا لم تغنهـم قوَّتهم شيئًـا ارتـدُّوا يحتالـون ويمكرون ، وهكـذا فعلوا بهذا الإقليـم كما فعلوا بـأقاليـم أخرى مـن قبل ، فاختبأ « شيبه » بقواته فى جانب الوادى الطويل المفضى إلى مدينة « تفليس » ، وتظاهر «سـابوتاى » بالفرار ، فانقـضَّ جنود « الكرج » على خصومهـم يقتفون أثرهم . عنـد هذا ظهرت جيوش « شيبـه » من مخبئها والتفَّت بجيش «الكرج» وأعملت فيه السيف فمزقته شر ممزَّق .

ومشى « المغـول » فى زحفهم مجتـازين وادى « القـوقاز » عـابريـن بوابة « الإسكندر » الحديدية ـ وكانت مدينة بناها « الإسكندر » وجعل عليها بابًا من حديد ـ وما كادت طلائع « المغول » تظهر على المنحدرات الشمالية حتـى وجدت أمامها وجهًـا لوجه جيشًـا قد تألف مـن سكان الجبـال مـا بين «شراكسـة» و « قفجـاقيين » ، ونظـر « المغـول » فـإذا خصمهم يُـرْبى عليهـم عددًا ، ونظـر « المغول » فـإذا هم لا يملكـون التقهقر . وإذا ضـاقت السبـل بالمغول وسعتهـم الحيلة ، فسرعـان ما

تراجع « سـابوتاى » ، وسرعان ما جرى فى إثـره جنود » القفجاق » ، وإذا هـذا الجيش الكبير الموحّـد جيشـان ، جيـش « للقفجاق » فى إثـر «المغول » ، وجيش للشراكسـة ثابت مكانـه . وما إن أدرك « المغول » هذا الانقسام فى هذا الجيش حتى التـف فرسانهم بالشراكسة ، ومضى مشـاتهم أمـــام جنـود « القفجـــاق » ممعنين فى البرارى المالحة فيما وراء «القزويـن » واستمروا يجرُّونهم وراءهم إلى بلاد الأمـراء « الروس » .

وهنـا بدا « للمغـول » أنهم جرُّوا على أنفسهـم شرًّا جـديدًا لم يكـن فى الحسبان ، فقـد كان « الروس » يسمعـون عن « المغـول » ، ويسمعون عن عدوانهم على البلاد الآمنة ؛ فما إن وجدوهم على الحدود حتى هبُّوا لمحاربتهم فاجتمع لهم جيش من « كييف » وغيرها من البلدان المحيطة بلـغ عـدده اثنين وثمانين ألفًـا مـــن المقـاتلين ، وعبر هـذا الجيـش نهر «الدنيبر» ليلقى هـذا العدو المغير ، ولكن « المغول » ما كـانوا ليشتبكوا مع عـدوهـم فى حـرب فى ميدان يختاره العـدو ، فانسحبـوا وضربوا فى الأرض تسعـة أيـام حتى أدركـوا الميـدان الـذى رأوه صالحًا لتسـديـد ضرباتهم . وظل القتال بين «الروس » و « المغول » يومين متتاليين لقى بعـدهما الأمير الـروســى مصرعـه ولقـى غيره مـن القـــواد والجنـود مصرعهم ، ومَنْ كُتبت له السلامة من «الروس » ـ وهم قليلون ـ عبروا نهر « الدنيبر » مرة ثانية .

ومـا إن فـرغ « سـابـوتـاى » من الـروس ومَـن انضـم إليهـم مـن «القفجـاق» حتى مضـى ليلحـق بزميلـه « شيبـه » . وانضم القـائدان

وانضم الجيشان يقصدان شبه جزيرة « القرم » ، وما نسيا « الدنيبر » وما نسيا تلك المعارك التى نشبت حوله .

وفى الحق لقد كان « المغول » لا تقع أعينهم على أرض إلاّ تاقوا لفتحها ، يغريهم المكان بالمكان وكأنهم يريدون أن تكون الدنيا لهم جميعًا . فلقد فكّر « سابوتاى » وفكّر معه « شيبه » فى أن يعبروا «الدنيبر» ليغزوا «أوروبا » . فكّرا فى هذا وكانا على وشك أن يهمّا به ، لولا أن أرسل إليهما الخان - وكان على علم بحركاتهما - يطلب إليهما أن يعودا ، وأن يلقياه فى مكان حدّده لهما إلى الشرق على بعد ألفى ميل .

وفى طريق العودة قضى « شيبه » نَحْبه . وما منع ذلك « المغول » فى رجعتهم أن يغيروا على « البلغار » ، وكانوا ينزلون على ضفاف «الفولجا » .

وهكذا داس « سابوتاى » هذه الأراضى الفسيحة الممتدة التى تجمع تسعين درجة من درجات الطول ، لم يمرّ عليها معصوب العينين ولا مغلق الفكر ، بل رأى وشاهد ودَرَس وتدبَّر ، فإذا هو على علم تامّ بما هنا وبما هناك ، علم مهَّد للمغول فيما بعد أن يعودوا بعد بضع سنوات لينقضّوا على « موسكو » وليعبروا « الدنيبر » وليغزوا شرق أوروبا ، ثم كانت علاقات تجارية بينهم وبين « جنوا » و « البندقية » .

وبينما كان «شيبه » و « سابوتاى » ينشران الرعب ويخرّبان ويسلبان وينهبان غربى بحر « قزوين » ، كان ولدان للخان يمضيان نحو بحر «آرال» ليتعرّفا خبر الشاه وليضيّقا الخناق عليه . وما لبثا أن علما أن

الشاه قد فارق الدنيا وأنه يرقد فى مثواه الأخير ، فمضيا يقطعان الطريق سائرين على شاطئ « جيحون » حتى بلغا مدينة «خوارزم» وهناك التقى جيشان : جيش مغولى يملك الحزم والإرادة ، وجيش وراء أسوار « خوارزم » كله من المرتزقة لا حزم عنده ولا إرادة .

ولكن الأهالى عزّ عليهم أن يسلموا مدينتهم ، وعزّ عليهم أن يتركوا أمر الدفاع عنها إلى تلك الحامية المستضعفة ، فوقفوا للمغول صفًا واحدًا . ورأى « المغول » فى الأهالى الإرادة والحزم فتهيئوا لحربهم ونصبوا مجانيقهم . وحين أعوزتهم الحجارة قطعوا الأشجار ، وقطعوا من الأشجار كتلا ، وأشربوا الكتل ماءً لتثقل وتصلب .

ويشاء القَدر أن يقع الخلاف بين « جوشى » و « شاطاجاى » فيطول الحصار ويدخل فى شهره السادس . ولكن سرعان ما يبلغ الخبر الخان ، فيبادر بإرسال جيش آخر يعقد لواءه لابنه الأصغر «أوجتاى» ، ويعيد «أوجتاى » النظام ويوحّد الصفوف ويبدأ الهجوم . وبعد أسبوع سقطت «خوارزم » وما استطاعت أن تقاوم ، وما استطاعت أن تصمد للنفط المشتعل الذى صبّه المغول عليها . ودخل « المغول » « خوارزم » وخرجوا منها بالأسرى والغنائم راجعين إلى حيث يقيم الخان .

* * *

وكان الصيف قد حلّ ، والصيف فى الوديان غيره فى المرتفعات ؛ لهذا فكّر الخان فى أن يريح جنده ، وفى أن يخفف عنهم ، وفى أن يجنّبهم قسوة الحر فى الوديان وما اعتادوه ، وأن يخرج بهم إلى المناطق الباردة

فيما وراء نهر « جيحون » ، وأن يتيح لخيلهم أن تستريح وترعى فى تلك الوديان الخصيبة .

ولقد كان هذا الموسم ـ موسم الصيد ـ لا يقل عند المغول شأنا عن أية معركة حربية ، وكان الجيش كله بوحداته كلها يشارك فيه ، ينظّم لهم هذا دستور موضوع سنّه لهم زعيمهم جنكيز خان ، ويمضون فى صيدهم هذا عنه لا يحيدون . وكان « جوشى » أمير الصيد عندها غير حاضر إذ أرسله الخان بعيداً فى شأن من شئونه الخطيرة ، فقام نائبه يحدد الميدان وسط الجبال ويبين معالمه ، واضعا عُمدا عند أماكن البدء ، لكل كتيبة عمود تتدلى منه أشرطة تتميز عن غيرها . وكما يفعل هذا فى أمكنة الابتداء يفعل مثله فى أمكنه الانتهاء .

وتصطف السرايا فى نظام دقيق ثم تنقسم شطرين ، شطر إلى اليمين وشطر إلى الشمال فى تنسيق رائع ، ويمضى كل شطر إلى غاية يقف عندها . ويتلبث هذ الشطر وذاك مكانه يرقبان وصول الخان ، ويهلّ الخان ومن حوله النافخون فى الأبواق وقارعو الطبول . وإذا جيشه من حوله فى نصف دائرة قد طوت ما يربى على ثمانين ميلا . ويشير الخان بيده فيبدأ الصيد وتنطلق الخيل بفرسانها عليهم دروع قد جُدِلت من الأغصان وفى أيديهم السلاح يقصدون أن يثيروا الحيوان أمامهم .

ويندفع الفرسان وسط الأجمات والأدغال ، يهبطون الأخاديد ويعلون الرُّبى ، تسمع لهم صراخًا حين تقع أبصارهم على النمور والذئاب وهى تطل برءوسها من خلل الأجمات . وما يكاد ينصرم

الشهر حتى يكون قد اجتمع بين أيديهم أعداد عديدة من الحيوان . ويُضيّق الفرسان الخناق على تلك الأعداد من الحيوان شيئًا فشيئًا ، فإذا هم آخر الأمر قد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وإذا هو لا يجد له من بين صفوفهم المتراصة منفذًا ، وإذا ما تعثر منه شيء دفعوه أمامهم يستحثونه ، وكلما توارى منه شيء أثاروه ليخرج من مخبئه ، وهم يفعلون هذا كله دون أن ينالوا هذا الحيوان بأذى ، إذ كان دستورهم يحرم عليهم أن يشهروا السلاح على الحيوان أثناء مطاردته .

وإذا ما استدار الفرسان بالصيد تقدم الخان ليلقى وجها لوجه أشد الحيوان شراسة وأجرأها افتراسًا فيصوّب إليه سهمه . ويكون هذا إيذانًا منه باستخدام السلاح . فيعدو الفرسان فى إثره يقتلون والخان مشرف عليهم من فوق ربوة عالية . وقد تمتد هذه المذبحة يومًا بأكمله إلى أن يتقدم أحفاد الخان وأبناؤه يطلبون منه الإبقاء على بعض الحيوان . وحين يستجيب الخان لهم ، يقف الذبح وينصرف القوم يجمعون ما قتل . .

ومضى الخان بجيوشه نحوًا من أربعة أشهر فى هذا التدريب القاسى ، الذى كان « المغول » يقصدون به إعداد أنفسهم إعدادًا قويًّا ، فَمن قَوى على مجابهة الحيوان المفترس قَوى على مجابهة الإنسان الوادع . ثم رأى «الخان » أن يعدّ العدّة للخريف وما سيكون فيه من حروب ، وعاد ليلقى «جوشى » و« شاطاجاى » وهما يحملان إليه نبأ وفاة «الشاه» .

* * *

وعلى حين كـان الخان يفعل هـذا كـان « جـلال الديـن» السلطـان الجديد يهيئ نفسه لحرب جديدة ، ويجمع لتلك الحرب جيشًا جديدًا . وانتهى إلى الخان أن ثمَّـة قوات فيها وراء الأفـق تتجمع للقـائه . وكان المسلمـون حين فقدوا الشـاه ، وفقـدوا قبـل الشاه اثنين مـن أبنـائه فى المعـركـة ، وفقدوا قبـل هـذا الكثير مـن قـادتهم وأمرائهـم ورجـالهم وأبنـائهـم ، وفقـدوا مـع هـذا ديـارهـم وثـرواتهم ، ثـم أصيبـوا فى أعـراضهم . كـان المسلمـون لهذا الذى فقـدوا ولهذا الـذى أصيبوا بـه ينقمون على « المغول » ويرون أن عليهم واجبًا مقـدسًا لابدَّ من حمله . لهذا تجمّعوا ، فكـان لهم جيش جـديد على رأسـه قادة جـدد من أمـراء الفرس .

وأحسَّ الخان تلك الروح العالية فى قلوب المسلمين ، وأحس ذلك التجمـع السريع فقّـدر الأمر قـدره وبات يتـدبّر مـوقفه . لقـد كانـت جيوش المسلمين هـذه المرة تبلغ المليون فى عُدة كـاملة ، ولكنها كـانت تعوزهـا قيادة قـادرة . وكانـت جيوش الخان لا تتجـاوز مائة ألـف ، وكانـت ثمَّة قبـائل من «الأويجور» قد طلبـوا إليه أن يعـودوا إلى « تيان شان » فسمح لهم ، وكان الخان إلى ذلك قد فقد بعض قواده وأحس أنه فى حاجـة إلى جمع من «الأرخونـات» يكونون إلى جـواره . ولكنه على هـذا عقـد العـزم على أن يجمـع أمره وينظـم صفـوفـه ويهيـئ الجيـش للحرب، وخرج زاحفًا وهمُّه القضاء على كل من يلقاه .

نحو خـــــراسان

تـم « لجنكيـزخـان » الاستيـلاء على إقليمـى « مـا وراء النهـر » و«خوارزم» وأصبح بهذا يحيط بإقليم « خـراسان » ، هذا الإقليم الذى كان يطمع الخان فى الاستيـلاء عليه وأن يجعله هدفه الثانـى . من أجل ذلك أرسـل الخان ابنه على رأس جيش كبير إلى « خراسـان » ، وما إن تولىّ ابنه قيادة الجيش الذاهب إلى « خراسان » حتى أرسل طليعة له من عشرة آلاف مقاتل تحت إمرة « توجاشر »الذى كان زوجًا لابنة الخان . وأدرك هـذا القائد مـدينـة « نسا » ، وقـاومـت « نسـا » واستطاعـت حاميتها أن تقتل جملة كبيرة من الجيش المهاجم . « والمغول » ـ كما نعلم ـ فيهم عناد وفيهم جَلَد ، فما راعهم هذا العدد الكبير الذى قتل منهم ، فلقد جربوا القتال وعلمـوا أن الضحايا الأولى وإن كثرت لا تَعنى أنهم المغلوبـون وأن خصمهم هو الغالـب ، فطوّقوا المدينة يضربـون عليها الحصار . ونصبـوا حولها المجانيـق ، ودام الحصار أسبـوعين استطاع «المغول » بعدهما أن يحدثـوا ثُغرة فى سور المدينة نفذوا منهـا ليلا ، وما أصبـح الصبح إلاّ وكـان « المغول » داخـل الأسوار يملئـون ساحـات المدينة وكأنهم قطعان الماشية يسوقها الرعاة ، ولم تمتد يد « المغول » أول

الأمر بالسلب والنهب ، فاجتمع إليهم أهل المدينة رجالاً ونساء وصبيانًا مخدوعين بهذا الذى رأوا ، ظآنين أنهم بين يدى جيش آخر غير هذا الجيش الذى سمعوا عنه من قبل ، فإذا ما اطمأنوا شيئًا ألقى «المغول» إليهم أمرًا غريبًا . لقد رأى المغول هذه المرة ألا يكلّفوا أنفسهم عناء النَّيل من خصومهم وأحبوا أن يُكلّفوا خصومهم أن ينال بعضُهم من بعض ، وأن يقتل بعضهم بعضًا . ولقد كانت كبيرة على إخوان مسلمين أن يفعلوها بإخوان لهم مسلمين ، ولكنهم فعلوها مُكرهين متراخين ، ولكن « المغول » لم يُرضهم من أعدائهم هذا التراخى فى القتل ، وهذا اللين فى الإيذاء ، فهبُّوا هم يفعلون ما لم تَقوَ عليه تلك الأيدى المضطرة المكرهة ، فقتلوا وأسرفوا فى القتل ، لم يرحموا شيخًا ولا طفلا ولا آمرأة ، فإذا المقتولون بيد المغول سبعين ألفًا . ولو قُدِّر لأهالى « نسا » أن ينجوا بأنفسهم وألاّ يخدعوا بها خُدعوا به وولّوا وجوهم شطر الجبل القريب لوجدوا من كُهوفه ومغاراته وشعابه مكانا آمنا .

ويحدثنا التاريخ أن المؤرخ الكبير « محمد النسوى » الذى أرّخ «لجلال الدين» فرّ مع الناس إلى قلعة حصينة من قلاع « خراسان » . ويحدثنا التاريخ نقلا عن هذا المؤرخ ما نحب أن نسوقه إليك ، فلقد قال :

« بعد سقوط « نسا » لجأتُ إلى قلعة مشيدة على قمة من قمم الجبال الصخرية المرتفعة ، وكانت من أقوى قلاع « خراسان » وأمنعها ،

وكانت تتوسط الإقليم . من أجل ذلك عُدّت مأوى يلجأ إليه الفارون أمام هذا الزحف القاسى . ولم يمض غير قليل حتى ظهر « التتر » أمام القلعة ، غير أنهم وجدوها منيعة حصينة ليس من الهينِّ الاستيلاء عليها ، ولم يرغبوا فى أن يرتدُّوا دون أن يغنموا شيئًا ، فطلبوا أن يُعطوا عشرة آلاف من الأثواب القطنية ، كما طلبوا غير ذلك من نفائس «نسا» ، وأجبتُهم إلى طلبهم وجمعت لهم ما أرادوا . ثم كانت المشكلة ، مَنْ يا تُرى هذا الشخص الذى يقبل أن يحمل « للمغول » ما طلبوا ؟ فلقد كان الناس يعلمون أن المغول خَونة لا يُقدِّرون العهود ولا يرعون الذمم . وتقدَّم منى شيخان وطلبا إلىّ أن يكونا رسولين إلى « المغول » يريدان أن يخلِّصا المدينة من هذا الشر المحيط مضحِّيَين بحياتيهما ، فلقد كانا يعلمان أنهما غير راجعين ، واستودعانى أطفالهما وأوصيانى بهم ، وأكبرت الشيخين على هذا البذل . وانفصلا عنى إلى « المغول » ، غير أن الأمر وقع كما قدّرنا وقدّر هذان الشيخان ، فلقد قتلهما المغول وقطعوا رقبتيهما » .

* * *

وعاث « المغول » فى « خراسان » يسلبون وينهبون ويخرِّبون ، لا تقع أيديهم على شىء إلاّ أخذوه إن خفَّ عليهم حمْله ، أو أحرقوه وأتلفوه إن ثقل عليهم حمله . يسوقون أمامهم الأهلين سَوقًا ليتقدموهم إلى المدن الأخرى التى يريدون غزوها ؛ يُسخّرونهم أولا فى حمل الأثقال وفى شئون أخرى من شئون الحرب ، ولينشروا بهم الذعر

واليأس بين الناس . وكان «المغول» لا يفرقون بين نبيل وفقير ، يضمونهم جميعًا جنبًا إلى جنب ويكلفونهم جميعًا عملا واحدا لا تفرقة بينهم ، والويل لمن يخالف عن أمرهم .

* * *

وأراد الخان أن يغزو « فارس » فاختار لذلك جيشًا ، وولىَّ عليه ابنه الأصغر « تولى » وأمره أبوه أن يتعقب « جلال الدين » فى طريقه ، غير أن الأمير الخوارزمى استطاع أن يفلت منه . ومضى الجيش المغولى نحو «مَرْو» ، تلك المدينة التى كانت جوهرة وسط رمال الصحراء ، وكانت مقرًّا للهو الأمراء ومتعة العظماء ، يمرّ بها نهر « مرغ آب » ، وكانت تضم مكتبات فيها آلاف المخطوطات .

وفيما كان « المغول » فى طريقهم إلى « مَرْو » وقعوا على جماعة من «التركمان » كانوا قد غنموا من « مَرْو » أشياء منتهزين تلك المحنة التى حلّت بها ، فأوقع بهم « المغول » وسلبوهم ما معهم .

وأشرف « المغول » على « مرو » ووقفوا بين يدى أسوارها يتحسسون ثغرة . وكما مُنى المغول أمام أسوار « نسا » مُنوا أمام أسوار « مرو » بقتل عدد من رجالهم ، فثارت ثورة « تولى » وأقام جسرًا من الطين يريد أن يعبر عليه إلى المدينة ومن ورائه رماة السهام يحمون تقدم الجنود العابرين ، ودامت المعركة اثنين وعشرين يومًا . ولكن المدينة ـ فيما يبدو ـ كانت قد تعرضت حاميتها لشىء من الوهن وشىء من

الضعف ، يشير إلى ذلك ما يُروَى من أن رجلا من أئمة المسلمين خرج خلسة من المدينة يقصد «المغول» يريد أن يفاوضهم على الصلح . ويروون أن هذا الإمام لم يخرج إلى «المغول» بعلم الأهلين وإنما كان ذلك بعلم الحاكم ، فهو الذى أرسله ليتعرف ما عند « المغول » من استعداد لهذا السلم ، وكان « المغول » مكرَة كعادتهم ، فلقد رحَّبوا بهذا الإمام وقبلوا ما حمل إليهم من هدايا وأهدوا إليه مثلها ، وأمعن «تولى » فى إكرام الإمام فدعاه إلى أن يأكل معه ليملأ قلبه طمأنينة ، ثم طلب إلى هذا الإمام أن يبعث إلى أصحابه فى المدينة فيدعوهم ليحادثهم . وخُدع الإمام وبعث فى طلب أصحابه وأجلسهم « تولى » حوله يظهر لهم الودّ ويضفى عليهم الأنس ، وأخذوا فى الحديث ، يحدثون ابن الخان ويحدثهم ، حتى إذا ما أُنْسوا أنفسهم وأُنسوا أنهم بين يدى عدوٍّ لهم ، طلب إليهم « تولى » أن يمدُّوه بقائمة فيها ستمائة رجل من أغنى رجال « مَرْو » . وأجاب المسلمون وكتبوا ما أراده منهم ابن الخان ، وعاد هؤلاء الأغرار إلى المدينة ليجدوا جيوش « المغول » فى إثرهم شاهرة سيوفها لتفتك بهم ، ودخل « المغول » ساحة المدينة يطلبون أولئك الأغنياء بأسمائهم ، وكان لزامًا على هؤلاء الأغنياء أن يخرجوا ، فأسرهم « المغول » ، ثم انتشروا فى أنحاء المدينة يأمرون السكان بالخروج إلى العراء أجمعين ، معهم نساؤهم وأولادهم حاملين كل ما يستطيعون حمله . وهكذا أجلىَ « المغول » أهل المدينة كلهم من مساكنهم فى ساعات قليلة .

وجلس « تولى » ليشهد مصرع قادة المسلمين وضباطهم وفرسانهم، وليشهد تلك الأوامر التى أمر بها أن تنفذ فى الأهالى ، فلقد أمر « تولى » بأن يُقسَّم الأهالى إلى فئات ثلاث : الرجال فى ناحية ، والنساء فى ناحية، والأطفال فى ناحية ثالثة ؛ ثم أرغموا الرجال على الرقاد على الأرض وأيديهم وراء ظهورهم ، وانطلق المغول بين صفوف هؤلاء الرجال المنبطحين على الأرض يقتلون ويذبحون، لم يبقوا منهم غير فئة قليلة من الصناع لحاجة الجيش إليهم . وأخذوا الأطفال عبيداً ، وانفردوا بالأغنياء الذين كتبوا أسماءهم فأخذوا يعذبونهم ليدلّوا على كنوزهم ، وبعد أن نكّلوا ما شاءوا أن ينكّلوا وسلبوا ما شاءوا أن يسلبوا خرجوا عن المدينة ، ولكنهم عزّ عليهم أن يخرجوا عنها دون أن يهدموا أسوارها ويشعلوا النار فى بيوتها .

ويحدّث المؤرخون أن من بقوا أحياء من سكان تلك المدينة لم يجاوزوا الخمسة الآلاف عداً ، أبقى عليهم حياتهم أنهم لاذوا بالأقبية والمخابئ فامتنعوا بذلك عن أن تقع عليهم عيون « المغول » . والمؤرخون يروون أيضًا أن « المغول » بعد أن خرجوا من المدينة عادوا إليها لا لشىء إلا ليستوثقوا من أنهم لم يُبقوا بها حيًّا .

* * *

وهكذا كان شأن « المغول » فى « مرْو » وفى غير « مرْو » من المدن التى مرّوا بها ، حتى لقد كان الناس يلقون بأنفسهم بين جثث الموتى

والقتلى لينجوا من موت محقق ، وأحسَّ « المغول » حيلة القوم فإذا هم لا يتركون القتلى ولا الموتـى دون أن يقطعوا رءوسهـم ويفصلوهـا عن أجسامهـم استيثاقا منهـم بأنـه ليس على الأرض حىّ بين تلـك الجثث الراقدة .

لم يكـن « المغول » فـاتحين ولم يكونـوا محاربين بالمعنـى الذى نفهمـه للفاتح وللمحارب ، ولكنهم كانوا قتلة سفاكين ، بينهم وبين الآدميين ثأر لا يهدأ ونَهَم لا يشبع ، فلقد كانت كـل تلك الألوان من القسوة لا تطفئ ظمـأهم إلى الدمـاء . فيروون عنهم أنهم فى حرب مـن حروبهم التى قتلـوا فيها فأسرفوا وفَرّ الناس عنهم خائفين وَجلين يبحثـون عن مأوى يختفـون فيه ـ وحسب المحـارب النبيل أن يخضعَ الأهالى لـه هذا الخضوع وأن يفـرُّوا عنه ، ولكن « المغـول » كانـوا محاربين لا يتصفون بنبـل ـ عـزَّ عليهـم أن يفرّ عنهـم الناس دون أن ينـالـوا من رقـابهم ، فاضطروا مـؤذِّن المدينة إلى أن يعتلى المئذنة وينـادى للصلاة ، وحسب الناس أن المغـول ولّوا وأن الـدنيا عـادت أمنًا ، فخـرجوا مـن مخابئهم يلبّون صوت المؤذّن ، فإذا هم يَلْقون المغول بسيوفهم المُشرعة ويَلْقون القتل على أيديهم .

وإمعـانًا فى التخـريب وإمعـانًا فى القتـل والدمـار ، كان المغـول لا يتركون المدينة دون أن يحرقوا ما بها من طعـام ، ليأمنوا أن من سَلِم من الموت على أيديهم لا يسلم من الموت جوعًا . وفى « خوارزم » لا ينسى التاريـخ ما فعله المغول بعـد القتل والنهب والسلب حين فتحـوا السد

الـذى يحجز ميـاه نهر «جيحون » فطغـت مياهـه على المدينة فـأغرقتهـا وتركتها بحيرة ماء .

وما نعلـم أن الذين نجـوا من بطـش « المغول » عاشـوا أصحاء ولا عاشوا مالكين لقواهم العقليـة ولا عاشوا بنفوس هادئة مطمئنة . وفى الحق لقـد أساء «المغـول » إلى المجتمـع الإنسانـى فعطّلُـوا حضارتـه ، وكادوا أن يقضوا على الجنس البشرى وتركوا من تركـوا بنفوس هَلِعَة وقلوب غير مطمئنة .

والغريب أن هذا الخان لم يرتكب مثـل هذه القسوة فى حروبه الأولى فى صحراء « الجوبى » أو بأرض « الخطاى » ، ولكنه فعل تلك الأفعال الشنيعة بـالمسلمين وبالبلاد الإسلاميـة ، وكأنه أراد أن يثبت بحـق أنه نقمة السماء على هؤلاء ، ولقد وجدناه يلوم ابنه « تولى » على تأمينه أهل « هـراة » وعلى تركـه عشرة آلاف من جنـود « جـلال الديـن » دون أن يقتلهم .

قد يقولون إن أهل « هراة » لم يرعـوا هذا الصنيع الجميل الذى فعله بهم «تولى » فثاروا بالمغول ، ولكن ذلك القول لا يمكن أن يكون عذراً للخان فيما فعـل ، فما يلام المغلوب على حقـه حين يثور لحقـه ، ولكن الملوم هو هذا المعتدى حين يعتدى أولاً وحين يقسو ثانيا . ثم إن الخان وإن كان قد كسب أرضًا فقد خسر قلوبًـا وأحنق العالم كله عليه فوقف له هذا العالم بالمرصاد ليحول بينه وبين طغيانه .

* * *

ويذكـر التاريخ أن قبيلة « التركمان » كـانت تقطن قرب « مَـرْو » ثم فرّت عنها فزعًا حين غزا « المغول » « مرو » ومضت إلى « أرمينيا » . ثم يروى التاريخ أن المغول بعد أعوام بلغوا « أرمينيا » فخرجت عنها قبيلة «التركمان» حتـى بلغت آسيـا الصغرى وألقـت فيهـا عصا الترحـال ، وكان عليهـا زعيم هـو «أرطغرل»الـذى ما إن لقـى ربّه حتـى انتقلت الـزعـامـة إلى ابنـه « عثمان » الـذى أسـس دولـة على أنقـاض الـدولـة السلجوقية عرفت باسم الدولة العثمانية .

وحـلّ الصيـف فـاتجه الخان بجـزء مـن جيشـه إلى مـرتفعـات «هنـدوكـوش» شمالى « الهند » ، وهنـاك أبـاح لجنـده أن يستريحوا وأن يأخذوا فى اللهو . وجلس الخان يفكـر فى أمره ويفكر فى أن عليه مهمة ثقيلة هى إدارة هذا المُلك الواسع ، ويفكر فى أن الأمر لا يمكن أن يتمَّ له عـن طريق المراسـلات بل عليه أن يجمـع إليه الخانات يشـاورهم فى الأمر . من أجل ذلك فكّـر الخان فى دعوة مجمع الخانات على أن يكون الاجتماع فى « هندوكوش » .

جــــلال الدين

ويحلُّ الخريف ويبـدأ « المغول » يتحـركون للحـرب ، فلقد ثـارت «هراة» وغير « هـراة » من المدن التى لقيـت شيئًا مـن شر « المغول » أو سمعت بشىء من ذلك الشر . وانتهى إلى الخان وهو فى « هندوكوش » أن « جـلال الديـن » يتهيـأ لحربه ، وأنـه يُعـد العُـدّة لإعداد جيـش فى الشرق . وعزم الخان عندما انتهت إليه هذه الأنباء أن يبعث أبنه « تولى» على رأس جيـش ليلقى الأمير وليـؤدب العصـاة ، غير أنـه رجع عـن عزمه ، وبدلا من أن يرسـل جيشًا إلى الشرق أرسله إلى الغرب صوب «خراسان » .

وخرج « جنكيز خان » على رأس ستين ألفًا مـن المقاتلين ليلقى هذا الجيش الجديد يقـوده الشاه ويتولى القضاء عليه ، ومـرّ الخان فى طريقه بمدينة «باميان » فطوّقها بحصاره ، وكـانت مدينة منيعة فتلبّث أمامها أيامًا . وحرصًا منه على لقاء الشـاه أرسل قائدًا من قواده للمضى فى إثر الشاه .

وتجىء الأنبـاء إلى الخان بأن الجيشين قـد التقيـا : جيش « المغـول » وجيش الشاه ، وأن جيـش الشاه قوامه ستون ألفـا من المقاتلين ، وأن

الشاه كاد يوقع بالقائد المغولى . ولم تكن كل تلك الأنباء التى انتهت إلى الخان عن الشاه صحيحة ، فلقد حدث أن جيشًا من الأفغان انضم إلى « جلال الدين »، وحدث بعد هذا أن «الأتراك » و « الأفغان » ثاروا بالأرخون المغولى وشتّتوا رجاله فى الجبال، وكان هذا كل ما وقع فلم يجتمع للشاه جيش من ستين ألفًا كما ذاع ، ولم يشتبك الشاه مع القائد المغولى كما بلغ الخان ، ولكن «جنكيز خان » على هذا لم يَعْنه أن ما نُقل إليه حقٌ أم باطل ، وحسبه أن قد علم أن هناك ثورة وأن هناك تجّمعات ضده ، وأن هذا وذاك كفيلان بأن يحركاه إلى أن ينتقم فيعنف فى الانتقام .

وكان « جنيكزخان » قد خرج هذه المرة دون أن يتزوّد بعتاده الحربى المعهود ، حتى إن « المغول » تعرضوا لكثير من المحن فى حربهم هذه ، ولكن الخان كان ذا عزيمة قوية ، وكان ذا بطش قاس فلم ينثن ، وأمر رجاله أن يزحفوا على « باميان » زحفة رجل واحد ، فإذا « باميان » فى أيديهم بعد لحظات . وعلى مألوف « المغول » انطلقوا فى المدينة يذبحون ويقتلون ويهدمون المساجد والقصور ، وتركوا « باميان » ثكلى تنعى مَن بَناها . ولم يكن غريبًا بعدُ أن تُسمى « باميان » « مدينة الأحزان » ، فإنهم يَروون أنها ظلت خمس سنين ليس فيها إنسان .

وتلبَّث « جنكيز خان » قليلا ليستريح من هذا الأثم وليجمع جيشه الذى كان موّزعًا فى شعاب الجبال ، ثم خرج به بعد أن التأمت صفوفه وتضامّت وحداته . وكان « الشاه » قد ظفر بجيش « للمغول » سبق

إليـه فشتَّـت شمله فى مـوقعـة نكـراء ، غير أن جنده مـا لبثـوا أن دبّ الخلاف بينهم على الأسـلاب ، فإذا هم منقسمـون على أنفسهم ، وإذا «الغوريون» الذيـن كانوا معه ينفصلون عنه ، وجهـد الشاه فى أن يعيد الأمور إلى نصابها ، وقد أفلح ولكن بعد جهد جيد . وارتد الشاه شرقًا إلى « غَـزْنَه » يستعـد لملاقـاة « المغول » ، ولكـن « المغـول » كـانوا لـه بالمرصاد فقد قطعوا على رسله السبيل ، وكـان الشاه قد أرسلهم يأتونه بمَدَد جديد ، فسدَّ « المغول » على هؤلاء الـرسل الطريق وحالوا بينهم وبين ما يريدون .

وأسرع الشاه بجيشه ـ وكان قوامه ثـلاثين ألفًا من المقاتلين ـ يعبر به جبـال « السّند » ، وكـان أمله أن يعبر النهـر لينضم بقـواته إلى قـوات «دلهى» ، ولكن « المغـول » كانوا منه قـاب قوسين أو أدنى ، فأحـاطوا بالشاه وجيـوشه ، وعرَّج الشاه نحـوالنهر يريد أن يعبره ، فـإذا هو بين يدى مكان عميق عسير عليه عبوره ، وإذا الجبلُ عن يساره والنهر عن يمينه و«المغول» أمـامه . ورأى « الشاه » هذا الحرج وخـاف أن يدرك اليأس جنوده فيركنوا إلى الفرار ، فأمر فـأُحرقت السفن حتى لا يمكِّن من تطاوعه نفسه بالفرار أن يفرّ .

وأطلّ الفجر واندفعت جيوش المغول زاحفة يتقدّمهم الخان . وكما تقدم الخان جيشَه تقدَّم الشاه جيشه ، واشتبك الجيشان ، يهجم الجناح الأيمـن من جيش الخان على الجناح الأيسر مـن جيش الشـاه فيردّه ، وكان يبغـى أن يبلغ النهـر فيلتف بجيـش الشاه . وهكـذا ثبت جيـش

المسلمين لجيش «المغول». ويحمل الشاه حملة صادقة على قلب الجيش المغولى فيمزقه بَدَدا ، ويُطمعه هذا النصر فى أن يوغل فى التقدم بحثًا عن الخان . ويدرك الخان الشر ، وكان جواده قد صُرع تحته ، فيمتطى غيره ويتحول عن مكانه إلى مكان آخر .

وفى الحق لقد كانت فرصة مواتية للنصر أبلىَ فيها المسلمون بلاء حسنا ، وارتفعت فيها أصواتهم بالتهليل والتكبير وساد الفزع قلوب «المغول» ، ولكن المسلمين كانوا قد سحبوا بعض قواتهم من فوق المرتفعات ، ورأى الخان العجوز هذه الفرصة فاستغلّها وأمر قائدًا من قواده هو «بيلانويون» بأن يمضى إلى تلك الأماكن التى انسحب عنها المسلمون ، يريد بذلك أن يمكِّن لنفسه من أن يلتف بالمسلمين بتلك الحركة التقليدية «التولوغما» . وتمَّ « للمغول » ما أرادوا على الرغم مما لقى هذا الجيش المتقدم من ويلات ونكبات ، وتدفق الجنود الذين اعْتَلوا شعاب الجبال يريدون أن يلتفوا بالمسلمين . وهكذا تم «للمغول» أن يفصلوا ما بين وحدات المسلمين ، وانقلبت المعركة رأسًا على عقب ، فإذا المسلمون محوطون بـ « المغول » ، وإذا الشاه يفكر فى الانسحاب برجاله إلى النهر . ولكن عدوَّه كان أسرع منه إلى النهر فقطع عليه السبيل ، وإذا الشاه يبلغ النهر وحده لا يجد إلى جانبه إلاّ عددًا قليلا من أتباعه ، وحين أدرك أنهم سيلحقون به تخّفف من سلاحه وامتطى جواده ورمى بنفسه فى النهر يريد أن يبلغ الضفة الأخرى ، والخان ينظر إليه فى حسرة ، إذ وجده قد أفلت من يده ،

غير أنـه كـان مُعجبًا بشجـاعتـه . ولقـد رووا عنـه أنه فى غمـرة هـذا الإعجاب قال : « ما أسعد من يَلد مثل هذا الابن » . ويحدِّث التاريخ أن الشاه كـان حريصًـا على هذا الجواد الـذى نجا بـه وخلّصه مـن هذا المأزق الحرج ، وظل محتفظًـا به لم يمتطه إلاّ حين استعـاد سلطانـه بعد عودة «جنكيز خان » إلى أرضه .

* * *

وما من شك فى أن الشـاه قد خسر كثيراً من جنده فى الميـدان قتلا ، وخسر كثيراً من جنـده فى النهر غـرقا ، وخسر ابنـه الصبى الذى كـان عنده فى السابعة من عمره ، فقـد وقع فى يد الخان فقتله الخان ولم يرحم صباه .

وما سكـت الخان عن تتبُّع الشاه ، ففـى اليوم التالى أرسل فـرقة فى إثره فَعَبرت النهر ودمَّـرت فى طريقها قرى وقتلت أناسًـا ، ولكن تلك الفرقـة لم تقوَ على جـوِّ تلك البـلاد ولم تقو على أمـراضها فعـادت تنذر الخان بالـويل إن هو بقى ، فلقـد نقلوا إليه فيما نقلوا أنهم رأوا حيـوانًا مخيفًا أخضر اللون لـه قرن واحد وذيل يشبه ذيل الحصـان وأنه يستطيع أن يحكى صوت الإنسان ، وحين رآهم ذلك الحيوان صاح فيهم محذرا بأن يرحلـوا . وصدَّق الخان ما سمع ودعـا إليه رجلا يثق بـه هو « يى لوتشوساى » يسأله عن تفسير ذلـك . ويقول المؤرخون إن هذا الرجل قال له : « إن ذلك الحيوان هو « كيوتوان » الذى يجيد جميع لغات العالم يحب البَشر ويفزع مـن رؤية الـدماء ، وحديثـه هذا هـو نذيـر لك أيها

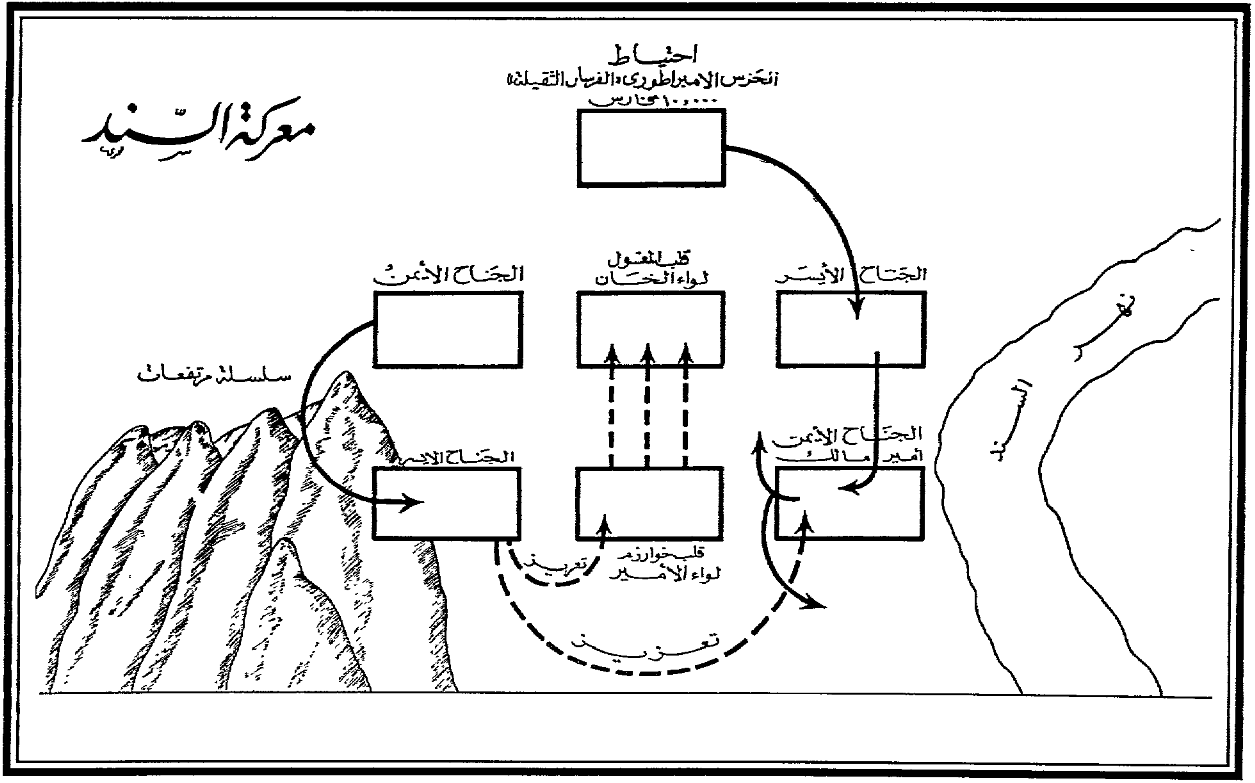
الخان ، وأنت يا مولاى أكبر أبناء السماء ، والشعب والناس أبناؤك ، وهو يطلب إليك العطف الذى ألهمتك إياه السماء لنفع الجنس البشرى» .

والمؤرخون الذين يروون هذا يزعمون أن عدول الخان عن غزو الهند كان لذلك السبب . .

* * *

وحين أفلتَ الشاه وعبر نهر « السند » بمن معه كانوا لا طعام لهم ولا مأوى فأغاروا يقتاتون ويطعمون . وظل الشاه بمن معه يتنقل بين ربوع الهند حتى بلغ « دلهى » ، وهناك أبى أمير « دلهى » أن يجُير الشاه خوفًا من بطش « المغول » ، وطلب إليه أن يرحل عنه بعد أن زوّده بالهدايا ونصحه بأن يقصد إلى « مولتان » التى على نهر « السند » .

لقد كانت موقعه « السند » هى المعركة الأخيرة التى خاضها فرسان «خوارزم » ، كما كانت سببًا فى تفكير الخان فى أن يعود إلى صحراء «الجوبى » . فقد بدأ النزاع يدبّ بين مجمع الخانات كما بدأت الثورة تهيج فى مملكة « هيا » . وعاد الخان يشق طرقا جبلية وعرة ، غير أنه فى طريقه أغار على مدينة « بشاور » ثم خلفها إلى « سمرقند » فبلغها فى خريف ١٢٢١ ليجدها خَربة قد يبست أشجارها وتهدمت قصورها وتقوّضت مساجدها ، ونظر إليها الخان وفى قلبه شىء من أسى ، ووجد الحكيم «بى لوتشوساى » الفرصة سانحة لأن ينصح الخان فتقدم منه يقول : «لقد آن أن نضع حدا لتلك المذابح يا مولاى » .


معركة السند
احتياط
الحرس الامبراطوري والفرسان الثقيلة
١٠,٠٠٠ فارس
الجناح الأيمن
قلب المغول
لواء الخان
الجناح الأيسر
سلسلة مرتفعات
الجناح الأيسر
قلب خوارزم
لواء الأمير
الجناح الأيمن
أمير مالك
تعزيز
تعزيز
نهر
السند

وكان من بين الأسرى » الذين وقعوا فى يد الخان إمام مدينة « هراة » وكان حاضراً هذا الحديث فاشترك فيه والتفت إلى الخان يقول له : « إن ما فعله حاكم « أوترار » بالتجار كان غدراً من الغدر » ، يريد ذلك الإمام أن يلين قلب الخان بعد ما وجده قد لان شيئًا عند سماعه كلمة الحكيم الصينى . والتفت الخان إلى هذا الإمام يقول له : «وهل يبقى اسمى خالداً بعد موتى » وأجابه الإمام ــ وكان حكيما لَبِقًا ـ : «إنما يبقى الاسم ما بقى السكان » .

عندها رقّ « جنكيز خان » شيئًا وأقام على « سمرقند » حاكماً من أهلها ، وأشرك « المغول » مع الأهلين فى إدارة شئون البلاد ، ولكنه اشترط عليهم أن يجعلوا « الياسة » قانونهم .

ولكن ما كاد الخان يخرج عن المدينة ، وما كاد يمضى بعيدا حتى ارتدت إليه قسوته ، فإذا هو يأمر بقتل الأسرى كلهم ، وإذا هو يقضى على جموع كثيرة كانت تمضى فى إثر الجيش المغولى ، ثم حمل معه نساء المسلمين إلى صحرائه بعد أن تركهنّ يُلقين آخر نظرة على أرضهن .



«جامع التواريخ » لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م هولاكو وزوجته

فى مجلس أنس وطرب . دار الكتب القومية بباريس



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م جنكيز خان يعتلي منبر مسجد بخارى

دار الكتب القومية بباريس



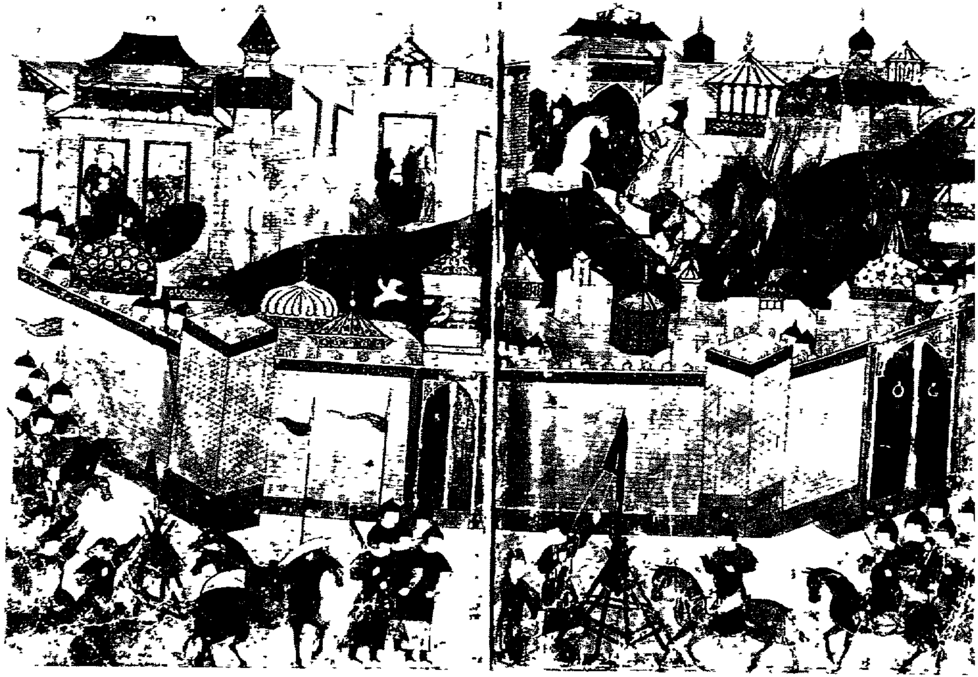
«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م المغول يسوقون الأسرى

دار الكتب القومية بباريس.



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥م مضرب خيام المغول وتعذيب الأسرى

دار الكتب القومية بباريس



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م هولاكو يحاصر مدينة بغداد

دار الكتب القومية بباريس



شاهنشاهنامه . شيراز ١٣٩٧ م الخليفة المعتصم بين يدى هولاكو ـ

المتحف البريطانى

نهاية محارب

لقد بدأ الوهن يدبُّ فى جسد هذا المغولى الهَرِم ، فلقد جعّدت السنون وجهه الغليظ وانحطّت قواه وفقد حيويته وأخذت جراحاته القديمة تلحُّ عليه وتنغّص عليه راحته ، وأدرك الخان أنه ميت ، وأن منيّته قد قَربت ، فأرسل رسله يدعو إليه كبار ضباطه لحضور مؤتمر كبير على ضفاف نهر «سيحون» ، فى ذلك المكان الذى نفذ منه أول مرة إلى « خوارزم » . وكان الوقت فى مستهل الربيع ، ذلك الشهر الذى جرت العادة بأن ينعقد «الكورلتاى» فيه .

واجتمع إليه قواده من الشرق والغرب بعد أن قطعوا مسافات طويلة ورحلات شاقة . وجاء إليه ابنه « تولى » من خراسان » يجرُّ وراءه قوافل ممتدة من الجمال البيضاء ، بينما انحدر إليه « شاطا جاى » من قمم الجبال الثلجية يسوق أمامه مائة ألف جواد ، ومن هضبة «تيان شان» حضر إليه زعيم « الأويجور » أعزّ حليف للخان ، كما وفد إليه زعماء « القرغيز » وشيوخ « التركمان » .

واجتمع « الكورلتاى » فى سرادق أبيض ممتد وَسع ألفًا من الرجال ، وقدّم القادةُ والأمراءُ الهدايا من مختلف الأنواع إلى الخان

الذى جلس فوق عرش الشاه « علاء الـدين » وكان قد حمله معه من «سمر قند» ووضع إلى جانبه صولجان الشاه الراحل وتاجه ، وفَرش تحت عرشه اللباد الرمادى المنسوج من وبر الحيوان رمزاً لسيطرته على «الجوبى» .

وأخذ الخان يقصّ على المجتمعين أخبار حروبه ومعاركه التى خاضها ، عَازياً النصر الذى أحرزه إلى التمسك بشريعة « الياسة » ، ومن ثم نصح الأهالى بالتزام نصوصها . ثم التفت إلى بنيه الثلاثة ناصحًا يقول لهم : « لا تجعلوا للخلاف بينكم سبيلا » .

وفيما كان المؤتمر منعقداً وفد « سابوتاى » قادمًا من « بولندا » مصطحبًا معه « جوشى » بعد أن أقنعه بالمثول بين يدى أبيه . وفرح الخان بلقاء ابنه ، وركع الابن بين يدى أبيه آخذاً بيده ليضعها على جبهته رمزاً للخضوع والولاء . وانفضّ المؤتمر ، وعاد « جوشى » إلى « الفولجا » ، ومضى « شاطا جاى » إلى بلاده ، ورجعت بعض الجيوش إلى « قره قرم » .

ولم يكن الخان وهو فى تلك السن قد هدأ على الرغم من كبره ، فلقد كان له خصمان لا معدى عن أن يثأر منهما ، هما ملك « هيا » فى نهاية الطريق إلى «التبت» وآل «صُونْ» فى جنوب الصين . من أجل ذلك أرسل الخان قائده «سابوتاى» لغزو بلاد « صُونْ » وأراد هو أن يخضع قبائل « هيا» .

وخرج الخان للقاء خصمه واستقبله خصومه بهجوم عنيف موحّد ،

غير أنهم لم يوفقوا ، وقُتل عدد كبير منهم ، بلغ فيما يقال ثلثمائه ألف رجل قتلوا فى المعركة وقَتل الخان غيرهم ممن بقوا بعد ذلك . أما ملك الـ «هيا» فقد لاذ بقلعة جبلية وأرسل يطلب الصلح من الخان ، وأجابه الخان إلى ما أراد وهو يضمر له الشر . .

وفيما كان الخان خارجًا بنفسه للقضاء الأخير على « آل « صُونْ » بلغه نبأ وفاة ابنه « جوشى » فى برارى « روسيا » فاهتمّ وحزن ، ولكنه على ذلك كتم همّه وحزنه ، وبينما هو فى الطريق تلبَّث وأرسل يطلب ابنه « تولى »، وحضر الابن ليلقى الأب ، فإذا الأب راقد قرب الموقد متدثّر بالفراء ، وكأن الخان قد أحسّ الموت فالتفت إلى ابنه يخاطبه : «إنى لأرى منيَّتى قد حانت ، وسأترككم عما قريب » . ثم استدعى الخان إليه كبار ضباطه وأخذ يملى عليهم ويشير ، وفيما هو يملى ويشير، لفظ أنفاسه الأخيرة دون جزع أوتأوُّه .

ومات الخان بعد أن خلّف لأبنائه إمبراطورية واسعة ممتدة وجيشًا كبيرًا مُعدًّا ، وكان موته عام ١٢٢٧ .

وركَز القوم سهماً فى الأرض أمام خيمة الخان الراحل ، وكان الخان قد أوصى بالانتقام من ملك الـ «هيا» . وحضر ملك الـ «هيا» فى الحاضرين للقاء الخان وهو يظنه حيًّا ، ولكنه ماكاد يصل هو ورجاله حتى أخذهم « المغول» على غرَّة وقتلوهم عن آخرهم .

* * *

لقد هال « المغول » موت الخان ما فى ذلك شك ، فهو الرجل الذى

بسط أيديهم على العالم . من أجل ذلك كان لابد لهم قبل أن يواروا جثمانه التراب أن يعرضوه على شعبه ، ومن بعدها يحملونه إلى مقرّه المختار إلى جوار زوجه الأولى « بورتاى » . والغريب أن « المغول » الذين قتلوا الناس باسم الخان حيًّا ، استرسلوا فقتلوا الناس باسم الخان ميتا ، فلكى يُخْفُوا عن الأعداء موت الخان مضوا يقتلون ويذبحون كل من يلقونه فى الطريق .

ويعزو« ماركو بولو » موت الخان إلى سهم أصابه فى ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع فى إقليم « صُونْ » ، على حين يُغفل المؤرخون هذه ويقولون إن موته كان إثر مرض اضطره إلى لزوم فراشه ، وكان الطقس قاسيًا فعجَّل بموته .

وكانت عادة «المغول » أن يدفنوا خاناتهم فى سفح جبل شاهق يسمونه جبل « الطاى » مهما كانت الشقة بينهم وبينه ولو استغرق ذلك مائة يوم سيرًا على الأقدام . وكان من معتقداتهم أن كل من يقتلونه وهم يحملون رفات الخان إلى مقره الأخير يصبح خادمًا للراحل فى حياته الأخرى ، يستوى فى ذلك الرجال والحيوان . وما ندرى كم قتل « المغول » من رجال وحيوان فى طريقهم لدفن الخان !

وحُفر القبر تحت سنديانة ضخمة ، ويقولون : إنهم وكلوا إلى قبيلة برُمَّتها العناية بالقبر وإطلاق البخور الذى انتشر دخانه فى الغيضة المحيطة ثم انتشر منها فى الغابات المجاورة فغطى على ذلك كله وكاد يخفى القبر .

خاتمة المطاف

طـوى « المغـول » عامين فى حـزن على زعيمهم الـراحل « جنكيـز خان» ولى ابنُه « تـولى » فيهما أمر «المغول » يدبّر شئـونهم مكان أبيه من حاضرة ملكـه « قره قرم » . وما إن انقضـى العامان وانسلخـت عنهم فترة الحداد وخـرج «المغول » مـن حـزنهم حتـى تهيأ الأمـراء والقـادة ليختاروا الخاقان الجديـد أو الامبراطور الجديد ، تنفيذا لمشيئـة الغازى الراحـل . وعاد أبناء «جنكيزخـان» كلهم على أنهم ملوك حـاكمون ، يخوّل لهم هذا الحق ما أوصى به أبوهم قبل وفاته . فعاد « شاطاجاى » الغليظ الطبع ـ والذى غدا الابن الأكبر بعد أن توفى أخوه « چوشى » ـ من البلاد الإسلامية فى أواسط آسيا . كما عاد « أوجوتاى » اللين الطبع من سهول « جوبـى » ، و « باطو » العظيم ـ حفيد « جنكيـز خان » من ابنه « جوشى » ـ من برارى روسيا .

لقد شبّـوا جميعًا عـن الطوق وغدوا رجـالا تجرى فى عروقهـم دماء القبائل المغولية ، كما أصبحوا الآن سادة الدنيا يحكمون رقعة كبيرة من العالم ، وينعمون بما تنضم عليه من ثروات لم تكن لتخطر لهم على بال ، وهم الأسيـويون الذيـن نشؤوا بين قـوم بدائيين متوحشين ، فـإذا هم

أربعتهم لكل واحد منهم جيش عظيم تحت إمرته يخضع لمشيئته ، سكروا بخمرة الحياة فامتلئوا نشوة وذاقوا ملذات الدنيا ونعموا برغدها ورفاهيتها ودانت لهم ربوعها ، وإذا هم كما خال لهم أبوهم قد وقع فى أيديهم ما تمنى لهم حين قال : « لقد كُتب لأحفادى أن يرتدوا فاخر الثياب الموشاة بالذهب ، وأن يطعموا شهى الطعام ما لذّ منه وطاب ، وأن يمتطوا صهوات الجياد العريقة ، وأن يأنسوا بعشرة العذارى الفاتنات اللاتى تهفو إليهن القلوب ، وما أراهم سوف يفكّرون فيمن ساق إليهم هذا النعيم المحبَّب إلى النفس » .

هذا المُلك الواسع الذى وقع للأبناء سرعان ما أثار النزاع بينهم وحرّك الخلاف فى نفوسهم ، فما كاد العامان ينقضيان حتى وقف الأبناء الأربعة ينازع بعضهم بعضا . وكان أول ما ثار من ذلك موقف « شاطاجاى » منهم ، فهو أكبرهم ، وهو بهذا جدير ــ وفق تقاليد المغول ـ بأن تكون إليه الرياسة الخاقانية . ولكن الأخوة وجدوا أنفسهم أمام وصية للغازى الراحل وما باستطاعتهم أن يخالفوا عما أوصى به أبوهم ، إذ كانت لا تزال هيبته تملأ نفوسهم وكأنه حىّ بينهم يمتثلون أمره ويستجيبون لرأيه ولا يخرجون عن طاعته . وكم حذّرهم أبوهم عواقب الفتنة وساق إليهم النُّذر إن هم اختلفوا على أنفسهم ، وكم أوصاهم أن يشد بعضهم أزر بعض ، وأن يفزعوا فى كل خلاف يجدّ بينهم إلى « الياسة » يجعلون من موادها حكَماً بينهم . ولقد أدرك الأب ببعد نظره أن امبراطوريته تلك الشاسعة ، التى لمّا يصلب عودها

بعد ، لن يُكتب لها البقاء إلا إذا بقيت فى سلطان رجل واحد يجتمع إليه أمرها كله .

وحين فكر « جنكيز خان » فى هـذا قبل أن يتخطّفه الموت فكر فى أن يجعل أمر تلك الامبراطورية إلى ألين ولده عريكة ، وأسمحهم نفسًا ، وأكرمهم خلقا ، وأنقاهم سريرة ، ليضمـن شعبه حول حاكمه فيقوى به الحاكم . من أجل ذلك فكر « جنكيز خان » فى ولده «أوجتاى » ولم يفكـر فى غيره من أبنـائه، لأنه رأى « أوجتـاى » يجمـع هذه الصفـات كلها . وكما فكّر الخان فى هذه حين اختـار « أوجتاى » فكّر فى غيرها ، فلقد رأى إن هـو ولىّ « تولى » أصغـر أبنائه فسـوف لا يرضـاه أخوتـه الآخرون، كما فكّر إن هو جعل الأمر إلى « شاطاجاى » الفظ الغليظ لم يرضـه إخوته ، وهكذا كـان اختيار الخان لابنه « أوجتاى » يمليـه هذا كله .

واجتمـع مجلس الأمـراء فى « قره قـرم » ليختـاروا الخان ، وتقـدم «تولى» ـ وكان الأمر إليـه كما مرّ بنا ـ إلى هذا المجلس يطلـب اعفاءه من الحكم . وكـان المجلس يترسـم فى اختياره للخان ــ مبادئ « اليـاسة » ويلتزم وصية الراحل ، من أجل هذا طلب المجلس من « أوجتاى » أن يقبل عرش أبيه . غير أن رئيس المجلـس لم يقر المجلس على هذا الرأى ورأى أنـه غير لائق أن يتقـدم« أوجتاى » أعمامـه أو أن يتقـدم شقيقـه الأكبر ، وارتضى أوجتـاى هـذا الـرأى . وبقى القـوم مختلفين أربعين يومًا يسـودهم الاضطراب ، يزيد فى ذلك القلق وهـذا الاضطراب ما

عُرف عن « أوجتاى » من صلابة رأى ، ينضم إلى ذلك أن الكهنة لم يكونوا على وفاق فيما حَدَسوا ، ولم يكونوا كلهم راضين بما كان .

من أجل هذا لم يجد الأمراء والقادة والمحاربين القدماء بُدًا من التدخّل فى الأمر ليحسموا هذا الخلاف ، فأقبلوا على « أوجتاى » يعنفون به أشد العنف ويذكّرونه بأن الخان قد اختاره خَلَفًا له ، وأنه لا مفرّ له من الانصياع لأمر الخان . وانضم إليهم « تولى » يذكّرهم بما أوصى به أبوه وهو على فراش الموت قبل أن يترك الحياة ، كما شارك «تولى » الرأى يى لوتشوساى الذى كان مستشاراً لـ « جنكيز خان» ، ولقد بذل هذا المستشار الحكيم كل ما فى وسعه واحتال ما وسعته الحيلة ليحول بين الناس وبين أن ينزلقوا إلى مزالق الطيش .

وتربّع « أوجتاى » على العرش ، نزولا على رأى الناصحين له . وفيما القوم ملتفون به يُملى على « يى لوتشوساى » فكره الثاقب ، إذا هو يتجه إلى « شاطاجاى » يقول له : ما أنت ـ وإن تك أكبر الأبناء ـ إلاّ فرد من أفراد الرعية ، وجدير بك فى سنّك أن تغتنم الفرصة فتكون أول راكع بين يدى أخيك على عرشه ليحذو الباقون حذوك . ولقد تردد « شاطاجاى » شيئًا ، ولكنه على هذا لم يجد مناصًا من أن يركع بين يدى أخيه . وحين ركع «شاطا جاى » ركع النبلاء والكبراء ، وغدا «أوجتاى » خاقانا يدين له الجميع .

وكان حكم « أوجتاى » ـ كما يقول المؤرخون ـ يمتاز بالتسامح ، يُعزى ذلك إلى وثوقه بالحكيم « يى لوتشوساى » . وقد مرَّ بنا أنه كان

لا يؤيد الخان فى قَسوته ، وهو الـذى أشار على الحاكم الجديد بأن يُعنى بتعزيـز إمبراطوريتـه ، وبأن يضع حـداً لذلـك الشرّه فى إبادة البشر .
ويحكى عـن هذا الحكيـم أنه عـارض « سابـوتاى » الـذى كان يحارب «الصُون » مع « تولى » عندما همّ بذبح سكان مدينةمن المدن ، و كانت تضم مليونًا ونصف مليون من الناس .

وارتاح « أوجتـاى » إلى مستشاره الحكيم وأنس بـرأيه وكان يـأخذ بكل مـا يشير به ، وحين وجـد هذا المستشـار الخان معه وضـع له نظما جديدة للضرائب ، ففرض رأسًا من الماشية على كل مائة من «المغول» ، كما وضع مبلغًـا من الفضـة أو وزنًا مـن الحرير على كـل أسره صينية ، وهو الذى أشار على الخان الجديد باستخدام الكتبة الصينيين فى الإدارة الحكومية ، وهو الـذى أسس المدارس لأولاد « المغول » ، وأصبحت «قره قوم » بفضله تزخر بالمؤن والغلال والبضائع .

ولقد كانت للخان الجديد معارك ، اشتبك مع الشاه فأوقع به ، ولم تقـم للشاه بعـدها قـائمة . وفى عـام ١٢٣٥ جمع الخان الجديد مجلـس «الكورلتاى» الذى أسفر عن موجة غزو ثانية « للمغول » ، ولكن هذه الموجة ما لبثت أن تعثـرت لموت الخان عام ١٢٤١ . وانقضت سنوات عشر فى خلافات متصلة بين بيت « شاطا جاى » وبيت « أوجتاى » على العـرش ، وانتقـل العـرش مـن بيـت « أوجتـاى » إلى ابنـىْ «تـولى» : «مانجو» ثم «قوبلاى» من بعده .

* * *

وبدأت موجـة الغزو الثالثة للمغـول وكانت أشد الموجـات الثلاثة عنفـا . وأخـذ المغـول يغيرون على بـلاد العـالم مـرة أخـرى ، فغـزا «هـولاكـو» شقيق «قـوبـلاى خـان» العراق واستـولى على «بغـداد» وبلغت جيوشـه قرب «بيت المقدس» ، وامتلك «أنطـاكية» وزحف على آسيا الصغرى إلى أن وصـل إلى «أزمير» وأصبح على مسيرة أسبوع واحد من القسطنطينية .

وحين ولى «مصر» قُطُـز بن عبـد الله المعـزى سنـة ١٢٦٠ ميلاديـة كانـت الأراجيف حـول تحرك «المغول» قـد شاعـت وذاعت ، فلقـد عبروا الفرات وخرجوا يقصدون الشام وهدّدوا حلب بغاراتهم . وإذا صاحب حلـب والشام يؤكد مـا ذاع ، ويرسل إلى «قطز» يطلـب منه العون على قتـال «المغول» وصـد غاراتهم ، وإذا «هـولا كو» يـرسل رسلا أربعة إلى «مصر» ومعهم رسالة منه إلى «قطز» يدعو فيها «قطز» إلى الاستسلام بعد تهديد ووعيد نقتطع للقـارئ منها هذه العبارة ليعلم مدى ما انتهى إليه الغرور فى نفوس أولئك البرابرة . يقول «هولا كو» فى رسالتـه إلى «قطز» : «مـن ملك الملوك شرقـا وغربـا . . . . يعلم الملك «قطز» الذى هـو من جنس المماليك الذين هربـوا من سيوفنا إلى هـذا الإقليم . . . » ويمضـى «هولاكـو» على هذا النحـو فى رسالتـه يمجـد مـن شأنـه ويهوّن مـن شـأن «قطـز» ويدعـوه إلى الاستسـلام والخضوع ، ويذكـر بطشه وسلطانه ويـذكر ضعف من يقـف فى سبيله وهوانه .

فيجمع « قطز » إليه أولى الرأى يستشيرهم ، فإذا هم كلهم مجمعون على نجدة صاحب « حلب » وعونه ، وإذا هم مجمعون على قتل هؤلاء الرسل الأربعة ، فيقتلهم « قطز » ويعلق رؤوسهم فى جهات متفرقة من «القاهرة» : واحداً بسوق الخيل تحت « قلعة الجبل » ، وواحداً بظاهر « باب زويلة » ، وثالثا « بباب النصر » ، ورابعا بالريدانية . فعل هذا « قطز » لينفث فى روح شعبه وليهوّن من شأن عدوه ، وليلقى عليه الدرس الأول فى الإذلال والامتهان ، وليعرّفه أنه غير آبه بشأنه ولا مكترث بقوله .

وكان هولاكو قد عبّأ جموعا كثيرة من المغول أخذ يزحف بها ، لا يصادفه شىء فى طريقه إلاّ أتى عليه ، حتى إذا ما نزل « حرّان » وملك الجزيرة أرسل ولده « أشموط » إلى الشام . ويشرف « أشموط » على حلب فإذا الناس يهلعون فيتفرقون ثم يتجمعون وإذا هم بعد تجمعهم يتفرقون ، تهولهم تلك الجموع الغفيرة وذلك الجيش الجرار الذى قد ملأ الأرض ولم يترك على ظهرها شبرا ، هذا إلى ما عرف عن هذا الجيش من غدر وقسوة ، ثم ما عرف عنه من حيلة وخداع .

ولقد استولى المغول على حلب بعد أن غدروا بأهلها ، وبعد أن قتلوا وسلبوا وبعد أن نهبوا وسلبوا ، وحين نفض المغول أيديهم من حلب قصدوا إلى دمشق . وحين انتهى المغول إلى هذا قصدوا إلى غزة وبلد الخليل ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان ، وساقوا أمامهم الأسرى والأبقار والأغنام ، وحملوا معهم كل نفيس وغال . وهكذا

كـان شأنهم كلما دخلـوا قريـة أفسدوا فيهـا وعـاثوا ليلقـوا الرعـب فى القلوب ، ويشبعوا تلك الأنفس الظامئة إلى الشر والعدوان .

بلغ هـذا كله « قطـز » فأخذ يتهيـأ للقائهم واجتمـع بين يديـه جند كثيرون ، فألقـى الله فى روعه أن يخرج لهؤلاء المغـول ، لم يثنه عـن هذا الخروج ما ثنـى قادة وملوكـا عن لقاء « المغـول » من قبل . ولقـد عزم دون أن يـردّه عن هـذا العزم مـا كان يعلمـه من أن بلـدا مالم يقـو على الـوقوف أمـام زحف تلـك الجيـوش الجرارة ، بل لقـد امتلأ « قطـز » حماسـا وتصميما على القيـام بهذه الحملة ، فخـرج مـن مصر على رأس جيش مـن «مصر » و « الشام » ، ومضى بجيشه يطـوى الأرض حتى انتهى إلى « عين الجالوت » حيـث وقفت له جيوش « المغـول » ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من شهـر رمضان . وهناك استند المسلمون على مستنقعـات بيسان بجنـاحهم الأيمـن ، وهاجـم «المغول» جنـاح المسلمين الأيسر ، فتظاهر قطـز بالإنكسار والفرار محدثا ثغـرة بجناحه الأيسر ينـدفع فيهـا « المغـول » بقوة إلى مسـافـة تتيـح له الانقضـاض عليهم ، فيستـأنف « قطـز » الهجوم على العـدو وينفخ فى روح جنـاحه الأيسر حتى يثبت ، ويرمى « قطز » بنفسه فى المعمعة بعد أن يطرح عن نفسه خـوذته وهو يصيـح بأعلى صوته « وا إسـلاماه » فإذا الجنـود من حـوله يقـذفون بـأنفسهم فى ذلـك الأتون كما قـذف بنفسه « قطـز » لا يبالون الموت كما لم يبال هو ، وإذا المسلمون يثخنون فى عدوهـم ، وإذا المغول يولّـون الأدبار . وحين ولّوا لم تسعفهم أرجلهـم والمسلمون فى

إثرهـم حتى انتهـوا إلى بيسان ، عندهـا قنع المسلمـون بأن المغـول لن يعـودوا فـإذا المغـول لموٌّا شملهم مـرة ثـانيـة وأرادوا الإنقضـاض على المسلمين ، ولكـن المسلمين مـا أحسـوا منهـم هـذا التجمـع حتـى بادروهـم، وإذا « قطز » يصيـح صيحته الأولى « وا إسـلاماه » يقـولها مرات ثـلاثا ويشفعها بقولـه : « اللهم انصر عبدك قطـز على التتار » .

ويستجيب الله لقطـز ويؤيـد المسلمين من حـوله ، وإذا هـم جميعًا قـد أمكنهم الله من « المغول » مرة ثانية ، وإذا « المغول » كما فرّوا أولا فرٌّوا ثانيا ، ولكنهم حين فرٌّوا هذه المرة فرٌّوا لا يلوون على شيء .

وما كان « قطـز » وما كان المسلمون معـه يحلمون بهذا النصر ، وما كانوا يطمعون فى كثير منه أو قليل ، فهم لهذا أحسوا بقلوبهم أن الله من ورائهم قد أيّـدهم بنصره . وكان أكثرهم إيمانا بـذلك « قطز » ، فما إن رأى النصر بعينـه حتى نـزل عن فـرسه يمـرّغ وجهه فى التراب ويقبّـل الأرض ، ثم ينتصـب قائماً ليصلى ركعتين لله شكـرا على ما أعطـى من نصر وتأييد ، ثم يستقبل جنده ليراهم وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .

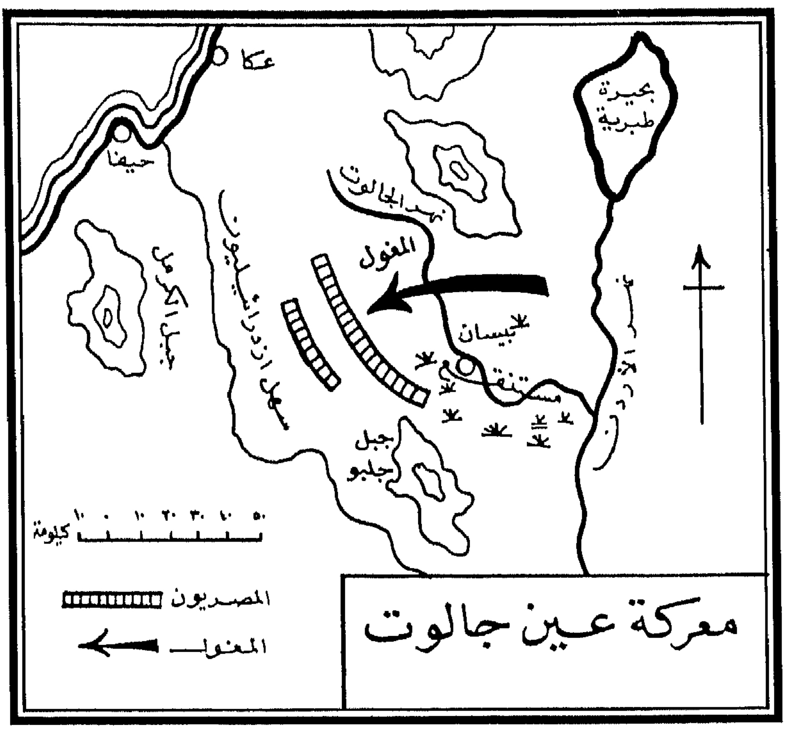
وتعتصم طائفة من « المغول » بالتل الذى كان إلى جانب المعركة فإذا المسلمون يحدقون بهم ويفنونهم عن آخرهـم ، وما سلم من « المغول » غير القليـل واسترد المسلمون بـذلـك ما كـانـوا قـد فقدوه مـن أرض وعتاد .

وكان الأمير « ركـن الدين بيبرس » من القـادة الذين أبلـوا فى تلك المعركـة بلاء عظيما ، فلقـد كان له الفضـل أولا فى مناوشـة « المغول »

وتعويقهم عن الهجوم ، وذلك حين أرسله « قطز » يسبقه إلى المعركة بفريق من الجيش ، فأخذ « بيبرس » بهذا الجمع الصغير الذى معه يراوغ « المغول » ، يُقْدم مرة ويحجم أخرى ، لا همّ له إلاّ أن يقف «المغول » فى مكانهم هذا إلى أن يصل «قطز » بجيشه . ولقد أفلح «بيبرس » ، فلقد انخدع « المغول » بأمره وخالوا أن من ورائه خدعة فتلبّثوا يحتاطون ، وظنوه يحتال للإيقاع بهم فتريثوا يتدبّرون .

وكان لـ « بيبرس » بعد هذه فضل آخر فى تلك المعركة حين جدّ فى إثر الفارين منها وتتبع جيوشهم حتى اضطرها إلى أن تخلى سبيل الأسرى الذين كانوا بين أيديهم من المسلمين .

وكان على مقدمة « المغول » قائد جبّار هو « كتبغا »الذى يرجعون إليه فى الرأى ويمضون فى أمرهم عن تدبيره ، وكان إلى هذا وذاك شجاعا مقداما له دراية شاملة بشئون الحرب ، ماهر فى انتزاع الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذى فتح الكثير من بلاد العجم والعراق ، وكان « هولاكو » يعتمد عليه ويتبرّك برأيه ولا يخالفه فيما يشير به . وكان هو الذى خرج للقاء « قطز » بعد أن ساق بين يديه جيوش «المغول» ومن انضم إليهم من غير « المغول » ، وحين رمى «قطز » بنفسه فى المعركة ليحمى جنوده رمى كذلك « كتبغا » بنفسه فى المعركة حتى لا يتخاذل جنده ، ولكن « قطز » عرف كيف يحمى نفسه ولم يعرف « كتبغا » كيف يحمى نفسه . وتقدم إلى « كتبغا » أمير من أمراء المسلمين ، وهو « جمال الدين آقوش الشمسى » وأمكنه


عكا
حيفا
بحيرة طبرية
نهر الجالوت
المغول
جبل الكرمل
سهل ازدرالونيلوت
بيسان
مستنقع
جبل جلبو
نهر الأردن
كيلومة
المصريون
المغول
معركة عين جالوت

الله من «كتبغا» فقتله شر قتلة .

وما من شك فى أن مقتل هذا القائد كان له أثر أى أثر فى اضطراب صفوف «المغول» وزلزلة نفوسهم وبث الفزع فى قلوبهم ، فلقد كان مقتله نصراً كبيراً أحس الجنود المسلمون حلاوته وأحبوا أن يذيقوا إخوانهم من حلاوة هذا النصر فحملوا رأس «كتبغا» إلى القاهرة حيث طيف به فى شوارعها ليرى الناس ما أفاء الله على المسلمين من نصر ، وما أعطاهم من تأييد وما أصاب به عدوهم من خذلان .

وما إن كتب الله النصر لـ «قطز» حتى أخذ يعيد الأمن إلى «الشام»، وينشر السكينة بين ربوعه ، وأقطع الأمراء من أصحابه ولايات «الشام» وأناب عنه الأمير «علم الدين سنجر الحلبى» على «دمشق» .

نهاية دولة

وكما امتـدت الحرب غربًـا امتدت شرقًـا ، فلقد أرسـل « قوبـلاى خان» أسطوله للاستيلاء على « اليـابان » ، وامتد سلطانه إلى « الملايو » وما وراء «التبت » حتى « البنغال » ، وكـانوا يسمون عهده (١٢٥٩ ـ ١٢٩٤) «العصر الذهبى» للمغـول . فلقد كان يحكم رقعـة من أوسع الـرقاع ويتمتـع بجاه عظيـم وسلطـان كبير، لم يبلغه ملـك من ملـوك الغرب .

ونقل « قوبلاى خـان » عاصمة مُلكه إلى الصين خارجًا بـذلك عن مألـوف آبائه ، وأخذ كثيرًا من عـادات الصين حتى أصبح صينيًـا أكثر منـه مغـوليًّـا . ولكـن الأيـام دارت دورتها ، ونسـى المغـول صلتهـم بأصلهم ، واندمجوا فى البلاد التى دخلوها ، وأسلم كثير منهم .

وما كاد الموت يختطف « قوبلاى خان » حتى تعرضت الامبراطورية المغولية إلى حروب وفتن وأصبحت ممالك متفرقة .

وفى سنة ١٤٠٠ ضمَّ « تيمـورلنك » القائد التركى أواسـط آسيا إلى الأقاليم الفارسية التى كان يحكمها ، وأوقع بالجيش الذهبى الذى كان يتزعمه « باتو » ابن « جوشى » هزيمة منكرة .

ولقد ظل « المغول » يملكون أمر الصين إلى عام ١٣٦٨ ، وما فقدوا قواعدهم فى روسيا إلا عام ١٥٥٥ عندما طردهم « إيفان » الرهيب .

وفى منتصف القرن الثامن عشر ــ أى بعد ستمائة عام من مولد «جنكيزخان » ــ نزحت آخر سلالة للغازى المغولى عن الهند عندما قبض الإنجليز على الأمر .

أما مغول الشرق فقد استسلموا لجيوش الامبراطور الصينى « كيين لونن » ، على حين أصبح خانات « التتار » فى شبه جزيرة « القرم » رعايا للقيصرة « كترينه » الروسية .

هكذا انقضت هذه الأعوام بها تحمل دون أن تخلّف أثرًا يدل عليها ، وعفى البلى معالم مدينة « قره قرم » التى كانت حاضرة لتلك الصحراء، وغطتها كثبان الرمال ، وغُيِّب قبر « جنكيز خان » فلم يعد يُعرف له مكان ، كما غُيِّب قبر زوجه التى عاشت وفيَّة له . وإن القدر الذى قسا على هذا المحارب الراحل هذه القسوة فأخفى آثاره ، قسا عليه أخرى حين لم يرزق سيرته أديبًا من أدباء « المغول » يصوغها ملحمة من الملاحم . ومن عجب أن هذا الذى حفظه لنا التاريخ عن «جنكيز خان » لم يكن غير الذى سجله له الأعداء لا الأصدقاء .

* * *

ونظرة واحدة إلى خريطة « آسيا » فى القرن الثامن عشر تكشف لنا عن المقر الأخير الذى استقرَّت فيه تلك القبائل البدوية التى هى من سلالة جحافل « جنكيز خان » . فإلى الشرق البعيد من البادية

القاحلـة ، بادية « الجوبـى » حيث الجبال شـاهقة لا ترقـى السُّحب إلى قممها وتمرّ متطـامنة وئيدة من بينهـا ، وحيث الرياح الهوجـاء تعصف برمالها والشمس المتقدة تلهب صخورها ، وأنّى مددت الطرف لا تقع إلاّ على فيافى جرداء ؛ لا شجر ولا حيوان ، ولا مدن ولا إنسان ، كلأ هنا وهنـاك حول مسارب المياه التى تنساب شحيحة بطيئـة . فى تلك البقاع التى ينتهى فيهـا المناخ إلى طرفيه من قيظ لافـح وبرد قارس ، فى تلك المساحات الشاسعة الممتدة بين بحيرة «بيقول » العظمى وما حولها من بحيرات تكتنفها الحرجات وتحلّق فى سمائها جوارح الطير ، تُـمعن حينا نحـوالشمال ، وتصوّب حينا صـوب الجنوب منذرة بميلهـا نحو الشمال أو انحـدارها إلى الجنـوب بما سيطرأ على المنـاخ مـن تقلب ومـا سيصيب الجو من اختـلاف . هناك حيث مدينة قره قـرم » التى دفنتها رمال الصحراء السافية ، وحيث قبر « جنكيـز خان » المندثر ، فى تلك المنطقة المتطرفة التى تغطى مـراعيها ثلوج الشتاء يعيش « المغول » الآن جائلين صيفهـم وشتاءهم ينـزلون فى قبـابهم المصنوعة مـن اللباد وبين أيديهم قطعان الماشية . ومـا من أحد يكاد يذكر أنـه فوق هذه الأرض عينها وعلى تلـك الهضاب نفسهـا زحف « جنكيـز خان » ، و زحفـت جيوشه معه لتُلقى الرعب فى القلوب وتنشر الفزع فى الأفئدة .

هكذا ارتفعت دولة « المغول » ثم وقعت ، وعادت كما كانت قبائل تغدو وتروح فى تلك البرارى ، حيث غدا وراح آبـاؤهم المحاربون من قبل .

كلمة أخيرة

وبعد ، فهذه هى سيرة المغولى « جنكيزخان » يسبقها شىء ويعقبها شىء آخر ، ويجتمع من هذا كله تاريخ « للمغول » يؤرخ لهم ، يفصّل شيئًا عن نشأة الدولة ويُجمل شيئًا عن نهايتها ، ويعرض تاريخ هذا المغولى كله ويستوعبه لا يكاد يُفلت منه شىء . وما قصدت حين جمعت هذا التاريخ وبوَّبته هذا التبويب إلا أن أسوق صفحة يعنى كل مثقف أن يطالعها ، ويعنى كل عربىّ أن يُلمّ بدقائقها ، ففيها العبرة مزدوجة، عبرة عن صاحبها وعبرة لنا . فما من شك أن صاحبها كان غازياً وكان شجاعًا وكان قائداً ، يُلقى علينا بسيرته الدرس بعد الدرس ، فى الوحدة بين صفوف الأمم وكيف تقودها إلى عزّة وكرامة، وفى الشجاعة ونسيان الذات والإقدام وكيف يهيئ هذا كله للأمة أن تسود . هذا هو مكان العبرة عن «جنكيزخان» . أما مكان العبرة لنا من تلك السيرة فهو ما طالعتك به من انقسام الأمم . وكيف يئول بها هذا الانقسام إلى هوان ، ويعنينى ما أصاب الأمة الشرقية الإسلامية من ذلك وما مُنيت به من فُرقة، وما جرّته تلك الفرقة إلى ذلك الخذلان الذى مرَّبنا .

وما أحوج الناس إلى أن يقرأوا التاريـخ ، ويفيدوا من ذلك التاريخ العظـات والعبر ، لاسيما إذا كان ذلـك التـاريخ قطعـة مـن تاريخهـم وصفحة من سجـل حياتهم . وما من شك في أن تاريـخ « المغول » كان قطعة من تاريـخ الأمة العربية ، دخل على حياتها فمـلأ من تلك الحياة صفحـات لايصح أن تمر دون أن نعيهـا ، ودون أن نتـدبّـر ما فيهـا ، ودون أن نعرف ما كان منها لنا وما كان منها علينا ، وكان في سيرة هذا الغازى مـا هو لنـا وما هـو علينا ، أمْلَتْـه علينا تلـك الصفحات التـي ضمت تلك السيرة .

وتلك القسوة التـى عُرفت عن « المغول » فصـوّرتهم غلاظ الأكباد وجفاة برابرة ، لنا منها أكبر درس وأبلغ عظة ، فالمرء إذا خاف حذر ، وإذا أراد أن يدفع عنه الشرَّ استعد لهذا الشر . ومـا كان « المغول » قساة وحدهم ، فمـع كل فتح قسوة ، ومـع كل غزو شدة ، فـالمعتدون هم هم وإن اختلفت عصورهم وتباينـت أجناسهم ، وإنما يختلفون فى لون تلك القسـوة ومظهر تلك الوحشيـة . ولكن رُبَّ ضارة نافعـة . فلولا غـزوات «جنكيـزخـان » وقسـوته واعتـداءاتـه على القيـم الإنسـانيـة وحريـات الشعوب، لما نَعِم النـاس بالسـلام بعد زوال حكمه بـالقدر الذى نعموا به بهذا السلامَ ، فالغـزو والعدوان أكّد شعور الناس بقيمة السلام، وزادهم تمسكًـا به وحماية له . والسلام كما نعلم غـاية ، ولابد لتحقيق هـذه الغايـة من أن نعـدّ لنا عُدَّة مـن قوة نـدفع بها عـن أنفسنا عـدوان أى معتد ، لكـى نضمـن لهذا السـلام أن يكون ولا ينـال منـه

غاصب . فمن الغفلة بمكان أن نستنيم لدعاة مغرّرين يدعوننا للسلام وما أرادوا بهذه الدعوة الباطلة إلا أن يضمنوننا على الخنوع والخضوع حتى لا نشمّر عن ساعد الجدّ ونعدّ للشدائد عدّتها .

ولقد كانت الغزوات عامة ، وغزوات « جنكيزخان » خاصة ، عملا بغيضًا وكريها يتنافى مع كرامة الإنسان ، إلا أنها عن غير قصد كانت وسيلة لتلاقى الشرق والغرب ، وكان لهذا التلاقى أثره على مظاهر الفكر ، فخرج عن عزلته أو قصوره على مكان دون مكان وشاع بين أوسع رقعة من العالم ، فصار بذلك ملْكًا للإنسان فى كل مكان .

سُقنا هذه السيرة لتحمل هذه المعانى ؛ لتحمل معالم التاريخ فنزداد به وعيًا ، ولتحمل مآسى التاريخ فتُنَبّه منا الوجدان وتوقظ منا الفكر ، ولتدل الإنسانية عامة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، على اختلاف العصور وتقدم الحضارات .

سردنا هذه القصة لنهيب بالإنسان ـ أنَّى كان هذا الإنسان ـ ليعرف حق أخيه عليه ، وليعرف أن الظلم بغيض وأن مرتكبه آثم ، فلقد مضى «جنكيزخان » وهو يَعُدّ نفسه بطلا من الأبطال ، ولو أنه استمع فى قبره لماَ سجّله التاريخ عنه لودّ أن يُردَّ إلى عالم الحياة ثانية ليكفِّر عما ارتكبت يداه . فهل للإنسان أن يدرك أنه ليس فى ميزان التاريخ إلاّ سيرة فحسب ، وأن مقاييسه الخاصة فى الحكم على أعماله لن تقف عثرة فى طريق التاريخ ، ولن تلوى قصد المؤرخين عن أن يعرضوا سيرته ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر؟

على أن اختلاف وجهات النظر لايعنى أنه ليس هناك مقياس عام استقرت عليه أحكام الإنسان منذ بدأت الخليقة . فالخير والحمق والفضيلة والجمال، وعمل الإنسان الدائب فى سبيل الإنسانية مبادئ قررتها طبائع الأشياء . وهى تتنافى مع العدوان والبطش والغزو مهما تكن هذه العناصر براقة وضاءة لامعة ، ولكنه بريق زائف وضوء مصيره ظلام . فهل الإنسان قادر دائماً على أن يحدد سيرته بين سير التاريخ ، فيأخذ جوانب القيم الثابتة المستقرة ؟ أم أن المغريات الزاهية قد تخطف بصره فيعدو وراء الأوهام؟

هنا تفترق سيرة عن سيرة ، ويختلف الحكم على الأشخاص فى صفحات التاريخ. فأما الذين يعجزون عن مقاومة أهوائهم فإن مكانهم فى صفحات التاريخ هو مكان « جنكيزخان » أيًّا كانت مظاهر الخير التى تنبثق عن شروره . وأما الذين يقدرون على مكافحة أهوائهم فهؤلاء هم عُمد التقدم الحضارى الإنسانى فى تاريخ البشر .

ثبت ببليوجرافى لكاتب هذه السطور

★ موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى . *

١ ـ الفن المصرى : العمارة	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٧١ طبعـــــة ثـانية ١٩٩٠
٢ ـ الفن المصرى : النحت والتصوير	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٧٢ طبعـــــة ثانيـة ١٩٩١
٣ ـ الفن المصرى القديـم : الفن السكندرى والقبطى	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٧٦
٤ ـ الفن العراقى القديم	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٧٤
٥ ـ التصوير الإسلامى الدينى والعربى	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٧٨
٦ ـ التصوير الإسلامى الفارسى والتركى	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٨٣
٧ ـ الفن الإغريقى	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٨١
٨ ـ الفن الفارسى القديم	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٨٩
٩ ـ فنون عصر النهضة	دراسة	طبعـــــة أولـى ١٩٨٨

* (الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبيرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو») .

١٠ ـ الفن الرومانى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٢
١١ ـ الفن البيزنطى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٢
١٢ ـ فنون العصور الوسطى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٣
١٣ ـ التصوير المغولى الإسلامى فى الهند	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٣
١٤ ـ الزمن ونسيج النغم		طبعـــة أولـى ١٩٨٠
(من نشيد أبو للو إلى أوليفييه ميسيان)		
١٥ ـ القيم الجمالية فى العمارة الأسلامية	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨١
		طبعـــة ثانيـة ١٩٩٢
١٦ ـ الإغريق بين الأسطورة والإبداع	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٨
		طبعـــة ثانية ١٩٩٢
١٧ ـ ميكلا نجلو	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨٠
١٨ ـ فـن الواسطـى من خـلال مقـامات	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٤
الحريرى [أثر إسلامى مصور]	وتحقيق	طبعـــة ثانية ١٩٩٢
١٩ ـ معراج نامه [أثر إسلامى مصور]		طبعـــة أولـى ١٩٨٧

★ أعمال الشاعر أوفيد

٢٠ ـ ميتامور فوزيس [مسخ الكائنات]	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٧١
		طبعـــة ثالثـة ١٩٩٢
٢١ ـ آرس أماتوريا [فن الهوى]	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٧٣
		طبعـــة ثالثـة ١٩٩٢

★ أعمال جبران خليل جبران

٢٢ ـ النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٥٩
		طبعـــة سابعة ١٩٩٠
		طبعـــة ثامنـة ١٩٩٢

٢٣ ـ حديقة النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٠
		طبعة سابعة ١٩٩٠
٢٤ ـ عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٢
		طبعة رابعة ١٩٩٠
٢٥ ـ رمل وزبد : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٣
		طبعة رابعة ١٩٩٠
		طبعة خامسة ١٩٩٢
٢٦ ـ أرباب الأرض : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥
		طبعة ثالثة ١٩٩٠
٢٧ ـ روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة	ترجمة	طبعة أولى ١٩٨٠
		طبعة ثانية ١٩٩٠
٢٨ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة	تحقيق	طبعة أولى ١٩٦٠
		طبعة سادسة ١٩٩٢
٢٩ ـ مولع بفاجنر : لبرنارد شو	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥
		طبعة ثانية ١٩٩٢
٣٠ ـ مولع حذر بفاجنر	دراسة نقدية	طبعة أولى ١٩٧٥
		طبعة ثانية ١٩٩٣
٣١ ـ المسرح المصرى القديم : لإتيين دريوتون	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٧
٣٢ ـ إنسان العصر يتوج رمسيس		طبعة ثانية ١٩٨٩
٣٣ ـ فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد	تأليف	طبعة أولى ١٩٧١
طومسون : لبيير دانينوس	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٤
		طبعة ثانية ١٩٨٩

٣٤ ـ إعصار من الشرق أو جنكيز خان	تأليف	طبعة أولى ١٩٥٢
		طبعة خامسة ١٩٩٢
٣٥ ـ العودة إلى الإيمان : لهنرى لنك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٠
		طبعة ثالثة ١٩٦٤
٣٦ ـ السيد آدم : لبات فرانك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٨
		طبعة ثانية ١٩٦٥
٣٧ ـ سروال القس : لثورن سميث	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢
		طبعة ثانية ١٩٧٦
٣٨ ـ الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٢
		طبعة ثانية ١٩٥٢
٣٩ ـ قائد البانزر : للجنرال جوديريان	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢
٤٠ ـ حرب التحرير	تأليف	طبعة أولى ١٩٥١
	بالمشاركة	طبعة ثانية ١٩٦٧
٤١ ـ تربية الطفل من الوجهة النفسية	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٤
	بالمشاركة	
٤٢ ـ علم النفس فى خدمتك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٥
	بالمشاركة	
٤٣ ـ مصر فى عيون الأوروبيين من الرحالة	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٤
والأدباء والفنانين (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)		طبعة ثانية ١٩٩٢
٤٤ ـ مذكراتى فى السياسة والثقافة	تأليف	طبعة أولى ١٩٨٨
		طبعة ثانية ١٩٩٠
٤٥ ـ المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية	إعداد	طبعة أولى ١٩٩٠
[إنجليزى ـ فرنسى ـ عربى]	وتحرير	

بالفـــرنسية

٤٦- Ramsès Re - Couronné : Hommage Vivant au Pharaon Mort, "UNESCO" 1974.

بالإنجـــليزية

٤٧- In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage " UNESCO " . 1972.

٤٨- The Muslim Painter and the Divine .The Persian Impact on Islamic Religious Paniting . Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press . London 1981.

٤٩- The Miraj - Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting . Pyramid Studies and other Essays presented to . I.E. S . Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988.

أبحـــاث

٥٠- The Portrayal of the Prophet . The Times Literary Supplement December 1976.

٥١- Problèmatique de la Figuration dans l'art Islamique.

La Figuration Sacrèe .

La Figuration Profane.

Plastique et musique dans l'art pharaonique.

Wagner entre la théorie et l'application

سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire de Collège de France 73 e Année Paris, 11, Place Marcelin - Berthelot 1973.

٥٢ ـ المشاكل المعاصرة للفنون العربية . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة «مواقف» عدد ٢ آيار ١٩٧٤ . بيروت .

٥٣ ـ حرية الفنان . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .

٥٤ ـ رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقيت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة «دولة قطر» فبراير ١٩٨٩ .

٥٥ ـ إطلالة على التصوير الإسلامى : العربى والفارسى والمغولى والتركى . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . أبريل ١٩٩١ .

٥٦ ـ سبيلٌ إلى تعميم مُدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» فى العالم العربى . معهد العالم العربى بباريس يونية ١٩٩٠ .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٩٨٧ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 09 - 0088 -5

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣